

Akhawia.net


مكسيم غوركي

طفولتي

الترجمة الكاملة



Bibliotheca Alexandrina
0095746



منقورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

مكسيم غوركي

طفولتي

الترجمة الكاملة

منتورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

كان والدي مستلقيا على الارض تحست نافذة غرفة صغيرة مظلمة
تعج بالفبار ، يبدو لي طويلا بشكل يلفت النظر ويدعو على الدهشة ،
وقد اكتسى بالبياض من قمة رأسه حتى اخمص قدميه . . وكانت اصابع
قدمه الحافية منفرجة عرضا بشكل غريب جدا ، تتباعد عن بعضها بفعل
حركة تشنجه ، واصابع يديه اللطيفتين ، المصلوبتين فوق صدره ، ملتوية
هي الاخرى بعناد وقوة . وكان درهمان نحاسيان يفلتان عينيه الضاحكتين ،
وقد أمسى وجهه النحيف شديد الزرقة ، هالني منه بصورة خاصة اسنانه
الاصطناعية وبروزها بين فكيه المتوترين .

وكانت والدتي ، نصف العارية بتنورتها الحمراء القصيرة ، جاثية
قربه تسرح شعره الطويل الناعم ، المنسدل بدلع على جبينه ، بذلك المشط
الاسود الذي اعتدت ان استعمله منشارا اقطع به قشر البطيخ . كانت
تجمجم باشياء عديدة مبهمه في صوت مبجوح عميق ، وقد ائتمخت عيناها
الرماديتان وراحتا تذرغان دموعا غزيرة .

كانت جدتي - وهي امرأة ضخمة الجسم ، مستديرة الراس ، كبيرة
العينين ، ذات انف بارز يبعث على السخرية - ممسكة بيدي ، وكل شيء
فيها كثير النعومة ، عظيم الكآبة ، فائق الفطنة . . . وكانت هي الاخرى
تذرف الدموع السخينة ، لكن بطريقة خاصة تصعد نغمة رقيقة ترافق بكاء
امي . وكانت ترتجف بكليتها ، وهي تدفني باستمرار ناحية والدي . أما
انا فارتقي الى الخلف ، وأفنتش عن مخبأ لي وراء تنورتها . . . كنت خائفا
ومتضايقا في وقت واحد . . .

كنت قد ابللت لتوي من مرض خطير طرحني في الفراش مدة طويلة ،
عادني والدي اثناءه - وأنا اذكر ذلك جيدا - وأخذ يلاعبني ويضاحكني في

نسيء كثير من الجذل والمرح . ولكنه اختفى ، فجأة . وشغلت مكانه هذه
المرأة الغريبة ، جدتي !

سألتها :

— هل تعبت كثيرا من السير حتى وصلت الى هذا المكان ؟

فأجابت :

— انا لم امش ، بل ركبت ! فأنت لا تستطيع السير على الماء ، ايها
الماجن الصغير ! لقد هبطت من نيجني نونجورود .

وقد ابهم هذا الكلام علي ، وان ترك في نفسي صدى مضحكا : كان
يقطن فوقنا في المنزل بعض الفارسيين ذوي اللحى الطويلة والاجسام
الناحلة ، اما القبو فيقطنه كالميكسي ذو البشرة الصفراء الذي يتاجر بجلود الخراف .
وكنت استطيع الهبوط اليه بالتزحلق على حاجز السلم ، او تدرججا اذا
زلت القدم بي . . . وانا اعرف ذلك تمام المعرفة . ولكن ، ما دخل المياه
في هذا الموضوع ، انها مخطئة ، وهي تخلط بين الاشياء بهوس وجنون .

سألتها :

— لم تنادينني بالماجن الصغير ؟

فمن جوابها المفحم الهازيء :

— لانك كبير جدا !

كان اسلوبها في الحديث لطيفا ، جميلا ، رائعا . . . ولقد اصبحنا
صديقين حميمين ، جدتي وانا ، منذ اليوم الاول للقائنا . اما الان فقد اخذ
القلق يستولي علي ، فأود لو اغادر هذه الغرفة بأقصى سرعة ممكنة .

كانت أمي تقلقني ، تملؤني دموعها ونواحا بمخاوف غريبة لا حصر
لها ، فتلك هي المرة الاولى التي اراها فيها على هذه الحال . . . كانت ،
على وجه العموم ، امرأة عابسة الوجه ، صامتة ، نظيفة ، حسنة
الهندام ابدا ، عريضة المنكبين كالفرس ، ذات جسد متين ، ويدين صلبتين
توينتين للغاية . . . غير انها غدت الان مترهلة الاعضاء ، شعشاء الهندام
بشكل لا يبعث على الارتياح ابدا . . فثيابها ممزقة ، وشعرها — وهي تسرحه
عادة وتعقصه كتلة ضخمة شقراء في قمة رأسها — قد تبعثر على كتفيها
العاريتين ونزل فوق عينيها ، في حين راحت خصلة منه تتراقص على وجه
والدي النائم . ومع اني قضيت مترة طويلة منتصبا في وسط الغرفة كالتمثال ،

مانها لم تعرني أدنى التفات على الإطلاق ، إذ شغلها عني أمر تصفيق شعر زوجها ، وواجب ذرف الدموع عليه ...

وفتح الباب فجأة ، والقي المجندي الحارس وعدد من الفلاحين السود الوجوه نظرة عجلية على الفرقة ، ثم صاح الأول بحدة :
— هلموا اسرعوا ، ولحملوه خارجا !

كان حرام اسود اللون ، مسدلا على النافذة ، وهو يتطاير بفعل تيار الهواء الجاري فكانه شرع شارب صغير ، يذكرني ، دون سبب على الإطلاق ، بما حدث لي مرة عندما اصطحبتني والذي في نزهة على متن مركب شراعي ، وانفجرت عاصفة من الرعد بفتة ، فضحك والذي ، وضمني بين ركبتيه ، وصاح يهدىء من روعي :

— لا بأس ، لا تخف يا بني !

وعلى غير انتظار ، تحاملت والذي على نفسها بصعوبة ، ولكنها لم تلدث أن سقطت واستلقت على ظهرها ، فانتشر شعرها على الأرض ، وازرق وجهها ، وغاض منه كل لون ، وانطبقت أسنانها بعنف كأنطباق أسنان والذي تماما .

تمتمت في صوت خائف يرتعد :

— اغلقي الباب ، أخرجي الكسي !

فدفعني جدتي جانبا ، وهي تمضي ناحية الباب ...
صاحت جدتي عاليا :

— لا تخافوا ، أيها الطيبون ! لا تلمسوها ! اخرجوا ، محبة بالمسيح ! ليست هذه كوليرا ! بل بداية الآم المخاض ! ، اشفقوا عليها ، أيها الناس الكرام !

واختبأت وراء صندوق للملابس في زاوية مظلمة ، انطلع منها الى والذي تتلوى على الأرض ، تئن وتصر بأسنانها ، بينما تتدحرج جدتي بالقرب منها وهي تتلو بلطف وجذل بعض الصلوات :

— باسم الاب والابن ! تشجعي يا هاريوشا ! يا والدة الاله العفراء ارحمينا ...

كنت خائفا ... فهما تتابعان الزحف والحركة على الأرض شرب والذي ، حتى تلامسا جسده البارد أحيانا ، تئنان ، وتبكيان ، وتلطبان الخدود حزنا عليه ... اما هو ، فيرقد هادئا دون حراك ، وعلى محياه

سيما السخرية منهما . واستمر هذا المشهد مدة ليست قصيرة ، وامي تحاول الوقوف على قدميها ، لتعود من جديد متنسقط على الارض ، بينما تقفز جدتي داخل الغرفة وخارجها كطابرة كبيرة سوداء ، وأنا عاجز عن ادراك اي مغزى لذلك الاضطراب كله . . . وعلى حين غرة ، تردد في الظلمة بكاء طفل صغير . . .

تنفست جدتي الصعداء ونبرت :

— شكرا لله ! انه صبي !

واشعلت شمعة . . .

لا ريب انني استسلمت للنوم في زاوية الغرفة ، لانني لم أعد اذكر شيئا مما حدث بعد ذلك . . .

أما ثاني ذكريات حياتي فكنت اتقف في بقعة مهجورة في احدى المقابر ، ذات يوم ماطر . . . على رابية قليلة الارتفاع ، فوق كتلة من التراب ازجة متحركة ، اتفرس في تلك الحفرة التي انزلوا فيها نعش والدي . كان قاع الحفرة يطفح بالماء والصفادع — حتى لقد تفتت صفدعتان فوق غطاء النعش الاصفر اللون ، واستقرتا عليه .

كنت هناك مع جدتي ، والحارس ، وفلاحين يحملان معوليهما . وكنا ، جميعا ، نستحم في رذاذ بديع كان يتساقط حديثا . . .

قال الحارس ، وهو يتحرك مبتعدا :

اطمرا الحفرة بسرعة .

فانخرطت جدتي في البكاء ، وقد غطت وجهها بطرف وشاحها . . . وانحنى الفلاحان ، وهالا اول دفعة من الطين في الحفرة ، فتطاير الماء منها ، واخذت الصفدعتان تثبان على جوانب القبر تطلبان النجاة . فتردها دفقات التراب ثانية الى قاع الحفرة .

وقبضت جدتي على مرفقي ، وقالت :

— فلنرجع ، يا اليوشا !

فانفلت من قبضتها ، راغبا في العودة . . .

تنهدت بشكل ترك في بعض الارتباب :

— اه ، يا الهسي !

تري ، اشكواها مني ام من رب السماء ؟

مظلت جامدة في مكانها فنترة طويلة ، مطرقة الرأس ، صامتة ... ولم
يخطر لها ان تتحرك ، حتى بعد ان طمرت الحفرة تماما ..

مهد الفلاحان الارض بسطح معوليهما ، وفي هذه الاثناء هبت ريح
صرصر طردت الغيوم ، وحملت المطر بعيدا . فآخذت جدي بيدي ، وقادتني
الى كنيسة غير بعيدة تقوم بين غابة من الصليبان السود .

والتفتت الي عندما خرجنا من المقبرة ، وسالت :

— ما بالك لا تبكي ؟ يجب ان تبكي قليلا !

فقلت :

— اني لا اشعر بهيل الى البكاء .

— حسنا ، ان كنت لا تميل الى البكاء ، فلا حاجة لك به اذن .

ادهشني منها ان تطلب الي البكاء ... كنت نادرا ما ابكي ، واذا
فعلت فلأن بعض الناس جرح شعوري — ابدا لم ينتزع الالم الجسدي مني
الدموع — فاذا ما أهرقتها مرة ، كان والدي يضحك من عبراتي ، أما والدي
فتأمرني قائله :

— لا تبك ! اني أمنعك عن البكاء !

وقطعنا ، بعد قليل ، دربا عريضة مغبرة تمتد بين عدد من المنازل
تجمع بين اللونين الاسود والاحمر .

سالت جديتي :

— هل ستخرج الضفدعتان من الحفرة ؟

— كلا ، لن تخرجا . غفر الله لهما !

كانت تردد اسم الله بكثرة ، وبشيء من السهولة ، لم اشاهدها
عند والدي مطلقا ...



بعد مضي عدة ايام اتخذنا ، جدي وامي وانا ، غرفة صغيرة على متن
احد المراكب البخارية ... كان اخي الطفل مكسيم قد توفي ، وهو الان

ممدد على طاولة صغيرة في احدى الزوايا ، تلفه ثياب بيض محزومة بشريط احمر .

جلست على بعض صناديقنا وامتعنا ، انطلق الى الخارج من كوة سفيرة ، مستديرة ، اشبه بعين الحصان الصغير . وكانت المياه الغاضبة تندفق تحت الزجاج المبتسل . وتتكوم في بعض الاحيان بموجة عاتية جبارة فتغمره برذاذها . وساعتئذ ، كنت اتفز مكرها حتى الارض ... فتلهضني جدتي بذراعيها الناعمتين وتعيدني مرة اخرى الى مكاني السابق موق الامتعة ، وهي تقول :

— لا تخف ، يا عزيزي !

كان ضباب رطب ، رمادي اللون ، يبدو كأنه معلق فوق المياه ... وبين الفينة والفينة ، كانت بقعة خضراء من الارض تنبثق من قلب الضباب ، ثم لا تلبث ان تتلاشى في مكان ما ، على بعد سحيق ... كان كل شيء يحيط بنا يهتز بشكل واضح جلي ما عدا امي ، التي تقف ثابتة لا تأتي بحركة ، مستندة الى الجدار وقد شبكت يديها خلف رأسها ، واغلقت عينيها بشدة واحكام ، وبدا وجهها اسود اللون ، عابسا ، خاليا من كل تفكير . ولم تفه بكلمة طوال الوقت ، حتى خيل الي انها قد تغيرت تماما ، وتجسد كل شيء فيها . حتى ان ثوبها ايضا لم يك مألوما لدي ...

كانت جدتي تلتفت اليها من وقت لآخر ، وتخاطبها بحنان وعطف لا يخطران ببال :

— هلا تناولت بعض الطعام ، يا فارفارا ... لقمة واحدة على الاقل ؟ ...

ولكن والدتي تظل معتمصة بصمتها محتفظة بجمودها ...

وظفقت جدتي تحدثني همسا كماداتها ، فاذا خاطبت امي توجهت اليها بصوت عال بعض الشيء وفي شيء من الخجل والحذر ، وفي فترات متباعدة كل البعد ، مما دفعتني الى الظن بانها تخاف والدتي . ولم يصعب علي فهم ذلك ، بل ضاعف تحببي الى الجدة ، وزاد الروابط بيننا شدة وتمكنا ...

قالت امي ، على غير انتظار ، في صوت مرتفع اجش :
— ساراتوف ! اين هو ذلك النوتي ؟

تلك كلماتها الغريبة غير مألوفاة : « ساراتوف » ، « النوتي » ؟ .

ودخل الى الغرفة رجل عريض المنكبين ، اسود الشعر ، يرتدي بزة زرقاء ، ويحمل صندوقا صغيرا تناولته جدتي منه ، ومددت جسد أخي الصغير في جوفه . . . ومن ثم حملته ، بعد ما تم لها ما ارادت ، وخطت ناحية الباب ، وقد مدت يديها بحملها الى الامام . غير انها كانت اسمن من ان تتمكن من المرور منه الا بصورة جانبية ، بحيث وقفت عنده حائرة مرتبكة ، وهيئتها تبعث على السخرية .

صاحت والدتي ، وهي تختطف النعش من يدي جدتي :

— اوف ، ما بك يا امساه !

ثم اخفتنا معا ، وتركتاني في الغرفة بصحبة ذلك الرجل الازرق .
فقال ، وهو يحنو علي :

— لقد ذهب اخوك وتركنا هنا .

— من انت ؟

— نوتي .

— ومن ساراتوف ؟

— انها بلدة . انظر من النافذة ، انها .. هناك ! . . .

كانت الارض تتحرك خارج النافذة وتميد ، سوداء ، كثيرة التمرجات ، مكللة بالضباب المتصاعد منها كالدخان ، فتذكرني بقطعة كبيرة من الخبز انتطعت من رفيف ساخن .

— أين ذهبت جدتي ؟

— تدفن حميدها .

— هل ستدفنه في جوف الارض ؟

— طبعا !

فقصصت عليه كيف طمروا الضفدعتين الحيتين يوم دفنوا والدي .

فحملني بين ذراعيه ، وضممني الى صدره ، وقبلني ثم قال :

— آه ، يا صغيري ! انك لا تدرك الا امورا قليلة بعد ! ليست الضفادع

— أخذها الشيطان — من يستحق الشفقة ، بل والدتك ... انظر كم هي تتألم وتشقى !

وفجأة ، قامت فوقنا ضوضاء عظيمة هي مزيج من الزمجرة والانيق والصراخ ، لم أربعد متها خوفا لانسي ادركت ان مصدرها ان هو إلا عملية تسيير المركب البخاري . وانزلني البحار من بين ذراعيه بسرعة ، وانطلق خارجا وهو يعلن .

— يجب ان اذهب !

رغبت بدوري في الذهاب ، فخطوت خارج الغرفة ... كان الممر الضيق المعتم مقفرا من الناس ، يطالمني فيه ، غير بعيد من الباب ، لمعان نحاسي انه السلم . طلعت الى اعلاه ، فساهدت بعض الناس يحملون امتعته محزومة ... كان من الواضح ان الجميع يغادرون المركب ، وهذا يعني انه ينبغي علي بدوري ان اغادره مثلهم .

وعندما بلغت السطح ، وانزلت بين جميع اولئك المسافرين الواقفين على السلم الذي يصل المركب بالبر ، شرع القوم يصيحون في وجهي :

— من انت ؟ اين اهلك ؟

من اين لي ان ادري .

فراحوا يذموني حيناً ، ويلقونني ارضا حيناً اخر ، وينتهرونني دون انقطاع ...

ولكن البحار الاسود الشعر ظهر اخيرا ، وقال :

— انه صبي من استراخان — خرج من غرفته صدفة ...

وحملني ، وركض عائدا بي الى الغرفة حيث وضعني على الصناديق وخرج ، لكن بعد ان هددني قائلا ، وهو يهز اصبعه في وجهي :

— اياك ان تفعل هذا مرة اخرى ، والا ...

وعاد الهدوء يخيم ، شيئا فشيئا ، على المركب الذي كف عن الاهتزاز ، كما انقطع رذاذ الماء في الوقت ذاته . ولكن لهائنا من الرطوبة سد نافذة الغرفة ، فامست مظلمة خائقة ، يخيل الي في عتمتها ان الصناديق تنتفخ وتحرق في باصرار وعناد .. ذعرت ، فرحت اتساءل :

— ترى ، هل تركوني وحيدا في هذا المركب البخاري الفارغ الى غير ما عودة؟...

مضيت الى الباب ... كان مغلقا ، فلم استطع ان ادير قبضته النحاسية ، فتناولت تينة حليب كانت على المنضدة قربي ، وهويت بها بكل قواي على القفل . فتكسرت التينة ، وتدفق الحليب على قدمي وتسرب الى حذائي .

أسفت من فشلي ، فتمددت باكيا منتحبا فوق الامتعة ، وحاولت ان انام ... عندما استيقظت كان المركب يتأرجح من جديد ويهتز ، والماء يتطاير ونافذة الغرفة تيرق كالشمس وجدتني تجلس الى جانبي تسرح شعرها معقودة الحاجبين ، تغغم بينها وبين نفسها بأشياء عديدة . . كان لها شعر غزير يتراوح لونه بين الزرقة والسواد ، يتدلى بكثافة فوق كتفها ، وصدرها ، وركبتها ، حتى يبلغ الارض ... وكانت ترفعه باليد الواحدة عن الارض ، وتثره فوق رأسها ، ثم تدفع بيدها الاخرى مشطا خشبيا ، خشنا قليل الاسنان ، داخل جدائلها الثقيلة المتمردة . وكان ممها يلتوي الما ، وعيناها السوداوان تلمعان غضبا ، ووجهها يبدو صغيرا رائعا نسي وسط تلك الكتلة الجبارة من الشعر الكثيف .

كان مزاجها ، فيما يظهر ، سينا ذلك النهار على غير اعتياد . ولكن صوتها كان ناعما ، لطيفا ، مثله دائما ، عندما اجابتنسي وقد سألته عن سبب طول شعرها :

— أنه عقاب من الله — لقد قال لي : فلتنضي ايامك كلها في تسريح هذا المراس الملعون ! لقد اعجبت به في صغري ، ولعنته في شيخوختي . ولكن ، عد الى النوم ، يا صغري . فالوقت ما زال مبكرا ، والشمس لم تكد تشرق بعد ، وانت في حاجة الى الراحة والسكينة .

— لارغبة لي في النوم بعد الان .

فاجابت ، وهي تعقص شعرها وتشخص الى الاريكة حيث تتمدد والدتي بشكل تبدو معه وكأنها السهم :

— حسنا ، لا تنم اذا لم يكن لك رغبة في الرقاد . كيف كسرت التينة لبارحة ؟ تحدث بصوت خافت .

كانت تنغم كلماتها بطريقة خاصة ، فتنحفر الكلمات حنرا في ذاكرتي بسهولة — ما احيلها كلمات زاهية معطرة كالورد ! وعندما تبتسم كانت عينها السوداء وان تشعان وتشرقان بلعان لا يوصف ، وابتسامتها تفضح أسنانها البيضاء القوية ، ووجهها كله ، رغما عن التجاعيد الكثيرة المنتشرة في وجنتيها الجائفتين ، يبدو فتيا رائعا فاتنا . . . ولم يك يفسد جمال هذا الحيا الا ذلك الالف البدين الاحمر ، بخيشوميه الواسعين ، وارنبته المتأججة الحمراء . ان جدتي تتعشق السعوط كثيرا ، وتتناولها باستمرار من علة سوداء مزينة بخيوط من الفضة . وكان كل ما ترتديه اسود اللون قاتما ، الا ان نورا انيسا دافئا دائم الاشعاع يطل من عينيها ، ويلقي عليها من الداخل هالة رائعة من الضياء . وكانت فارعة القامة . منحنية الظهر حتى تقارب الاحدياب ، وان ظلت حركتها سهلة سريعة مثل حركة قطعة . والى جانب ذلك ، كانت تماثل القطعة الاليفة لطفا ورقة . . .

لقد كنت قبل قدومها ، كالغارق في النوم ، محاطا بنوع من الظلمة الغريبة . فاذا بها تأتي الي ، وتبعثني من رقادي ، وتقودني الى النور ، ومن ثم تغزل كل ما يحيط بي في خيط واحد متصل ، وتجعل منه شبكة زاهية الالوان .

وسرعان ما اضحت ، الى الابد ، رفيق حياتي — الرفيق القريب والعزيز على قلبي ، والذي أستطيع ان افهمه تماما . . . وكان حبها المتجرد للحياة يثقتني ، ويهبني القدرة التي كثيرا ما احتجت اليها ، فبما بعد ، لاجابه بعزم وقوة مستقبلي المظلم الذي لم اكن لاعرف عنه شيئا .



كانت المراكب البخارية ، قبل اربعين سنة مضت ، تتحرك ببطء ظاهر ، بحيث تضينا وقتا طويلا حتى بلغنا نيجني نونجورود . وانا لا ازال اذكر ، حتى الان ، تلك الايام الماضية الطامحة رقة وعذوبة ، المشوبة بالغبطة والبهجة والفرح والسرور .

ظل الطقس بديعا ابدا . . . ومنذ الصباح حتى المساء ، كنت اقتعد وجدتي سطح المركب ، عائمين هناك تحت قبة السماء الزرقاء اللامعة ، بين ضفتي نهر الفولجا المزخرفتين ببساط ذهبي يطرزه الخريف

ويزينه . وكان المركب الرمادي اللون الذي يجسر وراءه قاربا صغيرا
بلا نقاذ ، يتحرك ببطء وسط الماء الأزرق الضارب الى الرماد ، مقاوما مجرى
التيار شاقا طريقه بواسطة لطبات لطيفة خفيفة تضرب بها المجاذيف
العريضة سطح النهر المتدفق ابدا . . . اما القارب الصغير المجرور فكان اغبر
اللون ، يشبه حشرة مائية ضخمة . . . وكانت الشمس تسير بخفة فسوق
نهر الفولجا حتى اننا لا نحس بها ، تضيف في كل ساعة شيئا جديدا الى
بهاء الطبيعة ورونقها . . . وكان كل شيء يحيط بنا يتغير بين لحظة وأخرى ،
كما في اناصيص الجنيات . . . والهضاب الخضراء تتوج الارض الثرية . . .
والقرى والسهول على الجانبين تبدو ، وهي تمر بنا عن بعد ، وكأنها
مصنوعة من اللون الاخضر ، واوراق الخريف الذهبية اللون تعوم فوق المياه
وتسبح .

— انظر ، ما اروع تلك المناظر الطبيعية !

هذا ما كانت تقوله جدتي ، وهي تذرع السطح جيئة وذهابا ، يتألق
وجها نورا ويغمر الفرح عينها .

وغالبا ما كانت تنتصب ، وتسف النظر الى هذا المشهد الهاديء ،
متناسية وجودي تماما ، وقد صلبت يديها عند خصرها ، وتحديث شفاتها
بشكل ابتسامة لطيفة ، واخضلت عينها بالدموع . وعندئذ ، كنت اعلق
مذعورا بتنورتها السوداء الموشاة بالوان عديدة زاهية .

كانت تقول حينذاك :

— ماذا ؟ كائني غفوت ، وحلمت حلما لذيذا !

— لم تبكين ؟

فكانت تبتم ، وتحيب :

— من سعادتني ، يا صغيري ! ومن ضعفتي ، يا عزيزي ! لقد هرمت ،
بعد ان خلفت ورائي فصولا ثلاثة من عمري . . .

وحينذاك ، كانت تنشق قليلا من السعنوط ، وتقص علي بعض
القصص الخيالية عن القديسين ، والحيوانات ، واللصوص الظرفاء ،
والسحر الاسود .

كانت تروي اناصيصها بصوت منخفض غريب الجرس ، وقد تجهم

وجيها ، وهي تثبت حدقتها الواسعتين في عيني ، كما لو كانت تصب في قلبي تيارا من القوة تشد به من عزييتي . كانت تغني اكثر منها تقص علي حكاية ... وكلما اطالت الحديث ، كلما سجت اسلوبها ... وكان يسيطر علي فرح لا يوصف عندما استمع اليها ، حتى اذا انتهت من احدي القصص هتفت بها :

— تابعي ، يا جدي ، قصة اخرى ! أرجوك ...

— ... وعندئذ حدث ان كان العفريت الصغير يجلس تحت المدفاة وقد أصيب بشظية ابرة كان يتأرجح في جلسته ويتأوه ... « اوه ، ايتها الفأرة الصغيرة ، ايتها الفأرة الصغيرة ! ساموت ، ايتها الفأرة الصغيرة ! »

ثم تمسك بقدمها وترنمها ، وتأخذ تهز رأسها ، فاتحة عينيها ، الى الامام والى الخلف ، وكأنها هي التي تعاني تلك الالام .

ويتجمع حولنا البحارة — رجال طيبون لحاهم طويلة — ويفرقون بالضحك ، وهم يصيخون السمع اليها ، ثم يمتدحونها ويطلبون منها المزيد :

— تابعي ، ايتها الجدة ، وقصي علينا مزيدا من هذه الخرافات !

وعند العشاء ، كانوا يدعونها الى شرب الفودكا ، ويدعونني على البطيخ الاحمر والاصفر . كان ذلك يجري في الخفاء ، اذ كان على المركب انسان منع اكل الفواكه بسبب الاوبئة المنتشرة ، فاذا ما وقع على احدهم يأكلها اختطفها منه رأسا ، ثم القى بها في مجرى النهر . وكان يرتدي ثيابا اشبه بثياب الفقراء ، وقد صف مجموعة من الازرار النحاسية على صدر مسعطفه بتناسق جميل . وكان ثملا دوما ، يهرب الجميع منه كلما صادفوه في طريقهم ..

كانت والدتي نادرا ما تصعد الى سطح المركب ، فاذا فعلت كانت تتجنبنا وتظل معتصمة بصمتها وهدوئها . وما زلت اذكر ، حتى اليوم ، جسدها الطويل الجميل ، ووجهها الاسود الانبس المتوج بجداول من الشعر الاشقر ، وقامتها القوية الصلبة ، ان كل هذا ينبثق امامي الان ، من خلال ضباب ابيض او غيوم شفافة . ومن وراء السنين ، يأتيني حتى اليوم

بريق عينها الرماديتين المتوحشتين اللتين تعادلان عيني جدتي في الاتساع .

تالت ، ذات يوم ، بجفء :

— اذكرك من نفسك اضحوكة ، يا اماء !

فأجابتها جدتي بمرح :

— فليضحك الناس ان ارادوا ذلك ، فهذا يجعل حياتهم اكثر هناء .

كان الله معهم !

وانا اذكر ذلك الفرح الصبياني الذي استولى على جدتي عندما وقعت
عينها على نيجني نوفجورود . . . صاحت ، وهي تقبض على يدي ، وتدفعني
ناحية الحاجز :

— انظر ، انظر ! ما اروعها ! هذه هي نيجني ، مدينة الله ، حيث
ستعيش ! يا لجمالها ! انظر الى قبيب الكنائس ! لكنها تحلق عالياً في
الجو !

واستدارت نحو امي ، وقد غلبتها الدموع :

— انظري ، يا فارلارا ! لا ريب انك نسيتها على ما اظن . . . هيا

عبي من سرور لقيها !

ولكن والدتي ابتسمت بحزن . . .

والقى المركب مرساه في ناحية تقابل المدينة المحبابة . توقف في منتصف
النهر الذي احتشد بالزوارق الصغيرة ، يطغى عليه سيل من مئات القوارب
الشراعية . وهذا قارب صغير يعج بالناس ويضيق يحاذي مركبنا ، ثم يعرج
حتى السلم الذي يصل بين المركب والشاطئ ، فاذا بلغه قفزت الجموع ،
منه ، وصعدت الينا حتى السطح . وكان يدب ، على رأس تلك الجموع ،
شيخ صغير الجسم ، نحيل القوام ، ارتدى معطافويلا اسود اللون . كانت
له عينان صغيرتان خضراوان ، واثق اثنى ، ولحية حمراء تلمع كالذهب .

صاحت والدتي بصوت عال ، وهي ترمي بنفسها بين ذراعيه :

— ابتناه !

فراح يمسح راسها بيديه الصغيرتين الحمراءوين ، ثم اخذ يضرب بلطف

على وجنتيها ، ويصيح مهتاجا :

— ٥٢، ٥٢هـ ! ايها الطائشة ! اخيرا ، ها انتذي هنا ! اه — ه . . .

وشرعت جدتي تحتضن الجميع وتقبلهم ، وهي تدور حول نفسها
مثل المروحة . . .

صاحت ، وهي تدعيني نحو القوم

— هيا ، اسرع ! هذا هو الخال ميخائيل ، وهذا ياكوف ،
وهذه الخالة ناتاليا ، وهذان الصبيان ابنا خالك ، واسم كل منهما ساشا ،
وهذه ابنة الخال كاترينا ، كلهم يؤلفون عشيرتنا . انظر الى هذا العدد
العديد !

وسأل جدي :

— كيف حالك ، يا امه ؟

وقبل كل منهما الاخر مرات ثلاثا . . .

و اختطفتني الجد من بين الجميع وقال ، وقد وضع يده على راسي :

— ومن تكون انت ؟

— صبي من استراخان — خرج من غرفته صدفة . . .

فسأل جدي مدهوشا ، وقد استدار جهة والدتي :

— ماذا يقول ؟

ثم دفعني الى الامام دون ان ينتظر جوابا . قال :

— لقد ورث هزال والده . فلننزل الى القارب .

ركبنا حتى الشاطئ ، ثم تسلفنا الطريق القديمة الحجرية بين صفيين
من الارصفة العالية المكسوة بالعشب الاخضر المرتجف .

سار جدي في الطبيعة بصحة والدتي ، وكان لا يكاد يبلغ كتفيها ، يخب
على الارض الى جانبها بخطواته السريعة القصيرة . وهي تنظر اليه من عل
تبدو وكأنها على وشك ان تطير في الهواء . . . ومشى خلفهما خالاي ، دون
ان يند عنهما ادنى صوت : ميخائيل ، بشعره الاسود الاملس ، وجسده
النحيف الذي يداني جفانها جسد جدي ، وياكوف ، بشعره الاثغر المجدد
البراق ، ومن ثم بعض النسوة السمينات بثيابهن الزاهية الالوان ، وحوالي
سته اطفال ، وكلهم يكبرونني سنا ويفوقونني هدوءا ايضا اما انا فمهييت

وجدتني في مؤخرة الجميع ، تصاحبنا الخالة الصغيرة ناتاليا . كانت شاحبة اللون ، ذات عينين زرقاوين ، وبطن عبل . . . وكانت تقف بين لحظة وأخرى ، تلتقط انفاسها وتخرخر :

— اوه ، لم يعد في استطاعتي السير خطوة أخرى .

فيتمتم جدي بغضب :

— لم اصطحبك معهم ؟ يا لها من عشيرة غبية !

اما انا فلم يرق لي احد من هذه العشيرة ، لا الكبار ولا الصغار . . . احسست كأنني غريب بين هذا الجمع الفاضل . حتى جدتي نفسها ذبلت قليلا في عيني ، وازدادت بعدا . .

كرهت ، خاصة ، ذلك الذي يسمونه جدي ، اذ عرفت فيه منذ اللحظة الاولى ، عدوا لي ، استفز استقباله في فضولا حذرا جعلني أوجه اليه انتباها خاصا .

وانتهينا الى اخر ذلك المرتفع . . فانتصب امامي منزل منخفض مؤلف من طابق واحد ، ينهض مقابل الرصيف الايمن في تلك البقعة المرتفعة حيث يبدأ الطريق بالقرب منه . . . كان البيت مدهونا بلون وردي وسخ ، ونوافذه منفتحة : تنتفخ تحت سقف مهدم عتيق . كان يبدو كبيرا واسعا عندما نظرت اليه من الخارج . ولكن الغرف ، في داخله ، كانت صغيرة جدا ، مظلمة ضيقة ، مليئة بجمهور مضطرب كثير الحركة والضوضاء . كان مثل مثل المركب عند تفريغ حمولته ، والاطفال يتجهرون فيه مثل العصافير الدورية ، رجوه التنظيف قد تشبع برائحة حادة غير مالوفة .

وجدتني في ساحة لا تبهج القلب مطلقا ، ازدحمت بدورها ببعض الاواني الزجاجية الملوئة ماء ملونا كزيت المنظر ، مصفوفة في كل مكان دون انتظام ، وبثياب نشرت على عدة حبال بغية تجفيفها . وكان شعاع نار تبعثها أخشاب تلتهب في الموقد ، يجيء من زاوية مظلمة ، قدمة ، متآكلة ، مصحوبا بصوت غلبان وقرقرة وضجيج . . . وكان شخص غير منظور يتفوه بكلمات غريبة في صوت عال :

— اعطوني سانتالين — اعطوني زاجا — اعطوني حامض الكبريت ! . .

كان ذلك فجر حياة دائبة الجريان ، طافحة بالحوادث ، معقدة ، غريبة ، يستحيل وصفها تماما . وان ذكراها لتحيا في خاطري كحكاية كثيفة رواها لي جني طيب القلب ، لكنه واقعي حتى درجة الايلام . ولكم يصعب علي حتى اليوم ، اذ اعود بالذكرى الى الماضي البعيد ، ان اصدق ان هذا الماضي كان حقا على ذلك الفرار ، فأروح أميل الى انكار كثير من الوقائع ومعارضتها كيما اختصر مما كانت عليه الحياة في تلك « العشرة الغبية » من ظلام وقسوة .

ولكن الحقيقة فوق كل نزوة شخصية . وانا لا اكتب هنا عن نفسي ، بل عن تلك البيئة الخائفة الرهيبة التي كان يعيش فيها ، وما يزال ، الروسى العادي .

كان منزل جدي مليئا بدخان العداوة الخائق — عداوة كل فرد للجميع ، هذه العداوة التي تسمم الكبار بها تماما ، وسرت عدواها الى الاطفال الصغار أيضا . وقد عرفت فيها بعد من اقايس جدتي ان والدتي رجعت الى الدار وأخواها يطالبان والدهما — بالحاح زائد — ان يقسم املاكه فيما بينهما . فاذا رجوع أمي غير المنتظر يزيدهما جشعا واسرافا في الاحاح ، خوفا من ان تطلب مهرها الذي سبق لجدي ان حرما منه لاختيارها زوجها دون موافقته ورضاه . وكان خالاي يطالبان باقتسام ذلك المهر ، وهما بخوضان ، دون انقطاع ، جدالا مرا حول من سيفتتح مصبنة في البلدة ، ومن سغادر البت الى كونانينو ، على الضفة الثانية لنهر اوكا .

وهكذا نشب ، ولما يمض على وصولنا زمن طويل ، شجار عنيف في المطبخ ساعة الغداء . فقد تمز خلاي بسرعة ، وارتميا فوق المائدة ، بصيحان ونبهان في وجه جدي . وبكشران عن أسنانهما ، وينتفضان كالكلاب . واذا الجدي يهب بدوره واقفا ، يضرب بملعته وقد اصطبغ وجهه بالحمرة ، وبصوت اجش :

— سأجعلكما نستعطيان الناس في الشوارع .

نقالت جدتي ، وقد تغضن وجهها لما :

— أعطهما كل شيء ، يا ابتاه ! هيا ، اعطهما كل شيء . وسوف تجد
الراحة والسلام . اعط !

فصاح ، وعيناه نقدحان شررا :

— صمنا ، أينها المتساهلة !

وقد بدا لي غريبا يومئذ ان يستطيع انسان بحجمه الصراخ في مثل ذلك
الصوت المخوف الهائل .

ونهضت والدتي ، واتجهت ببطء نحو النافذة ، حيث استقرت وقد
أدارت ظهرها للجميع .

وفجأة ، ضرب خالي ميخائيل أخاه ضربة جبارة على وجهه ، فأرسل
هذا عويلا عنيفا ، وتعلق به وجذبه اليه بشدة ، فتدحرج الاثنان على الأرض
يلهتان ، وينفخان ، ويتشاثمان . . .

وهنا أخذ الاطفال يبكون ، وأطلقت خالتي الحامل ناتاليا من فيها صرخة
يأس ، فضمتها والدتي بكلتا ذراعيها ، ثم دلفت وايها خارجا . أما يفجينا ،
وهي المربية الجميلة ذات الوجه المضحوك الجذور ، فأسرعت تخرج الاطفال
من المطبخ . . . وتحطمت بعض المقاعد في حميا المعركة ، فأسرع الصانع
ايفان — الملقب بتسيجانوك — وأمسك بظهر الخال ميخائيل ، بينما راح
جريجوري ايفانو فيتش — وهو معلم ملتجأ أصلع الرأس يحمل نظارتين
سوداوين على أنفه — يوثق يديه بهدوء بأحدى المناشف .

وأبتدا الخال يحك لحيته الرفيعة على الأرض ، ويطلق من فيه صيحات
مرعبة مبحوحة ، بينما جدي يركض حول الطاولة كالمجنون ، وهو يزعم :
— أخوة ، ها ! أخوة دمويون ! تفو ! . . .

كنت قد قفزت خائفا ، عند بدء ذلك النزاع ، فوق الموقد . . . ومن
هناك أخذت أراقب جدتي ، وهي تغسل الدماء عن وجهه ياكوف الدمى .
وكان هذا يبكي ، ويضرب الأرض بقدميه ، بينما الجدة تقول بلهجة يائسة :
— أفلا تعقلان ، أيها الملعونان ! يا لها من عشيرة متوحشة !
فرفع جدي قميصه الممزق الذي سقط عن كتفه ، وصاح :

... انك اليك الوحوش التي حبلت بها ، أنت ابنتها الشمطاء اللعينة !
وعندما خرج ياكوف ، تكورت الجدة على بعضها في احدى زوايا المطبخ ،
وراحت تحدث الايقونات .
— يا أم الاله الطاهرة ! أرجوك ان تعيدي الى ولدي ادراكهما !
فأناها جدي ووقف بالقرب منها ، شاخصا الى الطاولة حيث كان كل
شيء قد اندلق وتكسر . قال بهدوء :
— أنت يا أم ، يحسن بك ان تراقبي هذين الولدين اللذين انجبتهما !
انهما يريدان الخلاص من فارفارا . . . وما نفع هذا ؟
— لا سمح الله ! لا سمح الله ! والان ، أخلع قميصك حتى ارفأه لك .
وتناولت رأسه بين يديها ، وقبلته في جبهته ، فدفنق رأسه — لشدة
قصره بالنسبة اليها — بين كتفيها . . . وقال :
— لنفضل ، فيما يبدو ، أن نتقاسم يا امه !
— صدقت يا ابتاه ، صدقت !
وتشاورا هكذا مدة طويلة . . . كان حديثهما ، في البدء ، لطيفا محببا ،
ولكن سرعان ما شرع جدي ينبش الارض بقدمه كديك يتأهب للبراز ، ويهدد
جدتي باصبعه .
قال شاكيا في همسة عالية :
— انني أعرفك تماما ! فأنت تعنين بهما أكثر مما تعنين بي . ولكن
ميخائيلك هذا منامق كبير ، وياكوف ذاك كافر جبان ! وسيبذران كل ما أمك
على سكرهما وعربدتهما — بل سيبتلعانه عن آخره !
وبحركة لا شعورية من كفتي القيت على الارض المكواة ، بحيث فعمقت
بتدحرجة فوق درجات الموقد ، ثم سقطت في سطل الماء الوسخ . فقفز جدي
مرتاعا ، وجذبني حتى صاقبته ، وحملق في وجهي وكأنه يراني للمرة الاولى .
— من وضعت هناك ، على الموقد ؟ اهي امك ؟
— لقد تسلقت لوحدي . . .
— أنت تكذب .
— لا ! انا لا أكذب . لقد كنت خائفا .
فدفعني عنه بلطف ، وقد ضربني براحة يده على جبينني :

— انك مثال ابيك ! اخرج !

وكان سروري عظيما بالافلات من ذلك المطبخ . . .

كنت اشعر بوضوح أن جدي لا ينقطع عن ملاحظتي بعينه الخضراوين الحاديتين ، فكنت أرهبه . . . وما برحت أذكر حتى الان ذلك الخوف الغريزي الذي يدفعني دوما الى الاختباء من هاتين العينين المحرقتين . ورحت أعتقد انه وضيع النفس شرير ، فهو ينادي الجميع بلهجة تهجم واستهزاء ، ويسر باغاضة الناس واستفزازهم دوما .

— نفو ! يا لهم من قوم !

كان مولعا بهذه الكلمات ، يلغظها متعمدا مطّ الفاء والسواو ، الامر الذي كان يرسل دوما تشعيرة ياردة يائسة .

كان جدي ساعة الراحة ، وقت تناول الشاي مساء ، اذ يغادر وخالاي والعمال المعمل ، ويدخلون المطبخ لاهئين متعبين ، وقد تطلخت أيديهم بالصباغات ، وترطبت بالحوامض المختلفة ، وعقدت شعورهم بمصائب الى الوراء ، فاصبحوا يشبهون — في كل شيء — تلك الايقونات المظلمة الموضوعة في احدى زوايا المطبخ — خلال هذه الساعة الخطرة ، كان الجد يجلسني قبالتة ، تاركا أحفاده الاخرين مغيظين ، في كثير من الغيرة ، من توجهه الي اكثر منه اليهم .

كان في مظهره العام شيء لائق جدا ، لطيف ، حتى لتقول انه منحوت نحنا دقيقا رائعا . وبالرغم من ان معطفه الحريري المطرز عتيق مهترىء ، وسترته القطنية مجملكة ، وسراويله مرقعة عند الركبتين ، فقد كان يبدو انظف من ولديه وأفضل لباسا وأحسن منظرا ، بالرغم من معطفيهما الجديدين واكمامهما المنشأة ، وأربطة عنقهما الحريريّة .

ولقد أرغمني ، ولما يمض عدة ايام على وصولنا ، على حفظ صلواتي . كان بنية الصبيان أكبر بني سنا ، يتعلمون جميعا القراءة والكتابة عن شماس كاتدرائية اوسبينسكي ، الكنيسة التي نستطيع ان نطل على قببها الذهبية الرائعة من خلال نوافذ منزلنا .

وقد اسند الى الخالة ناتاليا امر تعليمي هذه الصلوات ، وهي امرأة رزينة وجلة ، لها وجه غرير ، وعينان ساطعتان شفافتان حتى ليتمكنك ، اذا ما نظرت اليهما ، ان تستشف كل ما يجول في مؤخرة رأسها من افكار .

كنت أحب ان اشخص طويلا اليها دون ان يطرف لي جفن ، فيزعجها .
هذا مني ، فتروح تضيق عينيهما ، وتسبل اهدابها ، وتلوي راسها لتتفادى
نظراتي ، وتسال في صوت اشبه ما يكون بالهمس اللطيف :

— قل ممي هذا ، أرجوك : أبانا الذي ...

— وماذا تعني كلمة « الذي » ؟

فكانت تجيب ، وهي تسترق النظر فيما يحتف بنا :

— لا تسأل ! ان السؤال يزيد الامور سوءا . يكفيك ان تردد بعدي :
أبانا ... هيا ! ...

ولم أكن استطلع أن أفهم لم يزيد السؤال الامور سوءا .. ان كلمة
« الذي » تحيل معنى خفيا ، فكنت اتعمد تشويها :

— الزبي ، الملاذي ...

ولكن الخالة البيضاء الوجه التي تبدو وكأنها تذوب تدريجيا ، تصحح
فولي بصبر :

— كلا ، قل ذلك ببساطة هكذا : أبانا الذي ...

ولكنها لم تك ، لا هي ولا كلماتها ايضا ، من البساطة في شيء بالنسبة
الي . وكان ذلك يبعثني على السأم والضيق ، ويجعل حفظ الصلاة صعبا
علي .

وذات يوم ، استفسر جدي عن مبلغ نشاطي فقال :

— حسنا ، يا الكسي ، ماذا فعلت اليوم ؟ اكنت تلعب ؟ اني ارى ذلك
من هذه الحدبة التي تعلقو جبينك . لا تكن نشيطا الى هذه الدرجة حتى
تجلب على نفسك كل هذه المتاعب . ولكن ، أخبرني ، ماذا حفظت اليوم من
« أبانا » ؟

فهمست عمتي :

— ان ذاكرته رديئة للغاية .

فضحك جدي ، ورفع حاجبيه الحمرابين :

— اذا كان الامر كذلك ، فيجب جلده اذن .

والتفت ناحيتي ، وسأل :

— ترى ، هل جلدك ابوك مرة ؟

- فلم أفهم ما يعني بكلامه هذا ، ولذا اعتصمت بالصمت .
وأجابت أمي :
— ان مكسيم لم يضرب الحقل قط ، وكان يمني عن ذلك .
— ولم ذلك ؟
— كان يقول ان الضرب لا يعلم المرء شيئا .
فأجاب جدي ، وقد ساء خلقه :
— لقد كان مكسيم هذا غيبا أبه ، غفر الله له .
أغاظتني كلماته ، فقال وقد استشعر ذلك :
— فيم عبوسك ؟ ايه ، انت ! يحسن بك ان تنتبه لنفسك ! سوف ينال
سائشا جلدة صغيرة لطيفة نهار السبت بسبب ذلك الكشتبان .
قال هذا وهو يسرح بأصابعه شعره الاحمر المفضض . فسألت :
— كيف ستفعل ذلك ؟
فضحك الجميع ، بينما أجاب جدي :
— انتظر ، وستكتشف كيف ...

واختبأت في ركن منعزل ، وأخذت أحاول ان أتصور ذلك : ان الناس
يفتقون « ١ » الشباب التي يريدون صبغها ، ولا ريب ان هذا هو ما يعنيه
جدي . وهم يضربون الخيول ، والكلاب ، والقطط . وفي استراخان يضرب
الجنود الفارسيين — ولقد شاهدت ذلك بأمر عيني ، ولكنني لم أرقط انسانا
يضرب طفلا صغيرا . والحقيقة ان خالي كانا يضربان ، في كثير من الاحيان ،
ولديهما على الجبين او مؤخرة الرأس ، ولم يك يبدو على الضحيتين أدنى
اهتمام لذلك ، بل كانا يحكان نقرتيهما برهة وجيزة ثم يسيان كل شيء .
وكنيت في بعض الاحيان ، اسألهم عما اذا كان ذلك يؤلمها ، فكانا
يجيبان بشجاعة :

— انه لا يؤلم البتة ...

وبلغني خبر حادث الكشتبان الشهير . فقد كان خالي ورئيس العمال ،
في الفترة الواقعة بين تناول الشاي والعشاء ، يخطون سوية بعض قطع

« ١ » في الروسية يعبرون عن الجلد وفتق الثياب بكلمة واحدة .

التياب المصبوغة ويجعلون منها قطعة واحدة ، ثم يلصقون بها رقعة معدنية للدلالة عليها . واراد الخال ميخائيل ان يداعب جريجوري الذي كان نصف اعمى تقريبا ، فعلم ابن اخيه البالغ من العمر تسع سنوات ان يسخن كفتبان العامل على الشمعة . فحمل سائسا الكفتبان فوق اللهب بملقط النار حتى أصبح احمر اللون ، ثم وضعه في متناول يد جريجوري وأسرع يختبئ وراء الموقد .

ولكن جدي دخل في تلك اللحظة ، وتأهب للعمل مباشرة ، فاذا به يدخل اصبعه في الكفتبان الملتهب .

وانا اذكر انني سمعت راكضا الى المطبخ لاعرف منشأ الضجة ، وسبب تلك الصيحة الرهيبة التي اطلقها جدي من فمه ، فوجدته يقفز بشكل يجبر على الضحك ، ممسكا اذنه بيده المحترقة ، وهو يزعق :

— من فعل ذلك ؟ اجيبوا ، ايها الوحوش !

كان ميخائيل ، في تلك الاثناء ، وقد انحنى فوق الطاولة يدعك الكفتبان عليها باصبعه ، وينفخ عليه . أما جريجوري فاستمر يخييط ثابت الجأش ، تترجح الاخيلة على رأسه الاصلع وتتراقص . . . واتانا ياكوف يركض ، ثم توارى خلف الموقد ليخفي ضحكاته ، في حين تناولت جدتي راسا من البطاطا النيئة وأسرعت تقشره .

وعلى حين فجأة ، قال الخال ميخائيل :

— انها فعل سائسا . . . ابن ياكوف . . .

فصاح ياكوف ، وقد وثب من وراء الموقد :

— ذلك كذب ! ذلك هراء !

وشرع ابنه يصيح من احدى زوايا المطبخ متباكيا :

— لا تصدقه ، يا ابناه ! فهو الذي دفعني الى ذلك .

وابتدا الخصام بين خالي . . . وما اسرع ما استرد جدي هدوءه ، فوضع لوزة البطاطا على اصبعه ، ثم خرج وقد اصطحنسي معه دون ان يتفوه بكلمة ما .

قر رأي الجميع ان الذنب يقع على عاتق الخال ميخائيل . وكان من الطبيعي ان استفسر ، على مائدة الشاي ، ان كان سيضرب او يجلد . .

فتمتم جدي ، وهو يرنو الي :

يجب ان يجلد طبعسا !

مضرب الخال ميخائيل الطاولة بيده ، وفح في

— اذا لم تؤدبني جروك اللعين هذا ، يا فارة

جسده !

فاجابت والدتي :

— جرب اذن ان ترفع اصبعك عليه !...

فران الصمت على الجميع ...

كانت لها مهارة فائقة ، عندما ننطق ببعض الكلمات المختصرة ، لنهزم ايا كان وتخذه تماما . وكنت أشعر بوضوح ان الجميع يهابون والدتي ، حتى جدي كان يتوجه اليها بالحديث في نعمة مختلفة — نعمة اهدا من تلك التي كان يخاطب الآخرين بها . وكان ذلك يسرني كل السرور ...

كنت اتباهى على ابني خالسي :

— ان والدتي تفوق الجميع قوة !

فلم ينكرا ذلك ابدا ...

ولكن حوادث السبت التالي زعزعت ايماني بوالدتي ...

...

ذلك انني تصرمت بدوري ، قبل نهار السبت ، بصورة تسبب لي

المشاكل ...

كان الاسلوب الذي يتبعه الكبار في تبديل لون الثياب يدهشني وبثير اهتمامي . فهم يأخذون شيئا اصفر اللون ، ويغطسونه في ماء اسود ، فيخرج ازرق اللون يضرب الى السواد : « نيليا » . أو هم يفسلون شيئا اذهب اللون في ماء احمر ، فيخرج اسود اللون يضرب الى الحمرة : « خمريا » . كل ذلك بسيط جدا ، فيما يبدو . ولكن غير مفهوم على الاطلاق .

وقد ساورتني رغبة خفية في ان اجرب بنفسي ذلك العمل فهبست

برغبتني هذه في اذن سائسا بن ياكوف ، وهو صبي مهذب ، وقصور ، يتعقب العمال دوما ليعرض عليهم خدماته ، فيشكره الجميع ، ما عدا جدي ، على نشاطه ومساعداته .

كان العجوز يقول : وهو يتطلع باحتقار الى الصبي :

— تفو ! يا للمنافق الصغير !

كان سائسا يميل الى السواد ، رقيق الجسم ، ذا عينين منتفختين تماثلان عيني السرطان . وهو يتحدث بصوت هادىء سريع التبررات حتى لجزرد نصف كلماته ، ويضرو هنا وهناك خلسة وبصورة غريبة ، فكأنه يعد حطة للهرب والاختفاء . وغالبا ما كانت حدقاته البنيتان تجمدان فلا تأتيان بحركة البتة ، فاذا ما اغاظه شيء تبدلت حالهما ، وراحتا ترتجفان ارتجافا، يصاحبهما في ذلك بياض العين كله .

وبالرغم من ذلكلم أكن أحبه أو أميل اليه ابدأ . كنت أضمر محبة الكبر لابن ميخائيل — واسمه سائسا ايضا — رغم ما يكتنفه من غموض، وما يبدو عليه من حماسة . . . كان هادىء المطبع ، له عينا والدته الحزینتان وابتنسامتها الفاتنة . وكانت أسنانه بشعة كل البشاعة — اذ تندفع خارج فمه ، وتنحني بشكل صفيين مضاعفين متراكبين في فكه الاعلى . وكان اصلاحها شغله الدائم ، فأصابعه ابدأ في فمه يحاول أن يخلع بها اسنان الصف الخلفي . وكان يسمح ، متلطفًا طائعا ، لاي انسان يرغب في تفحصها ان يفعل ذلك . ولكنني لم أقسع على شيء اخر فيه يثير الاهتمام . كان يبقى على الغالب ، منعزلا في ذلك المنزل الصاخب يقبع وحيدا في احدى الزوايا المظلمة الدامسة ، أو يقضي أمسياته قرب النافذة ، وكان يبهجني ان أصحابه تذرنا بالصمت أقعد الى جانبه شرب النافذة وأظل ساكنا مدة ساعة من الزمن او يزيد ، أراقب الغربان تحط وتحلق فوق كاتدرائية اوسبينسكي التي تنتصب قببها الذهبية الرائعة فسي بروز جميل تواجه فيه الاشعة الحمراء التي يبعثها مغيب الشمس . كانت الغربان تحلق في أعالي الجو ، ثم تندفع هابطة . . وعلى حين غرة ، تنشر اجنحتها السوداوية في السماء المريضة الحرة ، ومن ثم تختفي مخلفة وراءها فراغا هائلا ميتا ، فاذا بك تفقد كل رغبة في الكلام ، وانت تشخص الى هذه الامور تجري امام عينيك ، لان صدرك يمتلىء عندها بسرور مؤلم .

أما ساشا ، ابن الخال باكوف ، فباستطاعته ان يتحدث ما شئت عن جميع الامور مثل رجل بالغ وبصورة مؤثرة حقا . . . وعندما عرف رغبتى في تعلم مهنة الصباغ نصحني باللجوء ، في تجربتي الاولى ، الى غطاء المائدة الكبير الخاص بأيام الاحاد والاعياد ، فأخذه من موضعه في الخزانة ، واصبغه باللون الازرق القاتم .

قال لي القاتم

وقال لي جادا :

— ان الاشياء البيضاء تتقبل الالوان اكثر من أي شيء اخر ، وأنا واثق من ذلك .

. فاستوليت على الغطاء الثقيل الثمين ، ، وركضت به حتى الساحة ولم اكد اغطس اطرافه في حوض « النيل » حتى رمى تسيجانوك بنفسه على ، واختطف الغطاء من بين يدي ، وعصره بيديه الكبيرتين ، وصاح بابن خالى الذي كان يراقب ذلك من المظلة :

— اركض وادع جدتك !

والفتفت ناحيتي ، وحك رأسه العريض منذرا بالشر . قال :

— ستنال نصيبك من دون ريب .

واسرعت جدتي الينا ، وراحت تلهث عندما رأته فداحة ما ارتكبت ، حتى انها سكبت بعض الدموع وهى تعنفنى بطريقتها المضحكة .

— آه منك أيها اللعين ، آه منك ومن أذنك الشبيهتين بأذني الفيل . فلبرغحك الشيطان ويرميك ارضا . لا بد ان تقيد وتجلد . . .

وعندها شرعت تتوسل الى تسيجانوك :

— لا تخبر جده بهذا ، يا فانيا ! سأخيه ، ولعل الامور تجري خرا . . .
ساجاب فانيا مغتاظا ، وهو يمسح دمه الندية بمئزره الملوث بالصباغ :

— لا تقلقي من جهتي : فهذا لبس من شأنى ! ولكن يحسن بسك ان نتبهي لما سيثرثر به ساشا .

فُتِلت ، وهي تنطلق بي ناحية البيت :

— سأعطيه بعض الدراهم ليسد بها فمه .

وفي ذلك السبت ، قبل صلاة الغروب ، صحتني أحدهم — ولم أعد أذكر هويته الى المطبخ . . كانت الظلمة والسكون يخيمان هناك . . واني لاذكر ان الابواب المفضية الى المشى ، وابواب الغرف الاخرى كانت جميعا مرتجة باحكام ، بحيث توارى مساء الخريف ، اذهب اللون كثير الضباب ، خلف النوافذ التي كان المطر يسامرها هامسا وهو يتساقط عليها ، وكان تسيجانوك يجلس على دكة صغيرة قبالة الموقد الاسود الكبير ، وهو أسوان على غير عادته . وقد وقف جدي قرب برميل قائم في احدى الزوايا ، يسحب من الماء عدة قضبان طويلة مقطوعة من احدى اشجار البتولا ، ومن ثم قاسها ، وجمعها في حزمة واحدة ، وضربها في الهواء ببأس كبير . . . وكانت جدتي تستنشق السعوط في مكان شبه مغمور بالعتمة ، وهي تهمهم :

— انه مبتهج ، هذا الظالم الوحش !

وكان ساشا ، ابن الخال ياكوف ، متراكما على احد المقاعد بي منتصف المطبخ ، يفرك عينيه باصابعه ، ويعول كأحد المستعطين الشيوخ :

— سامحني ، لاجل المسيح . . .

ووقف ساشا ، ابن الخال ميخائيل ، واخته الصغيرة متلاصقين وراء الطاولة ، جامدين كتمثالين قدا من الحجر الصلد .

وأجاب جدي : وهو يمسه على كفه قضيبا طويلا مبللا :

— سأصفح عنك بعد ان تنال نصيبك كاملا . حسنا ، اخلع سروالك .

كان يتكلم بهدوء ، ولم تستطع نغمة صوته ، ولا حركات الصبي المتربع على الكرسي ، ولا ضربات قدم جدتي ، تدنيس حرمة الصمت المسيطر على ذلك المطبخ الظليل الجاثم تحت ذلك السقف المنخفض المطلي بالهباب .

ونهض سائسا ، وفك سرواله ، وانزله حتى ركبتيه ، وجثا معتمدا على الدكة ، وقد تقوس بكامل جسده . كان النظر اليه يحز في النفس حتى ان قدمي طفقتا ترتجفان بشدة . ولكن المشهد ازداد ايلاما عندما اضطلع بضعف ، ووجهه الى الدكة ، واخذ فانيا يقيده بمنشفة طويلة مر بها تحت الابطين وحول العنق . ثم انحنى ، وامسك به من عقبه... .

صاح جدي :

الكسي ! تعال هنا ! حسنا ، مع من اتكلم ؟ انتترب وانظر ما عنيتيه بالجلد ؟ انظر مليا ! واحد

وبحركة خفيفة من ذراعه رفع القضيب واهوى به على جسد سائسا العاري ... فآخذ الصبي يعول وينوح .

قال الجد :

— لا تكذب ! ... فتلك لم تؤذك ! ولكن هذه ستفعل !

وضرب ضربة قوية رسمت على جلد الصبي ، بسرعة غريبة ، توردا طاهرا . ثم خلفت عليه تورما احمر اللون قائيا . فانطلق من ابن خالي عويل طويل متتابع

وحرك الجد ذراعه حركة موزونة من الاعلى الى الاسفل ، وسال :

— اما احببتها ؟ اما وافقت مزاجك ؟ هذا ليس بكشبان ؟

كان يهب في صدري ، كلما رفع ذراعه ، شيء مجهول يصاحب حركته ، وايمان ما ضرب بيده كنت كمن يتلقى تلك الضربات منه .

وشرع سائسا ينتحب بصوت عال ، حاد ، يبعث الالم في قلب السامع اليه :

— لن افعل ذلك ثانية ! الم اخبرك عن غطاء الطاولة ؟ فانا الذي اخبر

— وشيت ؟ ان وشايتك لن تشفع لك او تخذلك ذنبك ! ان للواشي السوط الاول ، وهذه ايضا لك بسبب الغطاء !

فارتمت جدي علي ، واحتضنتني بين ذراعيها :

— انني لن اعطيك المكسي أبدا ، لن اعطيك . . . لن أدعك تفعل ذلك ؛
ابها الوحش !

وظفقت تضرب الباب ، وتصيح :

— فارفارا ! فارفارا !

فهجم عليها جدي ، ورماها على الارض ، واختطفني ، ثم حملني حتى
الدكة . . . كنت اجاهد جهاد اليائس لافلت من بين ذراعيه ، اشد له لحيته
الحمراء ، واعض له اصبعه . فشرع يزار ويشدد الضغط علي ، ثم رمى بي
اخيرا على الدكة فاصطدم وجهي بعنف شديد . وما زلت أذكر جيدا صياحه
الوحيي :

— اربطه ! ساقطسه !

وكذلك اذكر وجه امي الابيض ، وعينيها الكبيرتين . . . تركض وراء
الدكة وامامها ، وهي تحشرج :

— كفى ، يا ابناه ! اتركه ، رده الى !

وظل جدي يضرني حتى مفدت الوعي . وبقيت ، بعد ذلك ، عدة ايام
اعانى المرض ، وقد مددوني على صدري في سرير دافئ عريض ، في غرفة
صغيرة ذات نافذة واحدة ، يضىء في أرجائها نور قنديل أحمر باهت يحترق
على الدوام في زاوية الايقونات .

كانت ايام مرضي احدى المراحل الهامة الرئيسية في حياتي . وكنت
خلال تلك الايام ، وكأني انمو سريعا واتحول من حال الى حال جديد — ومنذ
ذلك اليوم ، ظهر عندي ذلك الانتباه القلق العميق نحو المخلوقات البشرية ،
مكأنها الجلد قد تمزق عن قلبي ، فاصبح حساسا بصورة غير مألوفة لا تكاد
تصدق حيال الامتهانات والالام الانسانية التي اعانيها انا او يعانها سواي
من البشر .

وقد فجمعت ، بادىء الامر ، بذلك الشجار الذي نشب بين امي وجدتي
. . . كانت هذه الجدة الكبيرة السوداء ، في تلك الغرفة الصغيرة ، تنفض

على امي وتحصرها في زاوية الايقونات ، وهي تغغم :

— لم لم تختطفه بعيدا ؟ تولي !

— كنت خائفة !

— مخلوقة كبيرة مثلك تخاف ! يجب ان تخجلي ، يا فارفارا ! انا لم اخف بالرغم من كبر سني ! ذلك مخجل حقا !

— انك لا تحبينه ! ولا تحملين عطفًا لذلك اليتيم الصغير المسكين !

— انني يتيمة انا الاخرى — لقد كنت وسأبقى يتيمة طوال حياتي !...
قالت والدتي هذا بصوت مرتفع ، حزين الرنة ..

وحينئذ شرعنا تبكيان ، وقد جلسنا على الصندوق بالقرب من الزاوية.

قالت والدتي :

— لولا الكسي لهربت بعيدا ! الى مكان ناء حيثما كان ، فانا لا نستطيع العيش في هذا الجحيم ! انا لا أقدر ، يا اماء ! وليس لدي الطاقة الكافية !

فهمست جدتي :

— آه يا ولدي ، يا فلذة كبدي !

استنتجت من ذلك ان امي ليست على شيء من القوة . فهي ، كالاخرين ، تخاف جدي وترهبه . . . وانا مسؤول عن بفائها في ذلك المنزل حيث لا تستطيع للحياة تحملا . ما افسى ذلك ! وسرعان ما اختلفت والدتي بعد زمن . اخبروني انها مضت تزور بعض الامكنة ، ولكنني لم اعرف قط اين ذهبت . . .

وذات يوم جاءني جدي . . . حدث ذلك فجأة ، فكأنه سقط علي من السقف . . . جلس على حافة السرير ، وراح يداعب رأسي باصابعه الباردة كالثلج ..

— صباح الخير ، ايها الشاب الصغير ! هيا واجب على بؤالي — لا

تحقد علي - حسنا ، كيف حالك ؟

فأحسست رغبة في ان أرفسه . ولكن الحركة كانت تؤلنسي كثيرا .
جلس الى جانبي ، يبدو لي شعره اكثر احمرارا منه في اي وقت مضى ،
وهو لا يفتأ يهز رأسه بشكل متعب ، في حين علقت عيناه اللامعتان بالجدران ،
فكانهما تبحثان فيها عن شيء ما . وأخرج من جيبه كعكة من الزنجبيل ،
وقضببين من سكر النبات ، وتفاحة ، وبعض الزبيب ، ووضع ذلك كله على
المخدة بالقرب من انفي :

— انظر ! لقد حملت اليك بعض الهدايا !

نم انحنى وقبلني في جيبني وراح يتحدث وهو يضرب بلطف على
جبهتي ، من آن لآخر ، باصبعه الصغيرة الممتلئة ، الملطخة باللون الاصفر
الفاقع ، وخاصة حول الاظافر المعوجة الشبيهة بمخالب الطيور :

— لقد ضربتك اكثر مما تستأهل ذلك اليوم ، يا صغيري . وانا اعترف
بذلك . لقد فقدت صوابي . لقد كنت مجنونا . وانت ضربتني ، وعضضتني ،
و . . . حسنا ، لقد ثارت ثائرتي . . . ومن حسن حظك ، على أية حال ، انك
نلت علاوة هذه المرة — وسأخصمها من حسابك في المرات القادمة . يجب ان
تذكر فقط شيئا واحدا — ان ضربك احد من ذويك فهو لا يقصد اهانتك ، بل
تربيتك وليكن هذا درسا مفيدا لك ! ولكن ، اياك ان تدع الاخرين
يلمسونك بسوء — ذلك مجاز لاهلك فقط — فهم لا يحاسبون عليه ! انظن
انني لم ائل نصيبي في صغري ؟ لست تستطيع ان تتصور ، في اكثر احلامك
رداءة ، كيف كانوا يضربونني ، يا البوشا ! كانوا يضربونني بوحشية لو كان
الله شاهداً عليها لبيكى وماذا كانت نتيجة ذلك ؟ انظر الي الان فقط —
انا ، البتم ، ابن مستعطية عجوز — أراس الان معملا كاملا ، وأمر الناس
المحيطين بي .

واقترب مني بجسده النحيل المحكم البناء ، وراح بروي لى قصة
طبولته ، وكلماته الثقيلة تسترسل ، الواحدة تلو الاخرى ، بهارة فائقة
ودون صعوبة على الاطلاق .

كانت عيناه الخضراوان تشعان ، وشعره يلتمع كالذهب ، وصوته يزداد حدة ، وهو ينفخ في وجهي :

— لقد جئت الى هنا على ظهر مركب بخاري . فالبحار ، اذن ، هو الذي حملك حتى هذا المكان . ولكنني عندما كنت صغيرا ، كانت قواي وحدها تصارع أمواج الفولجا ، وهي تجر العوامات الخشبية . كانت العوامة تنزلق على الماء ، اما أنا فاسير على الضفة ، حافي الاقدام ، فوق تلك الحجارة المدببة والاشواك المسنونة ، منذ بزوغ الفجر حتى هبوط الليل ، والشمس نشع لاهبة حتى لتحس برأسك قدرا من الحديد يغلى في داخله شيء ما . وأنت منحن حتى يقابل رأسك قدميك ، وعظامك تصرصر ، ولكنك تدب وتدب دون توقف ، ودون ان ترى الى أين ، والعرق يتصبب في عينيك ، وقلبك يئن ، وشفتاك ترتجفان — آه ، نعم ، يا اليوشا ، انك لا تستطيع ان تدمر ، بل تظل تسيروا وتسير حتى تسقط من اعياء ، ووجهك الى الارض مدفون فيها . انك لتغتبط بذلك لانه يعني على الاقل ان قوتك قد تلاشت جميعا عن اخرها ، وان عليك ان تستريح بعد الان او تموت من شدة الاعياء ، والامران عندك سواء، هكذا كنا نعيش تحت نظر الله ورحمة شفيعنا السيد المسيح . . . ثلاث مرات في حياتي قست طول امنا الفولجا بالرغم من عرضه واتساعه : من سمبيرسك حتى ريبينسك ، ومن ساراتوف حتى هنا ، ومن استراخان حتى ماكاريف ، وهي تساوي مسافات تزيد عن الالف الفراسخ . وفي السنة الرابعة فقط رقيت الى درجة بحار ، فقد أدرك الرئيس اخيرا اننى اكثر من مجرد حيوان للجر .

كان ينمو امام عيني باستمرار ، كلما قطع في حديثه شوطا جديدا ، مثل سحابة تتحول من مخلوق صغير الى بطل ذي قوة خارقة — بطل يستطيع لوحده ان يجر عوامة شهباء اللون ضد تيار النهر العظيم .

كان يقفز ، في بعض الاحيان ، عن السرير ، يمثل لي كيف كانت العوامة تتقدم بواسطة حبالهم ، وكيف كانوا يجذفون المياه ، ثم يأخذ بانشاد اغنيات غر مألوفة بصوت عميق . ويعود فيثب ، كرة اخرى ، ويجلس على السرير ، مخلوقا مدهشا يتابع الحديث في صوت يزداد عمقا واقتناعا حينما بعد حين :

ورغما عن ذلك كله ، يا الكسمي ، كنا نستريح في احدى ليالي الصيف في ريجولي ، ونشعل نارا تؤرثها الاخشاب عند سفح احدى التلال الخضراء —

اوه ، لقد كانت تلك اياما ممتعة حقا ، يا الكسي ! فهذا الحساء يغطي في قدره ، وهؤلاء بعض المراكبيين يترنمون بأغنية حماسية يخفون بها عن قلوبهم بعض الغناء ، فنشاركهم بها بدورنا - اوه ، كان الغناء يحفز كل جارحة فينا ، ويدفعنا للاستزادة منه ، والعب من منهلته . حتى يخيل اليك ان الفولجا نفسه يضاعف من شدة جريانه ، مثل حصان غاضب يزمجر ويهاجم بعنف عنان السماء ! وعندها كانت متاعبنا تضحل وتتلاشى كما بتلاشى الغبار امام الريح ! وكنا ننسى في غنائنا ، ذلك الحساء حتى يفور وينصب على النار . فنلنفت الى الطاهي ، نصب على رأسه ثورة حامية الوطيس :

« لك ان تتمتع باغنيتك ، ولكن اياك ان تنسى وظيفتك ! » .

ولقد جاعوا الى الباب يطلبون جدي عدة مرات ، فكنت اتوسل اليه في كل مرة :

— ابق لحظة اخرى !

فيضحك ، ويلوح بذراعيه ، ويصيح :

— انتظروا ! هناك ...

واستمر يسرد لي حكاياته حتى المساء . استنتجت عندما ودعني ومضى ان جدي لم يكن مخيفا ولا شريرا .

كان الالم يعصر قلبي بقسوة كلما تذكرت انه هو الذي ضربني ذلك اليوم بكل تلك الوحشية والقسوة ، فاجرب ان اتناسى تلك الحقيقة دون جدوى .

وفتحت زيارات جدي الباب على مصراعيه لكل طارق ، فكان أحدهم يتبع على سريري منذ الصباح الباكر حتى هبوط الليل ، بحاول تسلبتي بطريقه ما . واني لأذكر ان تلك المحاولات لم تكن تتكلل بالنجاح دوما .

وكانت جدتي تعود اكثر من اي شخص اخر ، بل كانت تقاسمني الفرائس دائما . ولكن الشخص الذي ترك الاثر الاكبر في ذهني هو تسيجاتوك

من دون أدنى ريب . جاعني ذات مساء شابا وافي القامة ، عريض المنكبين ،
ذو رأس كبير يفرشه شعر مجعد اسود اللون فيغطيه ، وهو يرتدي ثياب نهار
الاحد المؤلفة من قميص حريري فاتح اللون ، وسروال عريض من المخمل ،
وحذاء يصصر عند كل خطوة ، ويتجمع عند العقب كالة الاكورديون . وكان
شعره يلمع ، وعينه المنحرفتان تشعان جذلتين تحت حاجبيه السوداوين ،
واسنانه البيض تبرق من تحت الخطوط الضيقة لشاربيه الفتيين ، وقميصه
يتوهج وهو يعكس بعذوبة الضوء الاحمر الذي يبعثه قنديل الايقونة .

وسحب كم قميصه ليكشف لي عن جروح حمر صغيرة في ذراعه ، وقال:

— انظر يا صاحبي ، اترى مبلغ تورمه ا ولكنه كان اسوأ من قبل ، ثم
اندمل شيئا فشيئا ... لقد ادركت ان الغضب افقد جدك كل ما لديه من
صواب ، فازمع ان يضربك حتى الموت ، ولذلك وضعت يدي اتلقى بهما
ضربات، القضيب آملا ان يتكسر ، فيضطر جدك عندها للاستعاضة عنه باخر
جديد ، معطيا بذلك لوالدتك او جدتك فرصة لاخطافك بعيدا ... ولكن
القضيب لم يتكسر ، اذ كان مبللا ومرنا للغاية . ولكني ظللت اتلقى عنك
بعض الضربات ، وانت تستطيع ان ترى بنفسك كم كان عددها ! نعم ..

وضحك ضحكة فتانة ناعمة ... ثم اضاف ، وهو ينظر ثانية الى ذراعه
المنتفخ :

— لقد شعرت بالاسف من اجلك حتى انبهرت انفاسي . وادركت ان
عاقبة عمله ستكون وخيمة ، ولكنه استمر فيه وهو يؤرجح ...

ونفخ بمنخريه كالحصان ، وهز رأسه ، وراح يمثل لسي حركات جدي
بطريقة صبيانية بسيطة استطاعت ان تنال ، بسرعة عجيبة ، كل عظمي ...

وأخبرته انني احبه كثيرا ، فأجابني بذات تلك اللهجة البسيطة المحببة:

-- وانا خصصتك بثمرة قلبي . ولذا تحملت ذلك الالم من اجلك — من
اجل حبي لك . انظرن اني افعل لاي كان ؟ فليذهب باقي الناس الى الجحيم !
انا لا يهمني امرهم !

ثم اعطاني امثلة ، وهو يتطلع الى الباب بنظرات مسترقة . قال :
— عندما يجلدونك مرة اخرى فلا توتر اعضاءك ، اتسمع ؟ ان ذلك
يضاعف الالم مرتين . ولكن ، اجعل جسدك يتمدد مرتاحا ، حتى يصبح طريا
ناعما مثل الجلوتين . ولا تقطع نفسك ابدا . تنفس باقصى ما تستطيع من
رئتيك . مذكر هذا جيدا ، ذلك افضل لك !

فسألت :

- وما فائدة ذلك ؟ هل سيعودون الى جلدي ؟
- فاجاب نسيجانوك بهدوء :
- وماذا تظن ؟ بالطبع سيفعلون ! سيفعلون ذلك كثيرا .
- ولاي سبب ؟
- ان جدك سيخترع سببا لذلك ، حسنا !

ومرة اخرى راح يعلمني ، باهتمام عظيم ، ماذا يجب ان افعل :
— وإذا بدأك بالضرب فارتسم على الارض فقط ، والزم الهدوء بحيث
تستطيع ان تتهدد براحة ودون حراك . فان تابع الضرب وانت على الارض،
واخذ يشد القضيب اليه حتى يسلم عن جسدك الجلد ، فتدحرج عندئذ
ناحيته ، بل ناحية القضيب ، اتسمع ؟ ان ذلك يجعل الضربات اكثر احتمالا !

وتبت في نظرة جانبية سوداء ، وقال :

وفيما يتعلق بالتعذيب فان لي الماما يفوق المام رجال الشرطة . اذ
يمكنك ان تصنع زوجا من القفزات بها انسلخ عني من جلد .
ونظرت الى وجهه الجدلان ، فتذكرت اتناصيص جدتي عن الامير ايفان،
وايكفانوшка الاحمق . . .

اتضح لي ، بعد ان اخذت صحتي بالتحسن ، ان تسيجانوك يشغل مركزا مهتازا بين سكان منزلنا ، فجدي لا يصيح في وجهه بخشونة وكثرة كما يفعل مع ابائه ، بل يضيق عينيه ويحك راسه عندما يتحدث عنه في غيابه :

— ان ايدي ايفان مصنوعتان من الذهب ، اخذه الشيطان ! سيكبر مثل الجبل ! تذكروا ما اقول : هذا الذي يعيش بيننا ليس بالانسان الوضيع ، ولسوف يشق لنفسه دربا . . .

كانت علاقات خالي مع تسيجانوك حسنة ايضا ، فهما لا يحاولان التلاعب عليه ابدا كما يفعلان مع المعلم جريجوري . كانا يستنبطان ، في كل مساء تقريبا ، لعبة دنينة ضد هذا الاخير — فيسخنان مقابل مخصصاته ، او يثبتان في مقعده مسمارا راسه في الهواء ، او يقدمان اليه اقمشة مختلفة الالوان فيخيطنها لقصر بصره — ببعضها في قطعة واحدة دون ان ينتبه لالوانها ، مما يؤدي الى خلاف عنيف بينه وبين جدي .

وحدث ذات مساء ، بعد العشاء ، ان مضى جريجوري وغفا على الدكة القائمة في المطبخ ، فصبغا وجهه بالقرمز . وبقي بعد ذلك فترة طويلة اشبه بالمهرجين ، يتدلى انفه الاحمر الطويل كاللسان بين قرصي نظارته الاسودين اللذين يسطمان ببلادة فوق لحيته الشهباء .

كان خالاي لا يفرغان من ابتكار امثال تلك الالاعيب ، وجريجوري يتحمل ذلك صاغرا دون ان ينبس بحرف واحد ، بل يجمجم بينه وبين نفسه ، ويحترس من التقاط المقصات ، او الملاقط ، او الكتبتان ، او أي شيء حديدي اخر ، الا بعد ان يلمسها باصابعه المبللة بلعابه . وامست هذه عادة لا تفارقه ، حتى اضحى يبلل اصابعه باللعب حين يجلس الى مائدة الطعام ،

وقبل ان يلمس سكيننا او شوكة ، فبيعت ذلك منه سرورا لا حدود له في قلب الاطفال .

كانت تعلق وجهه العريض موجة من التغضن عندما يؤذيه شيء ما ، ثم تنسلق بشكل غريب ، حتى تصل الى جبهته ، فترفع حاجبيه ، ومن ثم تخفي في احدى زوايا راسه الاصلع .

ولست أدري رأي جدي في لهو ولديه ، اما جدتي فكانت نهز قبضنها في وجهيها ، وتهمهم :

— يا لكما من شياطين لا يخجلان ، حقا انكما لعفريتان ...

وفي غياب تسيجانوك ، كان خالاي يتحدثان عنه بخبث واستهزاء ، يذمان اعماله ، ويسميانه لصا وخاملا .

سألت جدتي مرة عن سبب ذلك ، فأجابت :

— ذلك ان كلامهما يرغب في أن يشتغل فانيا لحسابه حينما يفتتح معمله الخاص ، فيصغر في قدره امام الآخر . وكل منهما اخبث من اخيه واكذب . ولكنهما خائفان ايضا من ان بفضل فانيا البقاء مع جدك على الذهب معها ، فقد يخطر لجدك مشاريع جديدة ، ان يفتتح مثلا معملا خاصا لفانيا . وهذا مما يسيء الى الخالين ، افهمت ؟

وضحكت بهدوء :

— ولكن الله نفسه يهزأ بهما . ويلاحظ جدك دهاءهما ، فيغيظهما بقوله « سأدفع عن فانيا بدل الجندي ، وهكذا لن يأخذه الى الجيش ، فانا لا أستطيع الاستغناء عنه » ، والان ، أفلا يكفي هذا ليفقداهما ما في راسيهما من عقل ؟ ومع ذلك ، فهما لا يريدان هذا ، ويعز عليهما صرف المال لان البذل يتطلب كمية كبيرة منه .

مرة ثانية ، عدت أعيش مع جدتي ، تماما كما سشنا على ظهر المركب ، فتروح تقص علي — كل مساء قبل أن امضي الى النوم — اقصيص الجن ، أو فصصا من حياتها الخاصة لا تقل عن تلك جمالا وروعة . فاذا تحدثت عن « قضايا العائلة العملية » ، وعن تقسيم املاك جدي ، أو عن عزمه على شراء منزل جديد خاص به ، فقد كان يشوب لهجتها شيء كثير من السخرية واللامبالاة ، فكانها مجرد جارة لا شأن لها بتلك الامور ، وليست ثائبة العائلة تقدا في السن .

وقد أخبرتني أن تسيجانوك ليس الا لقيطا . . . فقد وجدوه ، ذات ليلة ساطرة من مطلع الربيع ، على دكة قريبة من بوابة منزلنا .

قالت ، وقد بدت عليها علائم التفكير والغموض :
— كان مضطجعا هناك ، وقد لف بحزمه من القماش . يقرقف من البرد حتى ليعجز عن الصياح والبكاء .

— لم يتخلى الناس عن اولادهم هكذا ؟

— وقتما تجد الام ان الحليب والطعام ينقصاتها لتغذي رضيعها بهما ، تفتش عن بيت ولد فيه طفل اخر ومات من توه ، فتحمل وليدها اليه وتتركه هنسك .

وبعد هنيهة صمت فضتها في تمشيط شعرها تابعت ، وهي تتطلع ناحية السقف :

— والفقر اساس ذلك كله ، يا اليوشا ! ان بعض الناس لعلى درجة من الفقر لا يمكن وصفها . ومن العار عندهم ان تضع فتاة غير متزوجة . . . وقد اراد جدك ان يحمل فانيا الى الشرطة ، ولكنني منعتة عن ذلك وقلت : « فلنحتفظ به . . . ان الله ارسله لنا عوضا عن ابنائنا الذين توفوا . . . » . لقد انجبت لهذا العالم ثمانى عشرة نفسا . وكانوا لو بقوا على قيد الحياة يملؤون شارعنا كاملا — ثمانية عشر منزلا ! اليس كذلك ؟ لقد زوجونى ولما ابلغ من العمر اربعة عشر ربيعا ، واصبحت اما قبل الخامسة عشرة . ولكن الله احب نسلي هذا — فصار يدعوهم اليه واحدا تلو الآخر ، ليجعلهم ملائكة له في السماء . وان ذلك ليؤلني ويشقيني ، ولكنه يفرحني في الوقت نفسه . . .

كانت تشبه — اذ تجلس على حافلة السرير ، وقد ارتدت قميص النوم ، يجلها شعرها الاسود ، ووجهها الضخم الاشعث — دبة جلبها لنا ، منذ عهد قريب ، فلاح طويل اللحية من غابات سيرجاش .

وقهتت ، وهي ترسم اشارة الصليب فوق صدرها الابيض ، وتهتز بكليتها :

— لقد اخذ افضلهم جميعا ، ولم يترك لي الا اشرارهم . ولذا كنت سعيدة لحصولي على ثانيا ، ولقد احببته حبا جارفا ، فانسا اتمشق الصغار امثالك ! اخذته وعمدته ، وها هو قد عاش ، وصار انسانا رائعا . وقديما

كنت ادعوه بالخنفساء بسبب دونه الدائم — فقد اعتساد ان يدب على الارض وهو يدوي كالخنافس . هلا احببته يسا الكسي ، فان له روحا بسيطة سانجة .

كنت احب ايفان ، وتملكني دهشة لاعجابي به . . .

وفي كل سبت ، اذ يمضي الجد لاداء صلاة المساء بعد ان ينزل العقاب بمن اذنبوا خلال الاسبوع ، كانت حياة جديدة تبدأ في المطبخ ، حياة تسعدنا بشكل لا يمكن وصفه . . . كان تسيجانوك يقبض على بعض الصراصير من وراء الموقد ، ثم يسرحها بخيط صغير الى مركبة من السورق يصنعها بهارة وسرعة فائقتين ، ثم يسوق الصراصير الاربعة غدوا ورواحا على الطاولة التي دهنت بلون أصفر براق .

كان يصيح متهيجا ، وهو يسوقها بعضا رقيقة :

— انها ذاهبة لاحضار الاسقف . . .

ثم يلزق قطعة ثانية من الورق بمؤخرة صرصار اخر ، ويرسله وراء العربة السابقة ، وهو يقول :

— لقد نسوا متاعهم ، وها هو ذا احد الرهبان يحمله لهم .

ثم يربط اقدام صرصار اخر ، بحيث يتعثر لوحده ، وهو يجبر نفسه على راسه !

ويعلن فانيا ، وهو يفر ك يديه فرحا :

— هاكم الشمس . نادر الخمارة الى صلاة المساء !

وراح يرينا الاعيب فيرانه المدربة . . جعلها تقف وتسير على قوائمها الخلفية وقد تدلت اذنانها الى الخلف ، واخذت اعينها تطرف بشكل مضحك . لقد كان لطيفا جدا مع فيرانه ، يحمله في عبه ، ويطعمها السكر من فمه ، ويقبلها ، وهو يقول في اقتناع جازم:

— ان الفأرة جار عظيم الحكمة ، وعظيم الود . ان عفريت كل دار مغرم بالفيران وهو يتساهل جدا مع كل من يطعمها . . .

كان في استطاعة تسيجانوك ان يلعب بعض الخدعات بالورق والدرهم ، وان يصيح بصوت عال لا يجاريه فيه أحد من الاطفال . وفي الحقيقة ، كان من الصعب جدا ان تميزه عنهم . وقد غلبه الاطفال ، في احدى الامسيات ،

مرات عديدة متتابعات ، فاستنشاط غيظنا ، واعتصره الحزن ، وغمرته الكآبة ، فقطب ما بين حاجبيه ، ثم انسحب من اللعب . . وفيما بعد اعلن شاكيا :

— تلك كانت مؤامرة ضدي . وأنا اعرف ذلك ! انهم يتغامزون ويتبادلون الورق من تحت الطاولة . اتسمي ذلك لعبا ؟ انني استطيع أن اغش تماما مثلما يفعلون !

كان في التاسعة عشرة من العمر ، فهو يكبرنا جميعا ولو جمعنا اعمارنا — نحن الاربعة — الى بعضها بعضا . وان ذكرى خاصة به ما تزال حية ندية في خاطري : كان جدي يذهب ، في أمسيات الاعياد ، مصطحبا الخال ميخائيل القيام بواجب الزيارة . فيحمل الخال ياكوف ، بشعره المجمع المشعث ، تبنارته الى المطبخ ، بينما تهنيء جدتي الشاي وآنيته ، والفودكا والمرطبات . كنا نجد دوما ما يفيض عنا من الطعام . وكانت الفودكا تنصب من قوارير خضر ممتزجة بزهور حمر ، وتنسكب في الاقداح باتقان عجيب . وكان تسيجانوك يدور كالبلبل في ثياب الاحد . اما جريجوري فيدلف بهدوء الى مكان الاجتماع ونطاراته تلتمعان بمزيج من النور والظلمة . وكانت مريتنا فيجينا ، بوجهها ذي البثور السمينة ، الاحمر كالتدر ، وعينيها الصغيرتين الخبيثتين وصوتها العميق المخفض ، بين الحضور أبدا . وفي بعض الاحايين ، كان يقدم لنا ايضا الشماس الكثيف الشعر ، وبصحبتيه اشخاص اخرين وجوههم قاتمة ، وابدانهم شديدة النحول .

كان كل فرد يأكل كثيرا ، ويشرب كثيرا ، ويرسل من حين لآخر تأوهات عميقة . وكان الاولاد ينالون حصتهم ايضا ، وفيها كأس من بعض المشروبات اللذيذة . . . وفي كل مرة كانت بهجة غريبة متوحشة تنمو تدريجا حتى تملك الجميع وتسيطر عليهم سيطرة تامة ، وكان الخال ياكوف يبض تبنارته بهيام وشغف ، فاذا فعل ذلك قال هذه الكلمات التي لا تتغير :

— حسنا ، سأبشر . . .

وينحني على القيثارة ، وهو يصفق تجعدات شعره ، ويمد رقبته الى الامام كطير الازو ، ويتخذ وجهه الدور المنكاسل مظهر رجل يحلم ، وتغشى عينيه الجميلتين سحابة ناعمة ، ثم يشرع بالضرب على الاوتار برقة وعذوبة ، يلعب عليها لحنا يدفعك ابدا ، بالرغم منك ، الى الوقوف على قدميك .

كانت موسيقاه تتطلب صمتا مطبقا ، فهي تندفع كسائفة صغيرة رقرائة تنساب من مكان سحيق ، فتبطل الجدران والأرض ، وتوقظ في القلب عاطفة حزينة ملولة بالاسى والقلق ، فلا تستطيع ان تسمعها دون ان تحس بالاسف على نفسك ، وعلى كل مخلوق اخر حي . . . وكأن يبسو ان الكبار انقلبوا اطفالا صغارا ، فيجلسون جميعا دون ان يأتوا بحركة ما ، غارقين في بحر من السكون الكئيب .

كان سائسان بن ميخائيل خاصة يصغي بانتباه مركز ، فيميل على عمه بكل جسده ، وعيناه مثبتتان في القيثارة ، وفمه مفتوح ينحدر اللعاب من زاويته ويستغرق احيانا في ذلك حتى ينزلق عن مقعده ويظل ، في مثل هذه الاحوال ، قابعا حيث سقط على اربعته ، دون ان يزاول الشخصوص عينيه .

كان الجميع يجلسون انفسهم ، يرهفون السمع الى عذوبة الموسيقى كالمسحورين ، اللهم الا السماور الذي يظل يههم في هدوء دون ان يقلق راحتنا على الاطلاق .

وكانت النافذتان الصغيرتان تطلان على ظلمة ليالي الخريف الداكنة في الخارج . ونادرا ما يدق أحدهم بهدوء على زجاجها ، وعلى الطاولة يشع خيطان ضيقان من لهب اصفر تبعثها شمعتان صغيرتان ذابلتان .

ويغرق الخال ياكوف شيئا فشيئا في سبات عميق ، فيخيل اليك انه سيففو عما قريب ، وهو يركز على اسنانه ، اللهم الا يدها وحدهما اللتان تنبضان بحياة خاصة ، فابهام يده اليمنى المقوس اخذ بالاضطراب كطير يقف على حافة هاوية سحيقة ، بينما اصابع اليد اليسرى لا تنقطع عن الصعود والهبوط على الاوتار .

وينطلق ، بعد ان يشرب جرعة او جرعتين ، يفشد بصوته الاجش اغنية طويلة ، مزعجة لا نهاية لها :

« . . . ولو كان ياكوف جروا صغيرا ،
لايقظ جيرانه بنباحه . . .
ضجرت وربى . . . لقد مل قلبى !



وها هي راهبة الدير تعدو
على الدرب خائفة من نواحه ...
ضجرت وربى ... لقد مل قلبي !



وغرد ، في الغاب ، طير حنون ،
فمكرر ياكوف حلو صداحه ...
ضجرت وربى ... لقد مل قلبي !



ومر فقيران ... بيكي الصغير
دما سال كالسيل فوق جراحه ..
ضجرت وربى ... لقد مل قلبي !

فلم احتمل تلك الاغنية ، بل انخرطت في البكاء عندما بلغ خالي مقطع
المستعطين منها ، وانا نهب حزن لاعزاء له .

كان تسيجانوك ، كالاخرين ، يرهق اذنيه بانتباه الى الموسيقى ، وهو
يجدل باصابعه شعر رأسه المجدد ، ويرنو الى احدى الزوايا بثبات ، ويتنفس
بصوت مسموع . وكان ، في أغلب الاحيان ، يهتف دون ما سبب ظاهر :
— اواه ، لو كنت املك صوتا جميلا ! اما كنت اغني ؟

فتتهد جدي ، وتجيبي :

— كفاك تمزق قلبنا ، يا ياكوف ! يكفينا ما نلناه ! هلا رقصت لنا ، يا
فانيا ؟

لم يكن طلبها يستجاب دوما . ولكن الموسيقي كان يضغط احيانا على
الوتار براحة يده ، ثم يجمع قبضته ، ويلقي بحركة وحشية شيئا خفيا لا
صوت له على الارض ، ويصيح :

— كفى كآبة ! هب على قدميك ، على قدميك يا فانيا !

فينهض فانيا ، ويرتب هندامه ، ويمهد قميصه الاصفر ، ثم يتبختر حتى
وسط الغرفة ببطء فكأنه يسير على الزجاج ، ويطلب بأدب بالغ ، وهو خجلان

من ارتباكك :

— أسرع اللحن ، ياكوف فاسيليفيتش ، من فضلك !

فتأخذ القيثارة بتوقيع لحن صاحب سريع ، وتشرع الاعقاب تصاحب النغم ، والصحون تتراقص على الرفوف والمائدة ، بينما يدوم تسيجانوك في وسط الغرفة منتفضا كالعصفور ، يموج يديه كالاجنحة ، ويحرك قدميه بسرعة عظيمة تسعج العين عن متابعتها . ثم يجلس على وركيه وهو يهتف بصوت عال ، ليعود الى الدوران كخزوف ذهبي ، يضيء كل شيء بشعاعات سندسبة تلتع وتثع من ملابس الحرير المتموجة التي يرتديها .

ويظل تسيجانوك يرقص طويلا ، وقد سها عن نفسه وعن محيطه تماما ، حتى يخيل الي انه سيتابع ذلك — فيما لو فتح الباب له — ويدلف راقصا الى الشارع ، وخلال البلدة ، وهكذا حتى يبلغ بعض الاراضي البعيدة المجهولة ...

ويصيح الخال ياكوف ، وهو يضرب الارض بقدميه مرافقا انغام قيثارته :

— عظيم !

ويرسل من فيه صفيرا قويا ، ويزعق بهذين البيتين بصوته الثائر :

« لو لم يكن في ذهابي ائتلاف حذائي في الطريق ،

لفررت من زوجي كما افر من الحريق ... »

وتصيب الحمى الاشخاص الجالسين الى المائدة ، فيأخذون بالصباح والزعيق كأنهم يطعمون بحديد محمي . ويستمر المعلم اللتحي يرافق النغم بضربات متتابعة على رأسه الاصلع ، وهو يتمتم في سره بشيء ما ..

واتجه مرة ناحيتي ، حتى صاقتب لحيته الناعمة كتنسي ، وهمس في اذني وكأنه يخاطب أحد الكبار :

— لو كان والدك هنا ، يا الكسي مكسيموفيتش ! لكان اضاء شعلة صاخبة مسلية تختلف عن هذه ! لقد كان في طراوة العمر وبسمة الصبا ، اتذكر ه ؟

— ككلا !

— ها ! لقد اعتاد ان يرقص وجدتك احيانا ... انتظر ... انتظر لحظة وستري ...

ونهض جريجوري على قدميه ، باسق القامة ، هزيل الجسم ، يشبه
صوره أحد القديسين ، ثم انحنى على جدي ، وقال في صوت عميق غير
مألوف :

— كوني لطيفة ، يا اقولينا ايفانوفيتش ، وارقصي لنا . اذكركين كيف
كنت ترقصين مع مكسيم سافاتييفيتش ؟ والان ، اصنعي معنا هذا المعروف !
وضحكت جدتي وقالت ، وهي تبتعد :

— يا الهي ! ماذا تقوله ، يا جريجوري ايفانوفيتش ؟ اوه ! انا ! انا !
ارقصي ؟ أنت تريد ان يسخر الناس مني ، اليس كذلك ؟

ولكن الجميع نوسلوا اليها . . . فانتصبت على حين غرة كما لو كانت
فتاة يافعة في رونق الشباب وميعته ، واصلحت من وضع قميصها ، وقومت
عمودها الفقري . ورمت شعرها الكث الى الورا ، ثم طفقت تدور حول
المطهى ، وهي تصيح :

— فليضحكوا ما شاؤوا ! تعال هنا ، يا ياكوف ! اعزف لي !

فانطرح خالي على الارض ، ومدد ساقيه ، وراح يلعب لحنا بطيئاً
عيناها نصف مغضتين . . . ووقف نسيجاتوك لحظة ، ثم قفز وشرع يشب حول
جدتي ، بينا راحت هي تشب صامته فوق الارض وكأنها تسبح في الجو ،
وهي تحرك ذراعيها بطرافة بالغة . . . فيرتفع حاجبها ، وترنو عيناها
السوداوان الى الافق البعيد . . . وصور لى انها تبعث على السخرية ،
فانفجرت ضاحكا . . . ولكن جريجوري حرك اصبعه في وجهي ، في حين رمقني
جميع الكبار بنظرة تنم عن السخط والغضب .

صاح جريجوري ، وهو يضحك

— ابتعد ، يا ايفان !

فذهب تسبجانوك بطاعة غريبة وتبع في احدى الزوايا قريبا من الباب .
وابرزت المربية يفجينا حلقومها ، وراحت تنشد في صوت عميق رائع :

« لقد رقصوا منذ فجر النهار

وسرعان ما هجم الليل عدوا

وكادوا يطشرون عبر الفضاء

فولى نهارهم ، وانقضى ! »

وكان يلوح ان جدتي لا ترقص ، بل تحكي رواية ما . فهي تتحرك

ببطء ويتأن ، تخطر من ناحية لآخرى ، وترنو الينا من تحت ذراعها المرفوعة ،
تضطرب في حركاتها ، مترددة ، وهي تتحسس طريقها بحذر واعتناء بالغين .
ثم تتقف لحظة وكان شيئاً قد اثار في قلبها الذعر على حين بغتة ، فيرتعش
وجهاً ويفتم لونه ، لتعود ملامحها فتضيء بعد قليل بابتسامة لطيفة نقية
طاهرة ... ومن ثم تقفز ، على غير انتظار ، تفسح الطريق لشخص لا
نراه ، وتدفعه باليد بعيداً عنها ، ومن ثم تتوقف وتصفي ، مطرقة الرأس ،
روجها يشرق رويداً رويداً بابتسامة سعيدة ، كي تتفجر رقصاً من جديد ،
وبصورة مفاجئة وهي تدور كالعاصفة اكثر طولاً وانتصاباً وتناسقاً منها في
أى وقت مضى ، تشع منها جاذبية متوحشة في هذه اللحظات من الشباب
المبعوث حتى ليستحيل على المرء ان يرفع بصره عنها او يحيد ...

وكانت المربية يفجئياً ، انناء ذلك ، تتابع ضجيجها ، كاحد ابواق :

وتبكي عليه مدامعها !
وتطرز ، طول الليالي ، الحرير
وتبذل ضعفا اصابعها ؟
السم تر فاتنة الدار تذوي ،

واخذت جدتي مجلسها قرب السماور ، بعد ان انتهت من الرقص ؛
فشكرها الجميع وهنأوها ، ولكنها احتجت بتواضع ...

قالت ، وهي تصفف شعرها المشعث :

— كفى ، كفى ! انكم لم تشاهدوا في حياتكم راقصة حقيقية . كانت
هناك فتاة — حيث كنت أعيش في الاخنا ، ولقد نسيتم اسمها وابنة من
تكون — لا يستطيع المرء الا أن يبكي فرحاً عندما يشاهد رقصها . فيمتليء
قلبه بهجة لجرد النظر اليها ، ولا يعود يرغب في شيء آخر مطلقاً ! لكم
كنت اغار منها ، انا الخاطئة !

واعلنت المربية بفجئياً بحدة ، وقد أخذت تغني شيئاً عن « الملك

داود » :

— ان المغنين والرائضين هم ملح الارض ...

فالتفت الخال ياكوف صوب تسيجانوك ، ووضع يده فوق كتفه ، وقال :

— يجب ان تعمل راقصاً في مسرح ما ، فلا ريب انك ستبعث الغبطة

في قلوب الناس .

فاجاب تسيجانسوك :

— افضل ان اغني ، لو يمنحني الله صوتا عذبا استمر في الغناء دون انقطاع طوال عشر سنوات . وعندئذ لا ابالي بما يحدث لي — حتى ولو اصبحت راهبا !

وشرب الجميع بعض الفودكا ، وخاصة جريجوري . . .

حذرته جدتي : وهي تملأ له الكأس تلو الاخرى :

— انتبه يا جريجوري ، والا غدوت اعمى دون مرأ .

فاجاب :

— وما اهمية هذا ؟ فلن احتاج الى عيني بعد الان ما دمت قد شاهدت

كل شيء في هذا العالم .

ولم يسكر ، بل اخذ يزداد طلاقة لسان ، وهو يحدثني طوال الوقت عن

والسدي :

— لقد كان يملك قلبا كبيرا ! نعم ! كذلك كان صديقي العزيز مكسيم

سافاتيفيتش !

فتنهدت جدتي ، ووافقت على كلامه :

— آه ، نعم ، لقد كان ابنا لله . . .

فأثار ذلك كله في اهتماما عظيما القى بي في حال من التوتر الدائم تبعث

في قلبي شيئا من كآبة هادئة ، لطيفة ، غير متعبة فالكآبة والسرور يعيشان

معا في قلوب الناس ، غير منفصلين ، يخلف أحدهما الآخر برشاقة خداعة

غامضة .

وذات مرة اخذ الخال ياكوف ، ولم يكن على شيء كثير من السكر ،

يمزق قميصه ، ويشد شعره ، وشاربه عديم اللون ، وانهبه وشفته

البارزة .

قال ، والدموع تنهمر من عينيه :

— لم ، آه ، لم ؟ يجب ان تكون الحياة على هذا الشكل ؟

ولطم بيده وجنته ، وصدره ، وهو ينشج طوال الوقت :

— انني شرير لا نفع في ! انني نفس ضائعة !

ودمدم جريجوري :

— آه ! ذلك صحيح !

فقال جدي ، وقد اسكرتها الفودكا قليلا ، وهي تمسك بيدي ولدها :
— كفى ، يا ياكوف ! ان الله العزيز ادرى منا بحاجتنا .

كانت نفسها تطيب كلما تجرعت مزيدا من الفودكا . . . وكانت عيناها السوداوان تصبان نورا دافئا على كل فرد منا ، وهي تسروح وجهها المتورد بمنديلها ، وتقول في نغمة غنائية :

— اوه ، يا الهي ، يا الهي ! ما احلى الاشياء ! انظروا فقط الى روعة العالم !

كانت هذه الصرخة تند عن قلبها ، وكانت شعار حياتها ابدا . . .
اشارت دموع خالي وبكاؤه ، وهو اللامبالي عادة ، دهشتي الى الحد الاقصى . فسألت جدي لم يبكي ويشتم ويضرب نفسه ، فدمدمت في شيء من النفور لم يكن ابدا من طبيعتها :

— يبدو عليك انك تود معرفة كل شيء ! رويدك قليلا ، لم يزل الوقت باكرا جدا لتدس بانفك في مثل هذه الامور !

هيج ذلك فضولي . . . فدخلت المعمل ، ورحت اسأل ايفان عن ذلك . ولكنه تجنب ، هو الآخر ، الاجابة على اسئلي . وشرع يضحك بهدوء ، وهو يرنو الى المعلم بطرف عينه ، ويدفعني خارج المعمل . قال :

— كفى ! اطفح عني قبل ان ارمي بك في احد هذه البراميل واصبغك باللون الاخضر اللامع .

كان المعلم يقف امام موقد واطيء عريض ، بنيت فيه ثلاثة احواض للصباغ ، يحرك محتوى احدها بعضا طويلة سوداء ، ثم يرمع بها الملابس ويراقب الماء الملون المتساقط منها . وكانت النار المتأججة تنعكس على مؤزره الجلدي المتعدد الالوان الذي يشبه ، الى حد بعيد ، ثوب الكاهن الرسمي المزركش . وكانت مياه الصباغ تفرغر في الاحواض وتكركر ، بينما تنسل سحب من الدخان الحاد من خصائص الباب ، وتمتد على طول الساحة الشتائية . . .

رنا جريجوري الي من تحت نظارتيه بعينين حراوين ، ثم التفت الى ايفان ، وقال بفظاظة :

— الا ترى انني احتاج الى بعض الوقود ؟
وعندما خرج تسيجانوك راكضا ، جلس جريجوري على احد الاكياس .

المصنوعة من خلاصة خشب الصندل ، و اشار الي ، وقال :

— تعال هنا !

اجلسني على ركبتيه ، وأجرى لحيته الناعمة الدافئة على خدي ،
واطلعني على اشيء لن انساها ما حييت :

— لقد ضرب خالك زوجته حتى قتلها . وضميره لا يترك له فرصة
للسلام ، اتفهم ؟ حق لك أن تعرف كل شيء — ابق عينيك مفتوحتين ، والا
هلكت بكل تأكيد .

كان كل شيء في جريجوري بسيطاً مثله في جدتي ، ومع ذلك فهو
يرهيني ، ويبدو انه قادر على أن يستشف كل ما يعتلج في فكر الانسان وقلبه
عندما يشخص اليه من تحت نظارتيه السوداوين .

وتابع حديثه قائلاً بسرعة :

— وكيف ضربها حتى ماتت ؟ اليك ذلك — كان يحبها الى السرير ،
ثم يلها باللحاف من رأسها حتى قدميها ، ويروح بضربها بوحشية ، ليلة تلو
أخرى ، حتى توفت . ولم ذلك ؟ هو نفسه لا يعرف لماذا ! . . .

ورجع ايهان يحمل شحنة من الحطاب ، وجلس القرفصاء بالقرب من
النار يدهنيء يديه ، لكن جريجوري تابع حديثه بصوت مؤثر ، دون ان يلتفت
اليه سالاً :

— لعله كان يضربها لانها افضل منه ، تشير في نفسه الحسد منها ،
ان آل كاشرين لا يطيقون شيئاً جيداً ، يا صغيري . انهم يغارون منه ، ولما
كانوا لا يستطيعون ان يحصلوا عليه لانفسهم ، فانهم يدمرونه . اسأل جدتك
كيف اثقلوا على ابيك حتى حرموه الحياة ، فهي ستخبرك عن كل شيء —
انها لا تستطيع الكذب ولا تفهمه . انها من طينة القديسين تلك الجدة ، رغم
انها تجرع بعض الخمرة من آن لآخر ، وتحب سعوطها حبا جما . انها امرأة
قديسة ويحسن أن تلازمها ، يا صغيري . . .

دعني عنه ، فخرجت الى الساحة مذهولاً خائفاً . ولحق بي هانيا ،
عندما اجتزت العتبة ، وهمس في أذني وقد وضع يده فوق رأسي :

— لا تخف منه انه من طينة طيبة . تطلع باستقامة في عينيه . فهو
يحب الذين يفعلون ذلك .

كانت سائر الاشياء تثر القلق بشكل غريب . ورغم جهلي المطلق بكل
اسلوب آخر للحياة ، فاني اذكر ، في كثير من الغموض ، ان أمي وأبي كانا

يعيشان حياة اخرى مختلفة . كانا ينطقان بكلمات اخرى ، ويجيدان تسليكات اخرى ، يقعدان ويسيران دوما جنباً الى جنب ، يلاصق كل منهما الآخر ولا يفارقه لحظة واحدة . وكانا يجلسان ، في الامسيات ، الى احدى النوافذ ينشدان بعض الاغنيات ، ويضحكان طويلا بصوت عالٍ ، حتى يتجمع الجيران مرهفين السمع اليهما . وانا اذكر ان وجوه اولئك الجيران المرتفعة نحو النافذة كانت تذكرني بصحون مائدة الغداء الوسخة . غير ان الايسة تنعكس في هذا المكان ، فالقوم لا يضحكون الا في التدري ، وان فعلوا فانتت تعجز عن الالمام بالسبب الذي يدفعهم الى الضحك . كانوا يزعمون في وجه بعضهم بعضاً ، ويهددون بعضهم بعضاً ، ويتهامسون في الزوايا دون انقطاع . اما الصغار فيعتصمون بالصمت ويصعب تمييز احدهم عن الاخر وهم لاصقون بالارض كالغبار . . وهكذا شعرت بانني غريب في جو ذلك البيت ، والحياة التي تحيط بي تخزني بمئات الابر ، وتستفز رييتي ، وتجبرني على مراقبة كل ما يدور حولي بانتباه زائد . . .

وقد ترعرعت صداقتي لايهان كثيرا ، وجدتي مشغولة عني ، منذ الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل ، باعمالها البيئية . وهكذا اصبحت اقضي اغلب ايامي وانا اخب في اعقاب تسيجانوك الذي استمر يحميني بذراعيه كلما جلدني جدي . ثم كان يريني اصابعه المتورمة في اليوم التالي ، وهو يقول :
— لا جدوى من ذلك ! فهو لا يسامدك مطلقا . ومع هذا ، فانظر ما يجره علي ! هذه هي المرة الاخيرة — وفي المستقبل ستنال نصيبك بنفسك . .
ولكنه كان يتحمل ، عندما تسنح الفرصة ، العقاب الذي لا يستحقه مرة اخرى . .

— لقد قلت انك لن تفعل ذلك ثانية ؟

— لم اتعمد ذلك ، لكن وجددني امد ذراعي ، هكذا دون ان انتبه الى ما افعل .

وقد عرفت ، بعد فترة من الزمن ، شيئا عن تسيجانوك زادني اهتماما به ، واخلاصا له .

كان تسيجانوك ، كل نهار جمعة ، يربط المهر الخصي « ساراب » الاشقر اللون « وهو حيوان خبيث نبيث ذو أسنان جميلة لدى جدتي » الى مزلجة للجديد ، ويلبس قبة غريبة الشكل ، ويرتدي معطفا قصيرا من جلد الماعز يحزمه زنار متين اخضر اللون ، وبمضي الى السوق لبيتاع مؤونة

الاسبوع من الطعام . وكانت غيبته تطول احيانا وعندئذ يفقد الجميع رباطة جأشهم ، فياتون النافذة باستمرار وينفخون على الزجاج المتجمد ليلقوا نظرة على الشارع .

— هل عاد ؟

— كلا ، لم يعد بعد !

وكانت جدتي ، خاصة ، تقاسي الكثير من القلق ، فقول لولديها وزوجها :

— يا للمصيبة ! ستسيبون موت انسان طيب ، وحصان طيب . انتم في امس الحاجة الى ضمير حي ، ايها المخلوقات المخجلة ! انكم لا تكتفون ابدا بما كسبتموه . يا للعشيرة الغبية ، والعائلة الطماعه ! ان الله سيعاقبكم جميعا ، وسترون

فكان جدي يعبك ويتمتم :

— اوه ، حسنا ! هذه هي المرة الاخيرة !

وكان تسيجانوك ، احيانا ، لا يعود الا بعد الظهيرة ، فيسرع جدي وخالاي حتى الساحة للاقائه ، تلحق بهم جدتي وهي تنتشق سمعوطها بغیظ ، وتهتمهم كالذب وفي مثل هذه الاحوال كانت تبدو لي ، لسبب ما اجهله ، على كثير من السماجة والثقل . وينطلق الاطفال ركضا الى الساحة ، وبشرعون ، في بهجة عظيمة ، بتفريغ العربية مما فيها مسن لحوم طازجة ، وطيور ، وسمك ، وماكل من مختلف الانواع .

ويسال جدي ، وهو يلتهم العربية بعينيه الحادتين الصغيرتين :

— اجلبت كل ما اوصيناك به ؟

فيجيب ايفان منشرح الصدر ، وهو يثب فوق الارض طلبا للدفاء ، ويضرب يديه المتصلبتين ببعضهما ليعمته فيهما بعض الحرارة :

فيصيح جدي بغضب :

— مهلا ، يا صاح ! . . . ان لفتازيك ثنا . هل تبقى معك شيء من

المال ؟

— كلا !

ويسير جدي ببطء حول العربية ، ويتمتم وهو يعود ادراجه :

— يخيل الي أنك جلبت كمية كبيرة من السموط مرة ثانية . ومن

المؤكد انك لم تحصل عليها بدون ثمن ! حذار من ارتكاب الفعل نفسه في منزلي أيضا . اسامع انت ؟

ثم يمضي بعيدا ، وقد قطب وجهه ...

وعندها كان خلالي يندفعان ناحية المزلجة ، ويروحان يقدران وزن الدجاج ، والسماك ، والطيور ، وافخاذ لحم العجل ، وكتل اللحم ...

كانا يقولان ، وهما يصفران ويصيحان معبرين عن رضاها :

— لقد اجدت الاختيار ، هذا رائع !

كان ابتهاج خالي ميخائيل يفوق حدود التصور . فهو ينفذ حول العربة وكأنه يقف على عدة نوابض ، يستنشق بأنفه اشبه بمنقار طير « نقار الخشب » ويتلمظ بشفتيه ، ويضيق عينيه الهادئتين مغتبطا .

كان بخيلا كجدي ، يشبه غجريا متشردا . وكان يخفي يديه المتجهدتين في جيبه ، ويسأل :

— كم تناولت من ذلك الشيخ ؟

— خمسة روبلات .

— ولقد كلف هذا ما يقارب الخمسة عشر روبلا على الاقل . كم صرفت من المبلغ ؟

— اربعة روبلات وعشرة كوبيكات .

— وهكذا يتبقى في جيبك تسعون كوبيكا . ما ؟ اتسمع هذا ، يا ياكوف؟ هذه طريقة فريدة في الربح !

ويضحك ياكوف بلطف ، وهو يقف في ذلك الجو البارد بقميصه قصير الاكمام ، يطرف بعينيه الى السماء الزرقاء المتجلدة . كان يسأل ببطء :

— ما قولك في ان نتقاسم المال ، يا فانيا ؟

وتخلع جدتي عن الحصان اغطيته ، وتقول وهي تشتعل غيظا :

— ماذا ، يا حبيبي ، ماذا ، يا تطني الصغيرة ؟ اترغب في اللعب ؟

امض ، امض سريعا ! ان الله لا يمانع في قليل من التسلية ...

ويهز سارات الضخم ناصيته ، ويحك كتفها باسنانه البيض ، ثم ينتش
وشاحها الحريري . ويرنو الى وجهها بعينين جذلتين ، ويصهل بعذوبة وهو
يزعزع الجليد بضرباته . . . وتساله جدتي ، وهي تدفع بقطعة من الخبز
المملح بين اسنانه ، وقد رفعتهمزرها تحت فمه تراقبة وهو يمضغ :

— اتريد قطعة من الخبز ؟

فيقول تسيجانوك ضاحكا :

— انه جميل ، هذا الخصي العجوز ! وهو سريغ سبوح ، وذكي ايضا !
فتضرب جدتي الارض بقدمها ، وتصيح :

— اليك عني ! كفك تدور حولي وتهز ذيلك . انت تعرف انني لا احبك
في هذه الاوقات !

وشرحت لي ان تسيجانوك ، حين يمضي الى السوق ، يسرق اكثر مما
يشترى من البضائع . قالت بصوت كئيب :

— يعطيه جدك ورقة من فئة الخمسة روبلات ، فيصرف ثلاثة منها —
ويسرق ما قيمته عشرة روبلات . فهو يحب السرقة ، هذا الوغد ! وقد جربها
مرة ، فنجحت ، فضحك جميع من في المنزل وامتدحوه . ولذلك اتخذها عادة .
وقد عرف جدك الفقر والبؤس في ايام فتوته ، فجعله ذلك مقترا نوعا ما في
شيخوخته . والمال عنده اعز عليه من اولاده . ويروق له كثيرا ان يحصل
على شيء من لا شيء . اما ميخائيل وياكوف ...

وعبرت عن سخطها بحركة من يدها ، ثم صمتت لحظة . . . وتابعت ،
وهي تنظر الى داخل علبة سموطها :

— ذلك شيء معقد ، يا ابوشا ، صنعته حيزبون عمياء عجوز فخرج
من بين يديها مسحورا ، فلا عجب اذا لم نستطع ، انا وانتي ، ان نميز له
راسا من ذنب . . . ولكنهم اذا ما قبضوا على فانيا مرة بجريمة السرقة ،
فسيضربونه حتى الموت . . .

وجنحت الى الصمت ثانية ، برهة وجيزة ، وعندما تابعت الكلام كان صوتها ناعما للغاية :

— ايه ! لدينا قوانين كثيرة ، لكن دون حقيقة تقوم عليها هذه القوانين، أو عدالة تتضمنها .

وفي اليوم التالي توصلت الى تسيجانوك ان يكف عن السرقة :

— سيضربونك حتى الموت !

فأطلق ضحكة سرعان ما كسفتها تقطعية علت وجهه ، ونبر :

— ولكنهم لن يقبضوا علي ، سأهرب ! وأنا خبيث ماهر ، وجوادي من الخيل السريعة . اوه ، انا اعرف ان السرقة جرم وامر خطر . وانا الجأ اليها لجرد التسلية طالما اني لا ادخر شيئا من المال فخالاك ياخذانه مني نبي بحر الاسبوع . ولكنني لا أعني بذلك — فليأخذاه ، ما دمت احصل على كفايتي من الطعام .

ورفعني فجأة عن الارض ، وهزني بلطف :

— انت هزيل ضعيف ، لكن عظامك قوية . وستصبح شابا هرقلا . اصغ ، تعلم العزف على القيثارة ، واسأل خالك ياكوف ان يعلمك ذلك . انا لا امزح ! فانت صغير بعد ، وهذا هو البلاء ! طفل صغير ، ولكنك لطيف ! واظن أنك لا تحب جدك ، اليس كذلك ؟

— لست ادري .

— حسنا ، اما انا فلا احب احدا من آل كاشيرين ، اللهم الا جدتك . .
الشیطان وحده يستطيع ان يحبهم !

— وانا ؟

— انت لست من كاشيرين ، انت من بشكوف ، وهذا دم اخر ، وعشيرة مختلفة .

وضمني اليه بلطف ، وقال وهو يئن :

— يا الله لو أستطيع ان اغني فمقط ! اذن لاوجعت القلوب بفنائي .

والان ، اليك عني ، يا اخي . . . يجب ان اشرع في عملي .
اعادني الى الارض ، وزق قبضة من المسامير في فمسه ، وراح يسمر
تطلعا سودا مبتلة في لوح مربع كبير من الخشب . . .
ولم يمض طويل وقت على هذا حتى مات . . .
واليكم كيف حدث ذلك :

كان صليب هائل من خشب البلوط ينتوي بقاعدة كثيفة من الجذور
يستند الى السور في ساحتنا ، قرب البوابة ، منذ زمن طويل ، حتى لاذكر
انه لنت انتباهي يوم جئت استوطن ذلك البيت للمرة الاولى . كان يومئذ
جديدا اصفر اللون ، اما الان فاصبح اسود لكثرة ما تساقط عليه من اطار
الخريف ، وفارقته الرائحة الحادة لآخشاب البلوط المنقوعة ، فهو يبدو شيئا
زائدا عديم النفع في ساحة دارنا الصغيرة المفروشة بالاوساخ .

ولقد اشتراه الخال ياكوف ليرفعه على قبر زوجته ، واقسم ان
يحملة الى المقبرة على كتفيه في الذكرى الاولى لوفاتها . . . وصادفت
الذكرى نهار السبت ، في الايام الاولى من فصل الشتاء . كانت الريح
الغارسة تنثر الثلج علينا من فوق الاسطحة حين مضى جدي وجدتي
والاحفاد الثلاثة الآخرون الى المقبره لحضور الجناز ، بينما خرج الباقون
جميعا الى الساحة وخلفوني وحدي في الدار عقابا لي على ذنوب سبق ان
ارتكبتها .

وارتدى خالاي معطفين سوداوين متماثلين ، ورفع الصليب عن
الارض ، ووضع ذراعه الواحدة على كتف احدهما ، والثانية على كتف
الآخر . ورفع جريجوري ورجل غريب اخر ، بصعوبة جمة ، قاعدة الصليب
الثقيلة والتمسك بها على كتف تسيجانوك العريض ، فترنح من ثقل الحمل
وباعد ما بين قدميه اتقاء للسقوط .

سال جريجوري :

— الا تستطيع حمله !

— لست ادري . يظهر انه ثقيل جدا !

وزمجر الخال ميخائيل :

— افتح البوابة ، ايها الشيطان الاعمى !

وقال ياكوف :

— الاتخجل من نفسك ، يا فانيا ؟ مُكلانا اضعف منك بنية . . . ولكن جريجوري استدار الى فانيا ، وهو يفتح البوابة ، ونبهه بحدة :

— احذر من ان تجهد نفسك ! حسنا ، كان الله في عونك !

فصاح الخال ميخائيل من الشارع :

— يا لك من احمق جربان !

فضحك كل من في الساحة ، وشرعوا يتحدثون بأصوات عالية ، فكان نقل ذلك الصليب قد ابهجهم جميعا وصب السرور في قلوبهم .

وامسك جريجوري بيدي وقادنى الى المعمل . قال :

— لربما لم يجلدك جدك اليوم . يبدو انه حسن المزاج . . .

أجلسني على قمة من الصوف مهيئة للصباغ ، واحاطني به بلفظ ، وراح يحدثني بتأمل وهو ينفخ البخار المتصاعد من الاحواض :

— عرفت جدك منذ سبعة وثلاثين عاما ، يا صغيري . ولقد شاهدت بداية هذه الاعمال ، وهانذا الان اشهد نهايتها . لقد كنا قبلا صديقين طيبين — شرعنا في العمل معا ، وهياناه معا . ان جدك هذا لانسان حاذق ! انظر ، فهو يجعل نفسه الغائد هنا — اما انا فلم اكن كفوًا لذلك . ولكن الرب اذكانا جميعا . يكني ان يبتسم حتى يروح احكم الناس يفرك عينيه كلاحق . أنت لا تعرف بعد شيئا عن لماذا وكيف . ولكن من الضروري ان تعرف كل شيء ، فحياة اليتيم شاقة . وقد كان أبوك مكسيم ساماتيفيتش الورقة الرابعة دوما ، فهو يفهم كل شيء . ولذا لم يحبه جدك ، ولم يتعرف عليه

كنت ابتهج بالجلوس والاصفاء الى مثل هذه الكلمات ، وانسا اراقب النار الجامحة المتأججة الذهبية تتراقص في الموقد ، ودفقات البخار الابيض تنطلق من الاحواض ثم تتجمد على الواح الاسطحة المائلة . وشاهدت ، من خلال احد الشقوق المبثوثة في هذه الاخشاب ، شريطا أزرق من السماء يزهر

في خيلاء . وقد خمدت الريح إلا أن ، واشترقت الشمس ، وبدت الساحة كما لو كانت مرشوشة بتراب من الزجاج الناعم . وكانت قرعقة انزلاق مركبات الجليد تدف من الشارع ، بينما يتموج دخان ازرق يتصاعد من مداخل البيوت ، وندب أخيلة منورة على الثلج وكأنها ، هي الأخرى ، تروي اقصيصها وحكاياتها .

وبدا لي جريجوري الطويل ، المتعظم ، ذو اللحية الطويلة ، والاذنين العريضتين ، ساحرا لطيفا ، وهو يقف امامي حاسر الراس ، يحرك الصباغ الذي يغلي ، ويزودني بارشاداته :

— تطلع في عيون الناس باستقامة دائما ، فإذا فعلت ذلك اضطر حتى الكلب المقتنى أن يثقف في مكانه جامدا . . .

كانت نظارته الثقيلة تضغط على حافتي أنفه ، مما جعل نهاية ذلك الانتف تزرق ، فتشبه في ذلك أنف جدتي . . .

— ما هذا ؟

قال ، وقد نهض فجأة ، ثم اصفى برهة ، واغلق باب الموقد بقدمه ، وانطلق نحو الساحة وأنا أقفز في أثره .

كان تسيجانوك يضطجع على ظهره في وسط المطبخ ، وشريطان عريضان من النور يمرقان من خلال النافذة فيقع أحدهما على رأسه وصدره ، ويتراعى الثاني على قدميه . وكان نور غريب يلعب على جبهته ، وقد ارتفع حاجباه ، ورنت عيناه المنحرفتان الى السقف المملوء بالهباب ، وراحت شفناه السوداء وان ترتجان وتبعثان بزبد وردي اللون ، وخطان رفيعان من الدماء ينزان من زاوية فمه ويجريان على وجهه ورقبته ، ثم على الأرض . والدم يتدفق بحرية من تحته . وكانت ساقاه تضطجعا بترهل ، وسرواله المريض يلتصق بالأرض ، يبدو بوضوح وجلاء انه مبلول . وكانت الأرض مفروشة بالرمل مما جعلها تلمع كالشمس ، ونهيرات من الدماء تتسابق ناحية الباب ، تتضوأ ببهاء عندما تتصلب مع خطوط شعاعات الشمس المسترسلة .

كان تسيجانوك مضطجعا دون حراك ، مهدود الذراعين ، ينتر باصبعه

على الارض ، واظفاره الملوءة بالونة الصباغ تشرق في الشمس البراقة

وجئت المربية يفجينيا الى جانب ايفان تحاول ان تضع سمعة في يده ، ولكنه لم يستطع الامساك بها ، فسقطت وانطفأت شعلتها في الدماء . وعادت المربية فالتقطتها ثانية ، ومسحتها بطرف مؤثرها ، ثم حاولت مرة اخرى ان تضعها بين اصابعه المتحركة بدون هدوء . وكان المطبخ يغلي بهياج شديد دفع بي كالريح عن العتبة ، وكاد يرمي بي لو لم اتمسك بقضة الباب .

قال الخال ياكوف في صوت لا رنة فيه وهو يهز رأسه ، وقد بدا — هو الاخر — ضعيف البنية ، متكرش الوجه ، تطرف عيناه المتكاسلتان باستمرار :

— لقد تعثر !... لقد سقط ، فسحقه ... ضربه على ظهره . وكاد يحطمانا نحن الاخرين ، لو لم نفلت في الوقت المناسب .

فقال جريجوري بصوت مبحوح :

— اذن ، فانتما اللذان سحقتمساها !...

— ولكن ، ماذا تظن اننا ؟

— انتما !...

ظلت الدماء تتدفق بحرية حتى شكلت بالقرب من الباب بحيرة صغيرة اسودت ولاحت انها ترتفع كالماء حينما يصطدم بسد منيع ، وتسيجانوك ملقى هناك يبعث بتلك الضوضاء التي يحدثها في نومه ، والزبد الوردي اللون يتابع جريانه من فمه ، وجسده يضمحل ويزداد تسطحاً ، وينبسط على الارض كما لو كان يغوص فيها .

همس الخال ياكوف :

— لقد امتطى ميخائيل حصانا ومضى الى الكنيسة يخبر والدنا ! انا انا نقلته على عربة وأسرعت الى هنا . . حسنا فعلت اذ لم احمل القاعدة بنفسني ، والا فالام كنت ساصير ؟...

وثبتت المربية ، مرة ثانية ، الشمعة في يد تسيجانوك ، وهي تساقط

الشمع والدموع على راحته ، فصاح بها جريجوري في خشونة :

— ضعي الشمعة على الأرض قرب رأسه ، ايتها الخرقاء !

— هذا صحيح !

— انزعوا عنه قبعته !

نزعنا المربية القبعة ، فضرب رأس ايفان الأرض محدثا صوتا اصم . واستدار رأسه اثر ذلك ، فازداد تدفق الدم من فمه ، لكن من جهة واحدة فحسب . واستمرت الحال هكذا زمنا طويلا مرعبا . ولم ادرك تماما ماذا حدث . . . توقعت ، بادىء ذي بدء ، ان تسيجانوك يأخذ قسطا من الراحة ، وانه لن يلبث وينهض ويبصق كراهية ، ويقول بنغمته المعتادة . نفو ! يا الحرارة ! كما اعتاد ان يقول دوما ، بعد ان يصحو من غفوة الظهر ايام الاحاد . ولكنه لم ينهض ، بل ظل مضطجعا هناك يذوي ويذوب شيئا فشيئا . . .

وانسحبت الشمس ، فقصرت شعاعاتها بحيث لم تبلغ ابعد من حفاف النافذة . واصبح لوجه ايفان ويديه لون شام ، وخمدت اصابعه عن الحركة ، وتوقف المزيد عن الانصباب من فمه ، بينما كانت ثلاث شمعات تشتعل حول رأسه تضئ شعاعاتها الذهبية كتل شعوره الازرق المسود ، وقمة انفه الضيقة ، واسنانه المسوغة بالدماء ، ثم ترمى بومضات متماوجة من انوارها فوق خديه الاسمرين .

واستمرت المربية تبكي الى جانبه وهى جائئة على قدميها ، وتهمس :

— آه ، ايتها الحمامة الصغيرة المسكينة ! لقد كنت عزاء حقيقيا !

كان الجو باردا مرعبا فارسا ، فتسللت واختبأت تحت الطاولة وساعتئذ دخل جدي المطبخ متثاقلا في فروته السوداء تتبعه جدتي في معطفها السميك المطرزة بإقنانه باذناب صغيرة ، ودخل معهما الخال ميخائيل ، والاطفال ، وعدة غرباء . . . ورمى جدي فروته على الأرض ، وصاح :

— يا لاولئك الاوغاد ! يصنعون هكذا بمثل هذا الفتى ! خمس سنوات اخرى وبصبح يساوي ثقله ذهبيا !

: وآخفت الثياب الملقاة على الارض ايفان عن ناظري . فوقفت ، وانسا
اسمى للحصول على موضع آخر ممتاز ، بين قدمي جدي ، فركنسي جانبا
وهو يهز قبضته الحمراء الصغيرة في وجه خالي :

— ايها الذئبان !

ثم ارتمى على الدكة واطبق باصابعه عليها في عنف ، وهو يفهم
ويجمجم في صوت اجثس :

— اوه ، انا اعرف — لقد كان شوكة في حلقكما ! آه ، يا ثانيا ، ايها
الولد الفتى ! ماذا نستطيع ان نعمل الان ؟ انسا اسالك ماذا نستطيع ان
نعمل ! ان الخيل غريبة ، واللجام مهتريء عتيق . . . انظري ، يا امه ، فكأن
الرب لم يعد يحبنا في هذه السنوات القليلة الاخيرة ! ليس كذلك ، يا ام ؟

فانطرحت جدتي على الارض بالقرب من ايفان تتحسس وجهه ،
ورأسه ، وصدره ، وتنفخ في عينيه ، وتمسك يديه وتفرکہها . . . فاطاحت في
اثناء ذلك بالشمعات كلها . ونهضت اخيرا على قدميها تشبه صورة سوداء
قائمة ، وثوبها الاسود يلمع ، وعيناها السوداء وان تقذفان شررا هائلا مخيفا ،
وهي تقول في صوت خفيض :

— اخرجوا من هنا ، يا ملاعين

فاختفى الجميع عدا جدي . . .

وثوى تسيجانوك ببساطة ، دون ان يسترعي ادنى انتباه . . .

٤

كنت اضطجع في سرير عريض ، ملنفا بلحاف ثقيل يحيط بي من كل
جانب ، اصغي الى جدتي تصلي . . . كانت تجثو على ركبتيهما ، وتضغط
صدرها باحدى يديها ، وترسم بالثانية — من وقت لآخر وبدون اي اسراع —
اشارة الصليب .

وكانت قرعة تكسر اللبد وراء النافذة تبلغ سمسمي ، ونور القمر

المخضر يرنو من خلال السجق المزركشة التي تغطي زجاج النافذة ، فيضيء
بأنواره المفسورية ذلك الوجه اللطيف بانفه البارز ، وعينيه السوداوين .
وكان غطاء الرأس الحريري الذي يخفي شعر جدتي بشع كالمعدن ، وثوبها
الاسود يتدلى عن كتفها بثنيات متبدلة تكومت على الارض تحف بها من كل
جانب .

وحين كانت تنتوي من تلاوة الصلاة ، تنضو عنها ثيابها في صمت
وتضعها بعناية على صندوق الملابس القائم في زاوية الغرفة ، ثم تقترب من
السريير ، فأتظاهر بالنوم . . وتقول بهدوء :

— كفاك تصنعا ، ايها المخبيث الصغير ! انتم لست بنائم ! ليس الان،
اليس كذلك ايها الطير الصغير ؟ هيا ، دعنا نصيب شيئا من هذا اللحاف .
كنت ادرك ما سيتبع ذلك ، ولذا لا استطيع الامتناع عن الابتسام . .
وتصيح :

— آه ، انك تود ان تعمل من جدتك ملهاة ، اليس كذلك ؟

وتمسك بحافة اللحاف وتشده اليها بقوة ومهارة عظيمنتين بحيث ارتفع
كالصاروخ في الهواء ، وانا ادور حول نفسي . ثم أعود ثانية الى السريير
الريشي ، في حين تنفجر هي في عاصفة من الضحك :

— خذها ، ايها الجني الصغير ! انك تستحقها !

كانت تصلي طويلا في بعض الاحيان ، فأنام دون ان انتبه اليها عندما
ترد السريير . . .

كانت أيام المتاعب والشجار والقتال تنتهي دوما في مثل هذه الصلوات
الطيبة ، فكانت أصغي بانتباه واهتمام الى جدتي تحدث الرب بكل تفاصيل
حوادث النهار . كانت تجثو كالهرم ، وتبدأ صلاتها بهمس سريع مبهم ، يعلو
شيئا فشيئا حتى يصبح دمدمة عميقة :

— انت تعرف ، يا الله ، ان كل انسان يسمى وراء مصلحنه الخاصة،
وذلك امر طبيعي جدا . ان ميخائيل الان هو ولدي البكر ، فعليه يقع اذن

واجب البقاء في البلدة هنا - وانها لاساءة اليه ان يبعث به عبر النهر الى مكان جديد لم يختبره أحد من قبل ، وليس من يدري كيف يمكن ان يخرج منه . ولكن الاب يفضل ياكوف عليه . أمن المعدل ان يحب الاب اولاده بصورة غير متساوية ؟ انه خلوق عنيد ، ذلك المعجوز ! وانك لتعملل خيرا ان وهبته بعض العقل ، يا الهي !

كانت تشخص الى الايقونات المظلمة الدامسة بعينيها الواسعتين البرائتين ، وهي تتابع تقديم نصائحها لالاها الذي تعبده .

- هلا جعلته يحلم حلما طيبا ، يا الهي ، فتعلمه كيف يقسم حبه بين ولديه بصورة متساوية عادلة !

وكانت ترسم اشارة الصليب ، ثم تنحني حتى تمس جبهتها العريضة السجادة ، ومن ثم تعاود كلامها باقتناع ، وهي تنهض :

- ولم لا ترسل من لدنك لفارفارا قليلا من الفرح ؟ ماذا فعلت حتى تغضب عليها ، يا الهي ؟ اهي اسوا من الاخرين ؟ ومن سمع عن امرأة صبية قوية تعيش في مثل هذا البيؤس ؟ وثم جريجوري يا الهي - احفظ له عينيته اللتين تسوءان يوما بعد يوم . فان هو امسى فاقد النظر ، فماذا يتبقى له سوى المتسول في الطرقات ؟ وهل يكون ذلك من المعدل في شيء ؟ هو الذي يمني قوته كلها في اعمال ذلك الجد . . . ولكن ، هل يساعده الجد ان فقد النظر ؟ . . . آه يا الهي ، يا الهي العزيز !

ثم تظل صامتة برهة طويلة ، وقد احننت رأسها ، وارخت ذراعيها وكأنها غرقت في النوم ، او تصلبت اطرافها وتجمدت . . . وتقول أخيرا ، وهي ترف بجفنيها :

- وماذا ايضا ؟ كن رحوما بكل الاتقياء ! وسامحنسي ، انسا الحمقاء الملعونة ! أنت تعرف جيدا انني اذا ارتكبت الخطيئة فمن حماقة ، وليس عن خبث وتعمد للشر .

ثم تند عنها تنهدة عميقة ، وتقول بقناعة لطيفة :

— ولكن ، ليس هناك شيء يخفي عليك ، يا الهي العزيز ! فأنت تعرف كل شيء ، أيها الاب المجد !

كنت مولما جدا باله جدتي ، هذا الذي يبدو قريبا وعزيزا لديها . . . وكنت أقول لها :

— حدثيني عن الله . . .

كانت لها طريقة خاصة في التحدث عنه ، فتجلس ، وتغلق عينيها ، وتتحدث بصوت مخفوض ، وهي تتفوه بكلماتها بغرابة فائقة . وما زلت أذكر ، حتى الآن ، كيف كانت تستعد لذلك ، فتقتعد السرير ، وترمي بمنديل على رأسها ، وتأخذ بنسج قصتها الخيالية حتى ابخبخ في النوم :

— ان الله يجلس هناك فوق هضبة عالية ، محوطا بجنان الفردوس . . . انه يقعد على عرش من الياقوت تحت أشجار الصنصاف الفضية ، أشجار نظل مزهرة طوال السنة ، لانه ليس في الفردوس شتاء ، ولا خريف ، بل تبقى الورد مبرعمة دوما على مر السنين ، تجلب الغبطة لاتقياء السماء . وحول الرب يطير حشد من الملائكة — يحومون كحطع كثيفة من الثلج ، أو كجماعات من النحل — بل قل انها أسراب من الحمام الأبيض تطير من السماء الى الأرض ، ثم تعود من الأرض الى السماء لتحدث الله عنا ، نحن المخلوقات التي تعيش في العالم الاسفل . . . أن لكل منا ملاكه الخاص — تلك ملاك ، ولي ملاكي ، ولجداك ملاكه — لان الله سواء بالنسبة الى جميع مخلوقاته . . . يأتي ملاكك مثلا الى الرب ، ويقول له :

« ان الكسي أخرج لسانه لجده .

« وعندئذ يصدر الرب أوامره :

« — فليجلده الرجل الشيخ اذن !

« وهذا ما يحصل لكل فرد ولكل شيء دون تفريق . . . كل ينال حسب ما يستحق — التعاسة للبعض ، والفرح للآخرين . وكل هذا يحدث بشكل رائع بحيث تأخذ الملائكة تصفق باجنحتها بسرور ، وهي ترتل دوما :

« المجد لك يا الله ، المجد لك في العلا !

« بينما يتطلع الله حوله ، وهو يبتسم ، وكأنه يقول :

« — حسنا ، تابعي انشادك أيتها الملائكة الجميلة ما دام ذلك يسرك !» .

وتبتسم جدتي ، وهي تهز رأسها ...

— أرايت هذا كله ؟

فتجيب مؤكدة :

— كلا ، انا لم أره . ولكنني اعرفه ...

كانت ، كلما تحدثت عن الله والفردوس والملائكة ، تغدو صغيرة أنيسة ، يفقد وجهها آثار الشيخوخة ، وتلتمع عيناها النديتان بنور دائم خاص ، فأتناول ضفائرها الثقيلة والرف بها عنقي ، وأنا أجلس دون حراك ، يرقص قلبي طربا لتلك الاقاصيص التي لا اشبع منها أبدا .

— لقد حرم على الفانيين رؤية وجه الله — كيلا يصابوا بالعمى ...
والقديسون وحدهم يستطيعون ان يروا اليه بعيون مفتوحة . ولكنني رأيت الملائكة ، فهم يظهرون للانسان الطاهر القلب . لقد كنت في الكنيسة أحضر خدمة الصباح ، فرأيت اثنين من الملائكة في الهيكل — كانا يشبهان الضباب — تستطيع ان ترى كل شيء من خلالهما ، يلمعان كالبرق ، واجنحتهما تبلغ الأرض ، كلها دنتلة وحرير . وراحا يدوران حول المذبح يساعدان الاب المعجوز ايليا ، فاذا أراد رفع ساعديه المتعبين للصلاة أسرع لمعونته وسندا مرفقته . كان شبحا ضريبا ، حتى ليتعثر بكل شيء ، ثم مات بعد ذلك بزمن قصير . ولقد اغتبطت كثيرا برؤيتي لهما حتى صمعت من الفرح ، وآلني قلبي كثيرا ، وتخلصت عيناى بالدموع ... أه ، كم كان ذلك رائعا ! لكم هو جميل أيضا كل شيء هنا على الأرض !

— حتى هنا ، في بيتنا هذا ؟

فأجابت جدتي ، وهم ، ترسم اشارة الصليب :

— نعم ، في كل مكان ! المجد للعذراء المتول !

حزني ذلك الجواب ، وادهشني ، وصعب علي ، جدا ان افهم كيف يسير كل شيء على ما يرام في بيتنا ، حيث تزداد العلاقات سوءا وتوترأ يوما بعد يوم .

وانا اذكر اننى مررت بالقرب من باب غرفة خالي ميخائيل ، وكان مفتوحا ، فرأيت الخالة ناتاليا ، مجللة بالبياض ، تدور في الغرفة وقد ضمت

يديها بقوة الى صدرها ، وهي تهتف بصوت مخفوض يبعث على الخوف
والرهبة :

أواه يا الهي خلصني من هنا خذني اليك

ولقد فهمت ما تريد بصلاتها ، كما أنهم جريجوري عندما يغتم :

— سامضي وانتسول عندما أصبح أعمى . وساكون عندئذ أفضل مني
هنا !

كنت أود أن يصبح أعمى في اقرب وقت حتى أضحي دليله ، فذهب معا
لنجوم العالم ، نتسول لتعيش ونحيا . ولقد افضيت له ذات يوم بأمنيته
هذه ، فسحك في لحيته وقال :

— حسنا ، سنذهب معا . وسأصرخ في الشوارع بحيث يسمعي جميع
الناس : هذا هو حفيد فاسيلي كاشرين ، صاحب معامل الصناعات وسيكون
ذلك مضحكا ، ابيه ؟

وكثيرا ما لاحظت تورما في شفتي العمى ناتاليا ، وعلامة سوداء وزرقاء
تعلو وجهها الاصفر اللون . فسألت جدتي مرة :

— ترى ايضربها خالسي ؟

فاجابت ، وهي تتنهد :

— انه يفعل ذلك خفية ، لعنة الله عليه ! لقد منعه جدك عن ذلك ،
ولذا فهو يضربها ليلا . انه شرير ، وهي جبانة .

ثم تتابع الحديث ، متحمسة لغصتها :

— ولكنهم لا يضربون في هذه الايام كما اعتادوا ان يفعلوا في الماضي .
لقد غدا الناس اليوم اقل منهم وحشية بالامس ! نعم ، انهم يضربون في بعض
الاصيان على الاسنان ، او الاذان ، او الراس ، مدة دقيقة او دقيقتين ،
وهذا كل شيء . . . ولكنهم كانوا قليلا يعذبون ضحيتهم طوال ساعات
كاملة ! لقد ضربني جدك مرقا ، في اليوم الاول من الفصح ، منذ صلاة الصباح
الباكرة حتى غروب الشمس — كان يضربني ، وياخذ قسطا من الراحة ، ثم
يعود الى الضرب ثانية . . وكان يضربني بلجام الغرس ، او بالحبال ، او بأي
شيء اخر يقع في متناول يده .

— ولم ذلك ؟

— لا أستطيع أن أتذكر الآن . لقد ضربني مرة حتى أمسيت نصف ميتة ، ثم حرمني من الطعام خمسة أيام — وبأعجوبة نجوت من الموت في تلك المرة .
ومرة أخرى ...

أذهلتني هذه الوقائع ، فان جدتي تكبر زوجها مرتين حجما ، ولم أستطع أن أتصور كيف يتغلب عليها ... سألت :

— أهو أقوى منك كثيرا ؟

— كلا ، ليس أقوى ! بل اكبر سنا ! والى جانب ذلك فهو زوجي !
وقد أراد الله أن يتكفل بي ، وأرادني على تحمل ذلك .

كنت أحب أن أراقبها تمسح الغبار عن الايقونات وتنظف ثيابها .
كانت أيقوناتنا متقنة الصنع ، غالية ، مزخرفة باللاليء والاحجار الكريمة ،
ومرسعة بالفضة . وكانت جدتي تقبض عليها بأصابع ماهرة ، وتغمغم وهي
ترسم اشارة الصليب وتقبل الصور :

— يا لها من وجوه حلوة ! كيف يمكن للغبار والأتربة ان تغطيها ؟ يا أم
الإله الكثيرة الحنان ، الفائقة البركات المجيدة ، يا منبع الغبطة التي لا توصف !
أنظر هنا فقط ، لكم هو جميل هذا الرسم ، يا اليوشا ، يا حمامتي الحبيبة !
أنها وجوه لطيفة ، ولكل ميزاته الخاصة ... فهذا يدعى « العيد الاثني
عشرى » ، وهذه « فيودورفسكيا » تقف في الوسط — انها سيدهة لطيفة
وهذه « لا تبكي يا امه بالقرب من قبري ! » .

كان يخبئ الي ، في كثير من الاحايين ، انها تلعب بالايقونات بجد
وسذاجة ، تماما كما كانت تفعل ابنة خالي الصغيرة كاترينا بدمياتها
الناعمة ..

وكثيرا ما كانت ترى بعض الشياطين ، أن افرادا أو جماعات ...

— حدث ذلك في احدى الامسيات اثناء الصيام الكبير ، وأنا أقطع
الدرب قرب منزل آل رودولف — كان كل شيء يلمع في ضوء القمر .. وعلى

حين غرة ، بصرت بشيطان يتسلق المسطح بالقرب من المدخنة . كان كبيرا خشنا ، وقد دلى قرنيه داخل المدخنة ، وهو يتنشق وينفخ بمنخريه ، ويضرب بذيله على المسطح ، ويحاول ان يخفي أذنيه الكبيرتين ، فرسمت اشاره الصليب ، وقلت : « سينهض المسيح ثانية ليميت أعداءه جميعا ! » فصرخ فجأة بصوت عال ، ثم تدرج حتى الساحة ، لقد قتله ذكر المسيح ! ومما لا ريب فيه ان عائلة رودولف لم تلتزم الصيام ذلك النهار ، فكان الشيطان يستنشق رائحة الطعام المطبوخ مغتبطا . . .

راقت لي صورة الشيطان يتشقلب حتى الساحة فانفجرت ضاحكا . . . وضحكت جدتي بدورها ، وتابعت :

— وانهم ليجبون ، مع ذلك ، اللهو واللعب ، فهم أشبه بالاطفال الصغار تماما ، خبثا ، يتعشقون المداعبة . وقد حدث ذات ليلة ، وأنا أغسل في حمام المنزل ، والساعة تقارب منتصف الليل ، أن فتح باب الموقد بغثة وخرجت الشياطين منه — صفارا أقراما — بعضهم أحمر اللون ، وبعضهم خضر ، وبعضهم اسود كالصراير . . . فركضت ابغي الباب ، ولكنهم لم يتركوني اجتازه ، فقد سدوا الطريق علي ! وهكذا أصبحت حبيسة مع اولئك الشياطين ، وكانوا يعدون بالملايين ، يملأون غرفة الحمام — متراكمين تحت قدمي ، وفوق ساقي ، يقرصونني ، يعضونني ، ويلدغونني ، حتى لم اعد استطيع ان ارسم اشارة الصليب لارغمهم على الهرب . لقد كانوا ناعمين دافئين ، يغطيهم وبر طويل ، يشبهون في ذلك القطط الصغيرة ، يقفزون دوما على أرجلهم الخلفية ، يدورون ويتقلبون على الارض ، ويكثرون عن اسنانهم الشبيهة بأسنان الفيران ، تومض أعينهم الصغيرة الخضر ، وهم يهزون رؤوسهم حيث برزت قرونها ، ويهزون أذنانهم الصغيرة الشبيهة بأذنان الخنازير . . . يا الهي ، أية ساعة قضيتها يومذاك ! لقد فقدت نعم فقدت شعوري ! وعندما استعدت صوابي كانت الشمعة قد احترقت كلها تقريبا ، والمياه قد بردت ، والثياب المغسولة ملقاة على الارض . فقلت في نفسي : « تفو ! . . أخذك الطاعون ، أيتها الشياطين اللعينة ! » .

واغمضت عيني ، فاستطعت ان أرى الى باب الموقد ذي الحجارة

الرمادية اللون يفتح ، ويتدحرج منه سيل من الشياطين يتقلبون على الارض
ويملأون غرفة الحمام ، ينفخون على الشمعة ، ويمدون السننهم الحمراء
الوسخة . كان ذلك مسلا ومرعبا في وقت واحد .

حككت جدتي راسها ، وظلت صامنة برهة ، حتى استولت عيها حمى
جديدة من الخيال :

— ولقد شاهدت ايضا بعض الذين حلت عليهم اللعنة . كان ذلك في
نيله شتائية شديدة الاعصار ، وانا اجتاز خندق عائلة دوكوف ، حيث اراد
خلاك ميخائيل وياكوف ، كما اخبرتك مرة ، ان يرميا والدك الى الماء من موهة
في الجليد ، كنت ، اذن ، ذاهبة الى هناك ، وانا اقتطع المرر المفضي الى قاع
الخندق ، فاذا بي اسمع فجأة صوت صغير وصراخ حاد ، ! فتطلعت ،
فلقيت عربة صغيرة تجرها عدة جياد سوداء تعدو في اتجاهي ، وقف
سائقها — وهو شيطان صغير مدور الجسم يلبس قبة حمراء — على كرسيه
ملدا ذراعيه ، وراح يسوق الخيول التي يربط لجامها بمعدة سلاسل صغيرة
بدلا من العنان . ولما لم تستطع الخيول ان تمر عبر الخندق ، اخذت طريق
البحيرة مثيرة سحابة من الثلج وراءها . . . وكان ركاب العربة من
الشياطين ايضا ، يصفرون ، ويصيحون ، ويلوحون بقبعاتهم . . . وقد مرت
بالقرب مني سبع عربات تسرع كالقطار ، وخبولها سوداء فاحمة كالليل ،
وجميع الذين تحملهم قوم ملعونون من ابائهم وامهاتهم ! ان هؤلاء القوم
غنيمة باردة للشيطان ، فقتس عنهم ، واركبهم تلك العربات ، وسار بهم
اثناء الليل ليشاركهم في احتفالاته . . . اظن اني شاهدت عرسا للشياطين في
ذلك المساء . . .

كانت جدتي تتحدث ببساطة واقناع بحيث يسحيل عدم تصديقها . . .
ولكنها كانت تتجلى خاصة في القصائد التي تحفظها عن العذراء الطاهرة ،
والتي تروي كيف سارت ام الاله فوق الطريق الشائكة في هذا العالم لتحد
« الاميرة اللصة » ، نيجاليسفا وتردعها عن السرقة وقتل الروسيين . وكانت
تنشد ايضا شعرا عن « الكسي رجل الله » وعن « ايفان المحارب » ، وتروي
قصصا عن « الحكيمة فاسيليا » ، وعن « الكاهن تيس الماعز » ، وعن
« ربيب الله » ، وخرافات مخوفة عن « مارغا بوسادنيثري » ، وعن

« بابا أسطه » زعيم اللصوص ، وعن « مريم » الخاطئة المصرية ، وعن
حزن والدة اللص « ! . لقد كانت مؤونتها من التصص والخرافات والشعر
لا تنضب البتة ولا ينقطع لها اوار ...

لم تكن تخاف من الناس ، بما فيهم جدي ، او الشياطين ، او اي سحر
اسود آخر ... لكنها كانت تخاف الصراصير الى حد غريب ، تتجنب وجودها
حتى عن بعد بعيد .. وكانت تبعثني بن النوم ، في اغلب الاحيان ، في منتصف
الليل ، وتهمس في اذني :

— يا عزيزي اليوشا ، هناك صراصير سرح ! اقتله ، حبا بالمسيح !

فكنت اشعل الشمعة ، وانا نصف مستيقظ ، وادب على الارض ، على
اربع ، اغتشي عن ذلك العدو اللدود . ولكن محاولاتي لم تكن تنجح دوما ،
فاقول لها :

— لم اجد شيئا !

فتروح تلك حيث تضطجع دون حراك ، ثم تغمر رأسها باللحاف :

— اوه ، نعم انه موجود ! تابع صيدك ، ارجوك ! انه هناك ، انا
اعرف ذلك ؟ ...

كانت على حق دائما ، اذ اقع على احد الصراصير تجول بعدا عن
السريير :

— اقتله ! اقتله ؟ آه ، شكرا لله !، وشكرا لك ، يا غرامي !

كانت تقول ذلك ، وترمي اللحاف عن رأسها ، وهي تبتمس ابتساما
السعادة والغبطة . اما اذا اخفقت في العثور على الصرصار ، فهي لا تذوق
اذن طمعا للنوم على الاطلاق .

كنت احس جسدها يرتعش بوضوح في سكون الليل وهداته ، واسمع
الى همسها وهي تتنفس بضعف ووهن :

— انه هناك ، قرب الباب ... هو الان تحت الصندوق ...

— لم تخافين من المصراير ؟

فتقول ، في جوابها ما يكفي من الاقتناع :

— واية فائدة لها ؟ انها تهيم هنا وهناك في الغرفة . هذه الشياطين السود ، وهذا كل شيء ! لقد اعطى الله ، حتى لادنى مخلوقاته ، هدفا في الحياة . فالخنفساء تدل على أن في البيت رطوبة ، والبق يبرهن على وساخة الجدران ، واذا ما عثرت على قملة في ثيابك فهذا يعني أنك ستقع مريضا . كل هذا واضح ، اما هي — فمن يستطيع ان يخبرني ما هي فائدتها ، وأي حق لها في الحياة ؟

• • •

حدث ذات ليلة ، بينما جدتي جاثية على ركبتها ، مشتركة مع الله في حديث جماسي ، ان دفع جدي الباب على مصراعيه ، وصاح بصوت اجش :

— هيا يا اماء ، انه امتقاد من الله ! هيا ! .. اننا نحترق !

— فصاحت ، وهي تناضل للوقوف على قدميها :

— ماذا ؟

— وأندفعت وجدي يصخبان في ظلمة الرواق الفسيح . . .

— شرعت تصدر اوامرها بصوت عال رزين :

— انزلي الايقونات ، يا يهجينيا ! وانت يا ناتاليا ، البسي الاطفال ثيابهم !

— وبكى جدي ، وطلق ينوح :

— آه — ه — ه — ه . . .

فركضت حتى المطبخ . . . كانت النوافذ المطلة على الساحة تلتهمع كالذهب ، وبقع صفر تتدحرج على الارض وتسيل ، والخال ياكوف يدفع بقدميه الحافيتين في حذائه ، ويقفز عاليا كأن تلك البقع تحرق نعليه . . صاح :

— آه ، وان ميخائيل قد اضرم النار . لقد شغلنا بها وهرب . . .
فدفعته جدتي خارج الباب حتى كاد يسقط على الارض ، وقالت :
— صه ، ايها الوغد ؟

كنت استطيع ان ارى ، من خلال الجليد الذي يغطي زجاج النوافذ ،
الى المعمل وهو يحترق ، والى المسنة النيران تنطلق من خلال الباب المفتوح
على المصراعين . وهذه شهب حمر من النار تلتصق ، وهي تبعث دخانها
الاسود في ذلك الليل الساكن فيجتمع غيوما تعلو وتعلو في الفضاء ، دون ان
تعكر آثار « درب التبان » الفضي . وهذا الثلج يتورد بانعكاس الشعاعات
الارجوانية عليه ، وجدران المنزل تهتز وتترنح فكأنها تسمى مبتهجة الى زاوية
المساحة حيث تلعب النار ، فتضيء بالحمرة الشقوق العريضة القائمة في
جدران المعمل ، وتدفع بالسنتها اللامعة الملتوية من خلالها . وهذه شرائط
حمر ذهبية تنزلق بسرعة فوق اخشاب السقف الجافة ، تضع بينها المدخنة
الضيقة المصنوعة من الصلصال وهي تصب في الجو ينبوعا رفيعا من الدخان ،
وطبقة ناعمة لطفة ، اشبه باحتكاك الحرير ، تند عن زجاج النافذة . وقد
شرعت النار تشتد ، وراح رونقها يضيف على المعمل جمالا يجعله اشبه
بالايونسطاس في الكنائس ، فيجذبني اليه بقوة لم استطع مقاومة لاغرائها
وفتونها .

رميت معطفا سميكا من جلد الماعز فوق رأسي ، ولبست اول حذاء
وثقت عليه ، ثم اسرعت في الممر حتى عتبة الباب حيث وقفت مذهولا —
وقد غشى بصري لهيب النيران ، وصم سمعي صوت تأججهما ، وصيحات
جدي ، وخالي ، وجريجوري . . . وارتعت من تصرف جدتي ، اذ لفت بكيس
فارغ على رأسها ، ولفت نفسها بحرام سميك نكسو به الخيل عادة ،
واندفعت داخل المعمل المتأثر وهي تصيح وتزعق :

— حامض الكبريت ، ايها الحمقى ! ان حامض الكبريت سيلتهب !

وصاح جدي :

— اوقفها ، يا جريجوري ! اوه ، لقد قضى عليها ! . .

ولكن جدتي رجعت سريعا ، والدخان ينمقد فوق رأسها ، وقد انحنت
تحت ثقل اناء حامض الكبريت الكبير . وصاحت بصوت اجش ، وهي تسعل :
— اخرجوا الحصان ، يا ابتاه ! واسحبوا هذا الشيء عني — الا
ترون انني احترق ؟

فانتزع جريجوري حرام الحصان المحترق عن كتفيها ، ثم أختطف معولا زانحني يهشم الكمية الضخمة من الجليد المتراكمة على باب المعمل ، ويلقي بها في جوف النار ، وخالي يقفز حواليه وفي يديه فأس كبيرة . وانطلق جدي في اعقاب جدتي يرميها بالثلج ، وهي تدفن اثناء حامض الكبريت في كومة من الجليد . وعندما انتهت ، اسرعت تفتتح بوابة الساحة . . . وصاحت هناك ، وهي تنحني للناس الذين قدموا اليها يركضون :

— انقذوا مخزن الغلال ، ايها الجيرة ! ان النار ستمتد حتى مخزن الغلال ومخزن العشب المجفف — ان ما بنيناه سيحترق عن آخره . وسيجيء دوركم بعدنا . انزعوا السقف وارموا الاعشاب داخل الحديقة ! وانت يا جريجوري ، انثر الثلج عاليا — فاي نفع فيه على الارض ؟ وانت ياياكوف ، كفك ركضا ، اعط القوم معاول وفؤوسا ! ايها القوم الطيبون ، ساعدونا ، وليكن الله معكم !

كانت جدتي وقد اضاعتها شمعات اللهب التي تلوح امامها ، نتجول كخيال اسود في الساحة ، فهبي في كل مكان في تلاحظ كل شيء وتصدر اوامرها للجميع على حد سواء .

وركض نزارب داخل الساحة ، ثم شب على قائمته الخلفيتين ، فطرح جدي بقدميه على الارض ، كانت عيناه المدورتان تشعان حمرة بانعكاس لهيب النيران فيهما . وراح يقفز ، وهو ينفخ بمنخريه ، ويحرن ، ويشب قلمي عنف حتى افلت له جدي اللجام وابتعد عنه هاربا ، وهو يصيح :

— امسكيه ، يا انااه !

فهرمت جدتي بنفسها تحت قوائم ذلك الحصان الجامح ووقف دون حراك ، وقد فتحت له ذراعيها . فسهل الحصان متألما وهدا ، وهو يرنو بنظرات مسترمة الى النار الداخنة . قالت جدتي في صوت عميق ، وهي تربعت على رقبته وتأخذ اللجام بكلتا يديها :

— لا تخف ! اتخلى عنك في مثل هذه اللحظة الرهيبة ؟ انست ، ايها الفأر الصغير الطائش ؟

فراح ذلك الفأر الذي يكبرها بثلاث مرات يتبعها بلطف وخنوع حتى

البوابة ، وهو بصهل كلما تطلع الى وجهها المتورد .

وخرجت المريية يفجينا مع الاطفال من المنزل ... كانوا ، جميعا ،
مدثرين بالاحرمة يدمدمون باثياء غير مفهومة ... صاحت :

— اني لم استطع العثور على الكسي ، يا فاسيلي فاسيليفيتش !

فأختبأت تحت درجات الباب حتى لا تحملني بعيدا مع الاخرين ، في حين
صاح جدي بها :

— دعينا ، دعينا !

وانهار ستمف المعمل مخلفا مكانه عاصفة من الدخان استمرت زما
طويلا تنطلق باستقامة نحو السماء . وجاءنا من داخل البناء انفجار من النار
احمر اللون ، تبعه آختر اخضر ، وثمة آخر ازرق ، اندلعت جميعا من
الساحة في اتجاه جهرة القوم الذين يحاولون اطفاء ذلك اللهب الهائل بنثرهم
الثلج عليه . وشرعت الاحواض تغلي نائرة وتفور ، وهي تبعث بسحب من
الدخان والابخرة فتملأ الساحة برائحة غريبة ، وتجعل الدموع تترقرق في
العيون .

خرجت من حيث اختبأت وارتيبت بالقرب من قدمي جدي ، فصاحت :

— امض من هنا ! والا دهسوك ! ابتعد ...

ودلف الى الساحة خيال يلبس خوذة معدنية واسعة ، يعلو الزيد نم
حصانه الاشقر ، وطلق بلوح بسوطه ويزعق متوعدا :

— افسحوا الطريق !

وارتفع رنين اجراس صغيرة عديدة تدق مبتهجة ... كان كل شيء
جميلا ومسليا كما في ايام الاعياد والانراح ... ودفعني جدي من سرب
الباب ، قائلة :

— الم تسمعي ؟ قلت لك امض من هنا !

كان يستحيل ان اعصيها في مثل تلك اللحظة . رجعت الى المطبخ ،
وجلست الى النافذة مرة ثانية . ولكن تلك الجموع السود من الناس كانت
تختفي احيانا ، وحيانا تخفي على مسرح النار فلا استطيع ان ارى الالمان
الخوذ المعدنية وهي تثبتل بين تلك القبعات الشتائية السوداء .

أخمدت النيران سريعا بحصرها في منطقة واحدة وصب الماء عليها .
وفرقت الشرطه الجماهير المزدحمة . وعندما انتهى كل شيء رجعت
جدتي ادراجها الى المطبخ ...
— من هناك ؟ انت ؟ الم تنم ؟ هل انت خائف ؟ لا تخف ! لقد انتهى
كل شيء الان !

جلست بجانبى تتأرجح الى الامام والخلف دون ان تنطق بحرف واحد .
كنت سعيدا بان يستعيد الليل هدوءه وظلمته . ولكنني كنت ، في ذات الوقت ،
أسف على خسارتي مشهد النار ..

وظهر جدي على العتبة :

— امه ؟

— ماذا ؟

— هل احترقت ؟

— لا شيء يذكر ...

اشعل عود كبريت ، فاضاء لهبه الازرق وجهه السنجابي اللطيف
بالدخان . واشعل الشمعة الموضوعة على الطاولة ، ثم قبع بالقرب من
جدتي . قالت :

— يجب ان تفتسأ !

كانت مغطاة هي الاخرى بطبقة كثيفة من الهباب ..

وتنهذ جدي :

— ما اعظم رحمة الله اذ وهبك كل هذا الذكاء !

ضربها بلطف على كتفها ، وازاف وقد انفرجت اسارير وجهه :

— اعني انه يهبك اياه للحظات قصيرة ، وفي نوبات متباعدة . ولكنه
يرسله على اية حال ! ...

مضحكت جدتي بدورها وارادت ان تقول شيئا لكن جدي قطب وجهه ،
وتابع :

— يجب ان نتخلص من جريجوري ، فكل ما حدث كان بسبب اهماله .
ان هذا الموجيك لم يعد يصلح لشيء . اليك ياكوف الذي يبكي عند العتبة .
يا له من احق ! يحسن جدا ان تخرجي اليه . . .

فنهضت وخرجت . . . وقد رفعت يديها تنفخ على اصابعها ! . . .

سال جدي ، دون ان يتكلف التطلع الي :

— ارايت الحريق منذ بدايته ؟ حسنا ، ما رايك بجذتك هذه ؟ لا تنس
انها امرأة عجوز . . . محطمة . . . منهارة . . . ان في هذا للدرسا لك ،
وللجميع ايضا — تفو !

وانطوى على نفسه ، وظل صامتا بعض الوقت . ثم نهض واقفا ،
واطفأ لهيب الشمعة باصابعه ، وهو يسال :

— اخفت ؟

— كلا !

— حسنا ، فلم يكن هناك ما يستوجب الخوف .

ونزع عنه قميصه بحركة ساخطة ، ومضى الى المغسلة الموضوعه في
زاوية المطبخ ، وضرب الارض بقدميه وصاح :

— الحريق ! تلك حماقة كبرى وربي ! والذي يحدث حريق في بيته
يجب ان يجلد في الساحة العامة كمجنون او لص ! هذا ما يجب ان يفعلوه
مع مثل هؤلاء الناس ، وحينئذ يمتنع الحريق تماما ! . . . عد الى سريرك ،
فما بقاؤك هنا ؟

اطمعت امره ، ولكن النوم هرب عن جفني في تلك الليلة . ولم اكذ ازحف
الى السرير حتى رددت الي الحباة بصراخ لا انساني . فركضت ، مرة ثانية ، عائدا
الى المطبخ ، حيث وجدته واقفا في وسطه وقد خلع قميصه ، وحمل شمعة
مرتجفه الشعلة ، وهو ينقل قدميه دون ان يتحرك من مكانه قيد انملة .

قال لاهتا :

— اماه . ياكوف ، ما هذا ؟ ماذا جرى ؟

فقفزت فوق الموقد ، وتكورت في زاويته . ومرة ثانية عاد كل شيء الى
ما كان عليه من بلبله واضطراب اثناء اشتعال النار . وكان العويل يصطدم

بامواج منتظمة على الجدران والسقف ، وهو يزداد ارتفاعا ولجاجة ...
وراح جدي وخالي يركضان هنا وهناك كالمجانين ، وجدتي تطردهما خارج
المطبخ وجريجوري يحدث ضجة صاخبة بالاخشاب التي يلقيها في الموقد . ثم
راح يملأ بعض الغلايات بالماء وهو يهز رأسه كاحد جمال استراخان .

امرت جدتي :

— اشعل النار اولاً !

فتسلق جريجوري الموقد بلطف ، فوقع بصره على قدمي ، فاذا به يصيح
مرتاعاً :

— من هناك ؟ تدو ، لقد ملأتني رعباً ! أنت تنطرح دائماً حيث لا حاجة
اليك على الاطلاق .

— ماذا هناك ؟

فاجاب بهدوء ، وهو يرجع الى الارض :

— ان الخالة ناتاليا تلد !

فتذكرت ان والدتي لم تصرخ هكذا يوم وضعت . وحين رفع جريجوري
الغلايات على الموقد ، تسلفه حتى صاقتني ، ثم اخرج من جيبه غليوناً من
الخزف . قال ، وهو يريني الغليرون :

— لقد بدأت ادخن لان في ذلك شفاء لعيني ، وجدتك تنصحنسي ان
استعمل المعوط ، ولكنني اعتقد ان التدخين احسن وافضل ...

جلس ، وقدماه مدليتان فوق حافة الموقد ، يشخص الى ضوء الشمعة
الخافت ، وقد تلوئت اذناه وخذاه بالدخان الاسود ، وتمزق قميصه ، بحيث
رايت الى اضلاعه وهي تبرز وتغور ، وتشققت احدى زجاجتي نظارته
السوداء وسقطت منها قطعة كبيرة ، فتركت فرجة يستطيع المرء ان يرى منها
الى عينه الحمراء التي تبدو كجرح مفتوح يدمي .

وملاً غليونه بورق التبغ ، وراح يستمع الى انين تلك المرأة الماخض ،
وهو يتمتم لنفسه كما لم يكن ثملاً :

— يبدو ان النصار نالت جدتك على اية حال . ترى ، كيف ستدبر امر
توليد خالتك ؟ قل لي ، هل سمعت كيف قضت خالتك نهارها ؟ لقد نسوها

تماما لقد شرعت في الاتين منذ بدء الحريق ، وقد أوجعها الخسوف كثيرا . . .
انظر فقط كم يصعب حمل مخلوق جديد الى هذا العالم ! ومع ذلك ، فان احدا
لم يلق بالا الى تلك المرأة . ان المراقبة يجب ان تحترم في فوي ام ، وهذه هي
الحقيقة ، فلا تنسها أبدا .

غفوت برهة من الزمن ايقظني بعدها صرير الباب ، وصيحات الخال
ميخائيل السكران الملتخ ، ثم صوت جلبة عامة شاملة . . . وتناهت الى
سمعي كلمات غريبة منها :

— يجب ان تفتح الابواب الملوكية في الكنيسة . . .

— اعطها بعض زيت الايقونة والروم ، واخلطهما بالهباب : نصف قدح
من الزيت ، ونصف قدح من الروم ، وملعقة من الهباب . . .
وتابع الخال ميخائيل صيحاته :

— اريد ان القي عليها نظرة . . .

كان جالسا على الارض يبصق امامه وقد مد رجليه المنفرجتين ، وراح
يضربهما بكلتا يديه . واصبحت الحرارة لا تطاق على الموقد ، فأسرعت
بالهبوط عنه . ولكني لم اكد اقترب من خالي حتى لبطني بقدمه فأوقعتني
على الارض ، واصطدم رأسي بها . . . صرخت :

— احمق !

فوثب على قدميه ، واختطفني ، ثم أرجعني في الهواء وهو يغتمم :

— سأحطمك على الموقد !

وعندما استعدت صوابي كانت مضطجعا على ركبتي جدي في الصالون
الكبير . كان قابعا في زاوية الايقونات ، بهدهدي الى الامام والخلف ، وعيناه
مثبتتان في السقف ، وهو يجمجم :

— لن ينال احدا منا المغفرة ، ولا واحدا أبدا . . .

كان لهيب الايقونات بحرق بقوة فوق رأسه ، وفي وسط الغرفة ، على
الطاولة ، شمعة مضاءة . . . وهناك صباح شتائي مكنه - ير يطل علينا من
النافذة .

سألني جدي ، وهو يحنو علي :

— ماذا يؤلسك ؟

كان كل شيء في يؤلني ، فرأسي مبلول ، وجسدي يشبه الرصاص وزنا . ولكني لم أرغب في التحدث عن ذلك . كان كل ما يحيط بي غريباً غير معهود . فهناك جمهور من الناس غير المألوفين لدي يشغلون عدة مقاعد في الغرفة — وهذا كاهن في حلة أرجوانية اللون ، وهناك شيخ أشهب الشعر يضع نظارة ويلبس بزة عسكرية ، وهناك عدة أشخاص آخرين يجلسون بدون حراك ، وقد جمدهم البرد ، فهم أشبه بتمثيل من الخشب ، يسمعون في سكون الى غليان الماء في مكان ما عن ثرب . . . وكان خالي ياكوف يقف منتصباً قرب الباب ، وقد وضع يديه خلف ظهره .

قال جدي :

— تعال أحمله الى سريره ، يا ياكوف .

فاوماً خالي الي ، فمضينا على رؤوس اصابعنا حتى وصلنا غرفة جدتي . . همس الخال في أذني ، عندما تكورت على السرير :

— لقد توفيت خالتك ناتاليا . . .

فلم يدهشني ذلك — لانها ظلت مدة طويلة لا تظهر في أرجاء البيت — ولا تدخل المطبخ ، بل لا تقترب الطاولة لتناول الطعام .

— أين هي جدتي ؟

فأجاب ، وهو يحرك يده :

— هناك ، تحت !

ثم رجع مثلما جاء ، يسير على رؤوس أصابعه الحافية . . .

اضطجعت على السرير أتطلع حولي قلنا . وراحت تقراء لي ، على زجاج النافذة ، عدة وجوه شائبة الشعر . كان ثوب جدتي معلقاً في الزاوية فوق الصندوق — كنت أعرف هذا ، ولكن الثوب بدا لي وكأنه مخلوق حي يتربص هناك بين الظلال ، فخبأت رأسي تحت المخذة ، واحتفظت بأحدى عيني مثبتة في الباب . كنت أود أن اقتفز من السرير وأهرب . . . كانت الغرفة حارة ، وقد عيج المنزل برائحة غريبة تذكرني كيف لاقى تسبجانوك

حتفه ، والدم يتدفق منه على أرض المطبخ . وخيل الي ان رأسي ، بل تلمي ،
بنتفخ . . . وأن كل شيء أشاهده في ذلك البيت يمزق في جسدي مثل
مركبة جلدية تسرع في درب ثلجي ، وهي تشدد الخناق علي ، ثم تمحوني
من الوجود تماما .

وسمعت الباب يفتح ببطء ، ومنه دلفت جدتي . . . ثم دفعت الباب
بكنفيها ، فأغلقتة ، وظلت مستندة اليه وقد مدت ذراعيها ناحية اللهب
الازرق الذي يبعثه قنديل الايقونات .

وهمست في نغمة صبيانية شاكية :
يا ليدي المسكينتين ! . . كيف احترقتنا ! . .



حصل تقسيم الاملاك في مطلع الربيع ، فتخلف ياكوف في المدينة ، أما ميخائيل فغبر النهر الى كوناقينو . واقتنى جدي لنفسه منزلا جديدا رائعا حجري البناء في شارع بوليفوي ، في الطابق الارضي منه خمارة واسعة ، وعلى السطح غرفة أنيقة صغيرة ، ويلحق بهذا المنزل حديقة تشرف على واد يعج بأشجار الصفصاف المعراة .

غمزني جدي بعينه مبتهجا ، وقال يخاطبني ونحن نطوي المسرات الطرية الناعمة نجوب أرجاء الحديقة ونتفحصها :

— ما اكثر القضبان هنا ! في وقت قريب سابدأ بتعليمك القراءة والكتابة ، وعندئذ ساكون في أمس الحاجة الى هذه القضبان !

كان المنزل يفيض بالمستأجرين ، فاخص جدي نفسه بغرفة واسعة في الطابق العلوي أعدوها لاستقبال الضيوف ايضا . وكان نصيبنا ، جدتي وأنا ، غرفة السطح التي تطل نرافذها على الطريق ، فاذا ما جلست اليها استطعت ان اشاهد السكارى الخارجين من الخمارة في الامسيات وايام الاعياد ، يترنحون وهم يعبرون الشارع ، يستندون الى مزاريب المياه ويزمجون ... وغالبا ما كانوا يرمون من الخمارة وكأنهم اكياس فارغة من الطحين ، فيعودون الى الباب يدفعونه، ويهاجمونه بأيديهم ، او يضربون عليه بدقاقتة المتعنة ، وهم يسبون ويشتمون . وكان الباب يخضع لهم أحيانا ، فتتشب عندئذ معركة لا أدري نتائجها ... كان ذلك كله في الحقيقة مثيرا للاهتمام حتى الدرجة القصوى . وكان جدي يمضي كل صباح الى معلمي ولديه ليساعدهما في تنظيم أمورهما . ثم يعود مساء غاضبا ، متعب الجسم ، كتيب القلب ، حاد الطباع .

أما جدتي فكانت تقوم بتدبير المنزل ، وتهيء الطعام ، وتنش الحديقة ، وهي تكردح هنا وهناك النهار بطوله كخزروف كبير ، وكأنها يسيرها سوط خفي غير منظور . وكانت تستنشق سعوطها ، ثم تعطس باشتهاء ، وهي تراقب كل شيء وتجنف وجهها المتصعب عرقا :

— شكرا للقديسين والملائكة حتى آخر الدهور ! لقد انتقلنا أخيرا الى حياة هادئة ، يا اليوشا ، يا طيري العزيز ! أن كل شيء جميل ورائع بالنسبة الينا ، فشكرا للمعذراء الطاهرة !

ولكنني لم اجد شيئا من الهدوء في حياتنا . . . فقد كان المستأجرون يخبون منذ الصباح حتى المساء في الساحة وداخل المنزل ، والجيران يأتوننا وهم في عجلة من أمرهم دوما ، ودوما متأخرون يسعون وراء شيء ما ، ودوما يتاهبون لعمل ما من الاعمال . وكانوا ينادون جدتي :

— اقولينا ايفانوفنسا !

فتوزع اقولينا ايفانوفنسا ابتساماتها العذبة عليهم بلطف جم على عاداتها ، وتصغى اليهم بانتيباه زائد ، وهي تدفع السعوط داخل منخريها ، ثم تمسح انفها وأصبعا باتقان في منديل احمر اللون .

كانت تقول :

— تريدون ان تتخلصوا من القمل ؟ يجب عليكم اذن ، يا اعزائي ، حين تبردون التخلص من القمل ان تغتسلوا في الحمام في فترات متتالية ، وأفضل على ذلك ان تعرضوا انفسكم لابخرة زيت النعناع . ولكن ! اذا كان القمل تحت الجلد فيجب ان تتناولوا ملعقة من شحم الوز ، من انقى انواعه ، وملعقة قهوة من السليمانى وثلاث قطرات من الزئبق ، وامزجوها جميعا سبع مرات في هاون صيني ، ثم ادلكوا جسدكم بها . اياكم أبدا واستعمال ملاعق الخشب والمعاج والافسد الزئبق ، واياكم ومسه بالنيحاس أو الفضة لان ذلك يكون عظيم الضرر اذن .

وكانت تشير أحيانا ، بعد تبصر وامعان دقيقين :

— الافضل ان تذهبي الى الناسك آزاف في صومعته ، يا سيدتي الطيبة . ان سؤالك صعب لا أستطيع له تفسيراً أو جواباً .

وكانت تعمل قابلة ، وحكما في المشاجرات البيئية ، ونداوي المرضى من

الاطفال الصغار ، ونروي قصة « حلم العذراء » عن ظهر قلب لتعلمها النسوة فينلن السعادة والغبطة ، ثم تعطي نصائحها في شؤون البيت وقضاياها :

— ان الخبر نفسه يعرف الزمن الذي يجب ان يكبس فيه ، وذلك مباشرة عندما تزول منه رائحة الارض وسواها ، فيصبح عندئذ قابلا للتليح . . . وللحصول على كفاش (1) طيب يجب ان يكون حار المذاق ، لان مشروبا كالكفاش لا يتفق ابدا مع أي شيء حلو المذاق . ولكن ، لا مانع من ان تضيفوا اليه شيئا من الزبيب ، او قليلا جدا من السكر — ملحقة واحدة لكل دلو منه . وان هناك طعاما مختلفا للقشطة حسب طريقة صنعها ، فهناك أسلوب أهل الدانوب في ذلك ، وكذلك الطريقة الاسبانية ، ومن ثم الطريقة الفوقازية .

اما انا فكنيت اخب في اعقابها وادب النهار بطوله ، متعلقا بأثوابها ان في المساحة او في الحديقة او عند الجيران . حيث كانت تجلس لبضعة ساعات تحتسى الشاي وتعيد سرد ما لديها من قصص وأخبار . . . وكنيت أبدو ، وقتذاك ، وكأنني قطعة منها . وأنا لا اذكر احدا خلال تلك الفترة من حياتي ، اللهم الا هذه العجوز الكدود اللطيفة .

وغالبا ما كانت امي تظهر بيننا في فترات قصيرات . كانت ما تزال متكبرة ، عابسة الوجه ، تراقب كل شيء بعينين باردتين مظلمتين كاشعة شمس الشتاء . . . ولا تقيم بيننا طويلا ، بل ما أسرع ان تختفى دون أن تخلف وراءها أثرا يذكرنا بها .

سألت جدتي ذات يوم :

— أنت ساحرة ؟

فضحكت :

— حقا ؟ من أين اخترعت هذا ؟

(1) شراب شبيه باللبيرة .

وسرعان ما ارتسمت على محياها علائم الجد ، واضافت :

— ومن أنا لاكون ساحرة ؟ ان السحر فن صعب ، وانا لا اكد افقه الاله ، سن الباء ! انظر الى جدك ! يا له من رجل متعلم ! ولكن العذراء الطاهرة لم تعطني ، انا ، الكثير من الحكمة والمعرفة .

وحينذاك ائتمنتني على جزء اخر من حياتها :

— لقد شببت يتيمة انا الاخرى . فقد كانت ابي فلاحه معدمة ، ومقعدة بالاضافة الى ذلك . وقد اخافها مرة سيد نبيل وهي لما نزل بنتا بعد . . . ولذا فقد اقلت بنفسها ، ذات ليلة ، من احدى النوافذ ، فكسرت خاصرتها وكتفها ، بحيث وهن ذراعها عن الحركة ، ذراعها الايمن ، ذراعها الجوهري في العمل ، اذ كانت عاملة تطريز ماهرة . وقد حررها النبيل بعد ذلك بزمان قصير لعدم انتفاعهم منها ، وكأنهم قالوا لها : عيشي كما تهوين وتبغين . ولكن ، كيف يمكنها ذلك بيد واحدة ؟ وهكذا اُست مستعطفية في الطرقات . وكان سكان بالاخنا ، في ذلك الحين ، اكثر غنى واطيب قلبا — كانوا نجارين شجعانا ، وعاملات تطريز ماهرات ، قلوبهم من ذهب ، وكل منهم افضل من الاخر . فلم نغادر المدينة ، بل رحنا — ابي وانا — نبتجدي الناس طوال الخريف والشتاء . وكننا نرحنا عن بلدتنا عندما رفع رئيس الملائكة جبرائيل سيفه فمزاح البلعيد عن الاراضي ، فاذا الربيع يتخطر على وجهه البسيطة بأبهى حله — نرحنا حيث تادتنا اقدامنا ، فمضينا الى موروم ، ومنها الى يوريفست ، ثم سرنا على طول الفولجا ونهر اوكا الهادىء . لكم كان مسيرنا جميلا رائعا ! الارض تفوح برائحة الربيع والخريف ، والتراب ناعم اللمس ، والعشب يشبه المخمل في طراوته ، والعذراء قد نثرت الزهور في كل مكان بحيث يغمر السرور قلبك ، ويمتد الفضساء العريض الواسع امام عينيك الطافحتين بهجة وغبطة . . . وعندئذ ، كانت والدتي تغلق عينيها الزرقاوين نصف اغلاقة ، فاذا بغنائها يرتفع نحو السماء مسبحا . . . كان صوتها حنونا حلوا ، يخيل اليك معه ان كل ما يحيط بنا قد ركن الى الهدوء والسكون ، فكانه يرمي بسمعه اليها . لكم كان التسول حسنا في ذلك الزمان ! غير ان والدتي رفضت ، يوم بلغت العاشرة من عمري ، ان اصحبها للتسول . كانت تجد ذلك مخجلا ، بل فضيحة سائنة . . . وهكذا استقرت في بالاخنا ، وهناك كانت تطرق الابواب ايام الاسبوع طلبا للخز ، وتقف ايام الاحاد على

باب الكنيسة تستعطي الناس والمصلين . اما انا فكنت أتخلف في البيت أتعلم التطريز . ولم استطع ان أتعلم ذلك بسرعة . وان كنت تواقفة جدا الى مساعدة امي المسكينة . ولطالما بكيت وتساقتت الدموع من عيني بغزارة عندما يكون صعبا فلا انجح في تحقيقه !... ولكن سرعان ما تعلمت في سنتين - تأهل ! - تلك المهنة الصعبة ، وذاعت شهرتي في البلدة وضواحيها . وكان القوم يأتوننا ، عندما يريدون عملا ممتازا ، ويقولون : « حسنا يا اكوليا ، هلا لعبت بأصابعك وابرک ؟ » . وكنت سعيدة بذلك ، وان كنت لا استحق في الحقيقة ذلك الصيت الذي كانت امي أجدر به مني ، لأنها هي وحدها التي علمتني . ورغم عجزها عن العمل بيد واحدة ، فقد كانت تستطيع ان تعلمني ، والمعلم الطيب افضل من عشرة عمال . ولكنني كنت متكبيرة جدا ، فقلت لها : « انك تستطيعين الان ، يا اماه ، ان تكفي عن التسول ، فانا اقدر ان اطعمك من عمل يدي ! » . ولكنها قالت : « صه ! الا تعلمين ان هذا المال يجب ان يكون مهرا لك ؟ » . وما اسرع ان ظهر جدك بعد ذلك - رجل يافع ملحوظ ، في الثانية والعشرين من العمر ، ومسع ذلك يكسب كمية لا بأس بها من المال .. وتفحصتني امه جيدا ، ورات ما انا عليه من الفقر - وانني ابنة امرأة مستعمية فاستنتجت من ذلك انني ساكون زوجة مطيعة . مطيعة .. سمعت !.. وكأنت ، بدورها ، بائعة للحلوى والمكعك ، ذات نفس خبيثة شريرة .. ولكن ، سامحني الله ، لم نتحدث بالسوء عن الاموات ؟ وما فائدة ذكر القوم الاشرار ، ان الله يراهم ، والشيطان بحبهم ...

وأطلقت ضحكاتها الصادرة عن القلب ، فاهتز انفها بشكل يبعث على السخرية ، وشملتني عيناها بعطف حنون يفصح عن مراده أكثر مما تفصح الكلمات ...

...

وانا اذكر ليلة هادئة كنت أشرب فيها الشاي وجدتي في غرفة جدي . كان مريضا يقبع في سريره وقد خلع عنه قميصه ، وغطى كتفيه بمنشفة طويلة يمسح بها ، بين الفينة والفينة ، العرق المتصدر على جبينه وكان تنفسه سريما أجش الجرس ، وعيناه الخضراوان تغشيهما سحابة داكنة ،

ووجهه محمرا منتفخا ، وأذناه المدببتان الصغيرتان متوردتين ، ويده ترتجف
— كلما حاول أن يتناول قدح الشاي — بشكل يثير الشفقة حقا . كان
رقيقا ، في ذلك اليوم ، على غير عادته ...

وراح يشنكي لجدتي بنغمة طفل مدلل :

— لم لم تضعي لي بعض السكر ؟

فاجابت بلطف ، في شيء من العزم أيضا :

— لان المعدل أصلح لسك .

فجرع قدح الشاي متمللا باكيا ... قال :

— احذري ان أموت .

— لا تقلقي ، فأنا ساهرة غير غافية .

— حسنا ! انا لو مت الان لاشبهت من لم يعيش على الاطلاق — او من
عاش من أجل لا شيء ...

— اضطجع ، وكفاك ثرثرة .

ظل مضطجعا مدة قصيرة ، دون حراك ، مغمض العينين ، وهو يتلمظ
شفتيه الزرقاوين . ثم قفز فجأة ، وكان أحدهم قرصه :

— يجب ان تزوجي ياكوف وميخائيل باقصى ما تستطيعين من سرعة .
فلربما جعلهما ذلك اكثر الفة وهدوءا . ما قولك ؟

وشرع يستعرض فتيات البلدة اللائعات ان يتزوج ولداه منهن ، بينما
راحت جدتي تشتف الكأس من الشاي تلو الاخرى ، دون ان يبدو عليها
ادنى اهتمام بالموضوع .

كنت ممنوعا ، عقابا على بعض ذنوب ارتكبتها ، من النزول الى
الحديقة ... فجلسب الى النافذة اراقب غروب الشمس ينعكس بريقه على
نوافذ المنازل ، وأمتع الانظار بالقليلة المشتعلة فوق المدينة . كانت جموع
من الخنافس تدوي في الحديقة تحت شجر البتولا ، واحد العمال يضرب

بالمطرقة برميلا في الساحة المجاورة ، وشخص ما يشحذ السكاكين في مكان قريب مني . وكانت ترد من الوادي ، خلف الحديقة ، صيحات أطفال يلعبون بين الاشجار الكثيفة ، فاشتاق يانسا ، وقد اثقلت كآبة الغسق على قلبي ، أن اكون بينهم أشاركهم لعبهم .

وأخرج جدي ، على حين بغتة ، كتابا انيقا للغاية ، لطمه براحة يده . وناداني بصوت أنيس :

— أنت ، أيها السنونو الصغير ! أنت ، يا صاحب الاذنين المفلوكتين ! أنت ، تعال هنا ! اجلس ، أيها المتتري الوجه ! اترى هذه الاشارة ؟ انها « الف » في أب ، « ب » في باب ، « ت » في توت . ما هذه ؟

— « ب » في باب .

— مضبوط ، وهذه ؟

— « ت » في توت .

— غلط ! « الف » في أب ، انظر هنا . . . « د » في دار ، « ج » في جار ، « ف » في فار . . . ما هذه ؟

— « ج » في جار .

— صحيح ، وهذه ؟

— « د » في دار .

— رائع ، وهذه ؟

— « الف » في أب .

فقاطعتنا جدتي :

— يحسن بك ان تضطجع بهدوء ، يا ابتساه !

— أطبق شفطيك ! ان هذا يروح عني ويبعد المتاعب عن ذهني ، تابع ، يا الكسي ! . . .

ولف ساعده الحار المرطب حول رقبتني ، وأشار الى الحروف ، بينما أمسك في اليد الاخرى بالكتاب تحت أنفي مباشرة .

كان يفوح منه مزيج من رائحة الخل ، والعرق ، والبصل المشوي ،
نكاد ان تخنقني . . .

واهتاج فجأة ، بشكل غريب ، وصاح في أذني :

— « م » في مطبخ . . . « س » في سيده . . .

كانت تلك الكلمات والاصوات مألوفة لدي ، وكذلك الامور التي نعبر
عنها ، ولكن الحروف المسلاقيه لم يكن لها ادنى شبه بها على الاطلاق ،
فالسين تبدو أكثر شبيها بالدودة منها بالسيدة ، واليم بجريجوري الاحدب
منها بالمطبخ ، أما الجيم المنتفخة فتذكرني بجديتي ، بينما كان في جدي شيء
يجعله يشبه سائر الحروف كل الشبه . واسنمر طويلا يعلمني حروف
الهجاء ، يسألني عنها بانتظام مرة ، وحسب هواه مرة اخرى . واصابني
بعدوى ثورته ، فمرحت اتصيب عرقا بدوري ، واصيح بأعلى صوتي ، الامر
الذي راق له كثيرا فاعرق في الضحك حتى اصابته نوبات متتابعه من
السعال .

كان يتنهد ، وهو يضرب بيده على صدره والكتاب معا :

— انظري كيف تحمس لذلك ، يا اماء ! نفو ! نفو ! ايها الطاعون
الاستراخاني ، ما بالك تصيح بهذا العنف ؟

— انك انت الذي يصيح . . .

ورحت ارنو اليه مبتهجا ، وقد جلست جدتي الينا ومرفقاها على
الطاولة ، واصابعها على خديها ، تضحك بهدوء وهي تراقبنا . . . قالت :

— كفاكما صياحا يذهب بعقليكما !

والثفت جدي الي ، وهو يفسر لي بالفة :

— اني اصيح لاني مريض . ولكن ، لم تصيح انت ؟

ثم حك رأسه الناضح عرقا ، وقال مخاطبا جدتي :

— لقد كانت المرحومة ناتاليا مخطئة عندما قالت ان ذاكرته رديئة . انها

أشبه بذاكرة الحصان ! تابع ، ايها الافطس الاتف !

ثم جذبني ، فنيما بعد ، ناحية السرير مازحا :

— ذلك يكفي ! احتفظ بالكتاب . سأسألك في الغداة عن كامل الابجدية ،
مايك ان تخطيء في تلاوتها . وسأعطيك خمسة كوبيكات لقاء ذلك .

وعندما اقتربت لاستلم الكتاب ، ضمنى اليه ، وقال بأسى :

— ما الذي دفع امك الى الذهاب واهمالك هنا ، يا بني !

فتدخلت جدتي :

— ما معنى الحديث عن ذلك الان ، يا ابتاه ؟

— ان الحزن يدفعني الى ذلك . . . آه ، يا لها فتاة من المؤسف أن

تضل !

ودفعني عنه بحركة عنيفة :

— امض من هنا والمب ! ولكنني امنعك من الخروج الى الشارع ،

ابق في المساحة او في الحديقة . اتسمع ؟

كانت الحديقة هي بغيتي بالضبط ، اذ لا اكاد اظهر فيها حتى يشرع

الاطفال الذين يلهون في الوادي يرموني بالحجارة ، فلا أرغب الا في ان اكيل

لهم الصاع صاعين .

كانوا يصيحون ، عندما يبصرون بي :

— ها هي ذي البقرة !

— اضربوه !

لم اكن املك اية فكرة عن ماهية البقرة ، وهذا يعني انه لا يمكنني اعتبار

اقوال الاولاد اهانة موجهة الي . وكنت اغتبط اذ اجد نفسي خصما لكل تلك

الجهرة ، وارى اليهم يتراکضون عندما أصليهم بنار من الحجارة حامية لا

تخطيء الهدف هنا وهناك ، ويختبئون وراء الادغال الكثيفة . وكانت امثال

تلك المعارك لا تحمل حقدا ولا تنترك شعورا بالاذية والضرر ، بل تنتهي دائما

على خير وجه .

تعلمت القراءة بسرعة ، واطن ذلك ما جعل جدي يوجه الي المزيد من

العناية والاهتمام ، ويقلل من مرات جلدي ، مع انني كنت ، هي رأيي ،

أستأهل من الضرب والجلد اكثر مني قبلا بما لا يقاس . ولما كنت ازداد سنا

وأقوى جسدا ، فقد شرعت أخالف أوامره كثيرا ، فيكتفي بتعنيفي أو بهز
أصابعه في وجهي .

صور لي ، وقتئذ ، انه غالبا ما كان يجلدني في صغري دونما أدنى
فائدة أو سبب معقول ، واخبرته برأبي هذا ذات يوم ، فنقر نقرة خفيفة نحت
دقني ، وحملق في عيني ، وقال وهو يتشدد بكلامه :
— ما . . . ذا ؟

تم اضاف ، وهو يتهقه :

— أنت ، أيها الهرطوقي الصغير ! من أنت حتى تقرر عدد المرات التي
استأهلت الجلد قبيها ؟ . . . أنا الوحيد الذي يعرف ذلك ! أفهمت ؟

وأمسك بي من كتفي . بينما كنت استدير عنه ، ومرة ثانية راح يحملق
في عيني :

أنت خبيث أم ابله ؟

— لست ادري .

— لست تدري ، ما ؟ سأخبرك اذن — أنت خبيث ، وهذا أفضل من ان
تكون ابله ! ان الخراف بلهاء ، أفهمت ، والان ، امض والمعب . . .

وسرعان ما ابتدأت اتهجا كتاب المزامير . وجدي يدرسني ، غالبا ، بعد
تناول الشاي مساء ، حيث اقرأ في كل مرة مزمورا كاملا .

— س ، ع ، ي ، د . . . سعيد . . . ا ، ل ، ر ، ج ل . . . رجل . . .
. . . الرجل . . . سعيد الرجل . . .

كنت اتهجى ذلك ، واصبعي الوسطى تنتقل على طول السطر . وكان
الضجر يغمرني ، فاطرح عدة اسئلة مختلفة :

— من هو السعيد ؟ أهو الخال ياكوف ؟

— سأضربك على نقرتك فتعرف وقتئذ من هو السعيد .

كان جدي يهتف بهذه الكلمات وهو يلهث غاضبا . ولكنني اشعر أن
غضبه ليس صحيحا ، بل من تأثير العادة فقط ، ولحفظ النظام ليس غير .

لم أكن لاخطيء قط ، اذ لا يلبث ، بعد لحظة ، أن يهيم ناسيا وجودي :

— أف . عندما يأخذ باللعب والغناء يشبهه الملك داوود كل الشبه ؛
ولكنه يشبهه ابشالوم الخبيث في أعماله . قوي ، غشاش ، مهرج — تفو !
يرقص ويمرح فوق العشب ! حسنا : ولكن الى أي حد سيذهب بك
رقصك ! أعتقد انه لن يطول !

فأتوقف عن القراءة لاستمع اليه ، وأتطلع الى وجهه الانيس المضطرب .
كانت عيناه الضيقتان ترنوان من فوق راسي الى ما ورائي ، مليئتين بحزن
عنيف يذوب مساوته المعتادة ، وحاجباه الذهبيان يرتعشان ، وأظافر أصابعه
الملونة بالصباغ تلتصق وهو ينقر على الطاولة بعصبية .

— ماذا ؟

— قص علي قصة . . .

فيدمدم . وهو يفرك عينيه كما لو استيقظ لساعته من النوم :

— هيا ! تابع قراءتك ، أيها الكسول ! انت تفضل ان تستمع الى
المخرفات أكثر منك الى المزامير !

كنت واثنا انه يفضل القصص الخرافية على المزامير التي يحفظها عن
ظهر قلب . وقد نذر الا ينام قبل أن يقرأ جزءا منها كل ليلة بصوت مرتفع ،
فبرتلها كشماس الكنيسة عندما يرثل في كتاب الصلوات .

والح عليه حتى يرق قلبه أخيرا ، فيروي لي احدى قصصه قائلا :

— أوه ، حسنا ، انت ستحتفظ بالمزامير معك طوال حياتك ، أما انا
فسأضي قريبا لاقابل خالتي أمام كرسي الدينونة .

ويلقي برأسه الى الوراء ، وهو يستند الى حافة الكرسي العتيق
الحادة ، ويثبت عينيه في السقف ، ويفرق في ذكريات أيامه الخالية . ثم يأخذ
بالحديث عن أبيه والزمان الغابر . لقد حدث ، ذات مرة ، أن عصابة من
الصوص أغارت على بالأخنا مستهدفة دكان التاجر زايسف ، فركض والد
جدي الى قبة الكنيسة لينبه الناس ، ولكن اللصوص أدركوه ، ومزقوه
بسيوفهم ، ورموا بقطعه من فوق البرج .

— كنت طفلا صغيرا بعد فلم أشهد تلك الحادثة ، بل لم أعد أذكرها
ايضا . فذكرياتي الاولى تعود الى مجيء الفرنسيين عام ١٨١٢ — وسني

حينذاك لا تتجاوز الثانية عشرة — حين ساقوا ثلاثين أسيرا الى بالاخنا ، وهم جميعا صغار البنية ، برزت عظامهم ، وتهللست نيابهم حتى أنهت اسمان المتسولين — كانوا ، على أية حال ، اسوا من هؤلاء منظرا — يرتعشون ويرتجفون ، وقد تجمدت اطراف بعضهم بردا فاضحوا عاجزين لا يستطيعون النهوض على اقدامهم . واراد الفلاحون قتلهم جميعا . ولكن الحراس وحامية المدينة منعوهم عن ذلك ، وردوهم طرا الى اكواخهم . ثم سار كل شىء على ما برام ، واعناد الطرفان بعضهما بعضا ، فاذا الفرنسيين اذكاء القلب ، ثابتوا الفكر ، خففو الحركة ، يتغنون باغانيتهم حيثما طاب لهم . وراح نبالؤنا بنحدرود من نيجنسى نوهجورود فى العربات للنفرج عليهم ، وفريق منهم يلعن الفرنسيين ويهز قبضته في وجوههم ، بل يضربهم في بعض الاحيان . . . بينما يحدثهم الفريق الاخر بلطف بلغتهم الفرنسية ، ويقدم اليهم المال والنياب العتيقة لبفرح قلوبهم بها . وأنا اذكر شيئا منهم ، كان من كبار النداء ، أخفى وجهه بيديه ، مرة وطفق يبكي وبمسح : « هلا راىتم الى ما جناه ذلك الشيطان نابليون بحق هؤلاء الفرنسيين ؟ » . تمعن في ذلك — روسى نبيل ذو قلب طيب — تأخذة الشفقة بمنزل هذا الشكل على اولئك الغرباء الاجانب .

ويصمت جدي برهة ، وبغمض عينيه ، ويحنى رأسه ، وبصفت بيده شعره الطويل . . . ومن ثم يتابع الحديث بعناية ، منقبا في مهامه ذكرايه القديمة :

وجاء ذلك الشتاء ، باعصاره الثائر المريع ، وريحه الباردة تزمجرر بقسوة وعناد فوق الاكواخ ، فكان الفرنسيون يتراخضون احسانا حتى نوافذنا بنادون والدتي — وكانت تصنع كعكا للبيع — يقرعون الزجاج عليها ، يثبون عن الارض ويطلبون الكعك الساخن منها . ولم تكن أمي تسمح لهم بالدخول الى الكوخ ، بل تناولهم ما يطلبون من خلال النافذة ، فيتخاطفونه حارا يتصاعد البخار منه ، بعد خروجه من الفرن مباشرة ، ثم يخبئونه في طبقات قمصانهم ، ويضمونه الى اجسادهم المنجمدة ، ردا فوق القلب تماما . ولم اكن افهم كيف يمكنهم تحمل تلك الحرارة الشديدة ! ولقد مات اكثرهم من البرد ، لان مكان البلاد الحارة لا يتحملون مثل ذلك الجليد . وقد أقام انان منهم

عندنا ، احدهما ضابط والآخر تابع له يدعى ميرون ، فاسكناهما غرفة الحمام في اقصى الحديقة . وكان ذلك الضابط فارح الطول ، نحيل الجسم ، لا يزيد عن حزمة من العظام والجلد ، يتجول في معطف نسائي يصل حتى ركبتيه . وكان لطيفا ، ذا نفس طيبة علتة الوحيدة ادمانه على الشراب . ولما كانت امي تصنع الجعة وتبيعها خفية ، فقد كان يشتري مقادير كبيرة منها . . . فاذا اصبح ثملا راح ينشد اغنياته التي لا تنتهي . ولقد تعلم شيئا من لغتنا ، فكان يردد احيانا : « ان بلادكم غير بيضاء ، انها سوداء جافة . . . » . وكان حديثه متقطع الالفاظ ، ولكنك تفهم ما يقصده . والحقيقة التي لا مرأء فهما ان المنطقة الشمالية جافة فظة . ولكنك اذا ما انحدرت مع الفولجا أصبحت الاراضي دائمة ناعمة ، لا بل يقال انك اذا ما تخطيت بحر قزوين لم تر للثلج اثرا . . . ولربما كان في ذلك شيء من الصحة ، فانظر كيف يخلو الانجيل ، وكتاب اعمال الرسل ، وسفر الزامير ، من ذكر الثلوج او الشتاء ، والمسيد المسح ولد وعاش في تلك البلاد . . . عندما سننتهي من قراءة الزامير سأشرح واياك قراءة الاناجيل .

ويعود الى الصمت ، فيخيل الي انه يغفو . . . ثم يشخص من خلال النافذة ، وقد ركز انتباهه في امر ما ، وضيق فرجة عينيه ، واتخذت ملامحه مظهر الحدة . . . فاهمس بهدوء :

— هلا تابعت ؟

فيجيب ، وهو ينتفض :

— آه ، حسنا ! عما كنت أتحدث ؟ عن الفرنسيين ؟ حسنا ! لقد كانوا ، بدورهم ، مخلوقات بشرية ليست اردا منا نحن الخطاة . . . وكانوا يتراكضون خلف الدتسي وهم يصيحون : « مدام ، مدام ! » ويعنون بذلك « يا سيدتي » . ولكن تلك « السيدة » تخب نحو المنزل تحمل كيسا من الطحين يزيد وزنا عن المائة كيلو غراما ، فقد كانت تفوق الثور قوة وبأسا ، ظلت تفعل سى ما تشاء حتى جاوزت العشرين من العمر . وانا لم اكن أبدا ، في ذلك الوقت ، ضعيف النية أو جبانا . أما ذلك التابع ميرون فكان مولعا بالخيل كثيرا ، ينتقل بين الاسطبلات ، ويسأل الناس بالاشارات السماح له بالعنابة بالخيل . ولكن القوم خافوا منه بادية الامر — فهو عدو ليس ما يمنعه من الحاق الأذى بها . ولكن لم تمض فترة من الزمن حتى أصبح التلاحون ، بعد

ان تجربوه ، يأتون اليه من تلقاء أنفسهم : « هي ، انت ، ميرون ، هـلا اتيت ؟ » . فمضحك ويهز رأسه كالثور ، ويعدو نحوهم ركضا . كان شعره أحمر اللون كالجزرة ، له أنف كبير ، وشفتان عريضتان ، وهو سائس خيل عظيم ، له خبرة واسعة عن كيفية العناية بالخيل مهما كان مرضها . . . وقد اضحى ، بعد ذلك ، سائسا في فيجنبي نوفجورود ، لكنه فقد عقله فيما بعد . وفي ذات يوم ، انهال رجال المطانيء عليه ضربا حتى مات . . . اما الضابط فراح يذبل ويذبل مع قدوم الربيع ، ثم مات دون أدنى صوت او ضجة ، في عيد القديس نيقولا . كان يجلس الى النافذة في مسكنه غارقا في بحر من الأحلام فتوفى هكذا ، وهو يتطلع الى العالم ، وشعرت بالاسف من أجله ، وذرفت عليه بعض الدموع خفية ، فقد كان انسانا لطيفا ، اعتاد ان يمسك بأذني لبسكب فيها كلاما ناعما يبلغته الخاصة . ولم أكن أفهم مما يقول شيئا ، لكن وقع تلك الكلمات في نفسي كان رائعا للغاية . ان العالم لا يحوي عددا كبيرا من ذوي القلوب الطيبة ، ومثل هذه الصداقات لا تباع في السوق . ولقد شرع ، مرة يعلمني طريقة الحديث بلغته الاصلية ، ولكن امي منعتة عن ذلك ، وقادنتي الى الكاهن الذي امرها بجلدي ، ثم رفع شكوى ضد ذلك الضابط . لقد كان الناس شديدي البأس في تلك الايام ، يا صغيري ! وانت لن تذوق ما قاسيناه في زماننا — فان اناسا آخرين تحملوا ذلك عنك ، وهذا ما يجب الا تنساه أبدا ! خذني مثلا — لو انك تعلم فقط مبلغ ما عانيت !

واحلولكت الظلمة ، وكان جدي يتمدد في ذلك الجو القائم بشكل غريب ، وعيناه تشعان وتبرقان كعيني القط . وهو يتحدث عادة بهدوء ، واحتراس ، وتأمل . . . ولكنه أمسى ، اذ راح يتحدث عن نفسه ، أكثر حمية وتفاخرا : ولم يكن ذلك منه يروق لي ، ولا كنت احب ايضا عظاته المستمرة :

— « تذكر ذلك ! » . . . « اياك ان تنساه ! » .

لقد أطلعني على أشياء عديدة أتوق بكل نفسي الى نسيانها جميعا ، ولكنها تتشبهت بذاكرتي مثل شوكة مؤلمة يستحيل انزاعها . . . لم يكن يروي لي شيئا من أفاصيص النجن — بل كانت سائر حكاياته مستمدة من واقع الحياة ، ومن ماضيه بصورة خاصة . ولقد اكتشفت ان كثرة الاسئلة تزعجه كثيرا ، ولذا كنت اغتتم كل فرصة لالقي عليه أكبر عدد منها :

— قل لي أيهما أفضل — الروسي أم الفرنسي ؟

فيجيب مغتاضا :

— ومن يستطيع الاجابة على ذلك ؟ انا لم أر الفرنسيين في وطنهم الاصيلي .

— ان الفأر نفسه لفاضل في حجره الخاص .

— وهل الروسيون طيبون ؟

— بعضهم ذلك وبعضهم لا ! كانوا اكثر طيبة ايام كاتسوا عبيدا تقيدهم السلاسل . اما الان ، وقد اصبحوا احرارا ، فقد نسوا العادات القديمة . ولا ريب ان الاسياد قساة المظلوم نوعا ما ، ولكنهم اعقل من المويجك . لا أقول هذا عنهم جميعا ، ولكن النبيل اذا كان طيب القلب مرة ، كان فاضلا جدا . . . وبعضهم حمقى تماما ، يتقبلون ، كالاكياس ، كل ما تضعه فيهم . حقا ، ان بيننا لكثيرا من القشور ، ومن الصدق الفارغ ، يبهدون للوهلة الاولى كالكائنات البشرية ، فاذا اقتربت منهم وتمعننت فيهم رأيتهم قشورا لالب فيها . ان ما نحتاج اليه هو شيء من الثقافة ، ان ما يلزمنا هو ان نشحذ عقولنا . ولكن ، لا يوجد هناك ما نشحذها به . .

— هل الروسيون اقوياء ؟

— بعضهم اقوياء ، ولكن القيمة ليست في القوة ، بل في المهارة ! ثلاثت مهما بلغت من القوة يظل الحصان متفوقا عليك في هذا المضمار .

— لماذا حاربنا الفرنسيون ؟

— حسنا ! الحروب مهمة الحكومات والقيصر — وليس لنا ، نحن الناس البسطاء ، ان نفهم هذه الامور . . .

ولكنني لن انسى ، ما حييت ، ما اجابني به جدي يوم سألته عن بونابرت من يكون . . . قال :

— لقد كان رجلا شجاعا اراد ان يستولي على العالم اجمع حتى يستطيع جميع الناس ان يعيشوا في مساواة عادلة . فلا نبلاء ، ولا موظفون ، بل الجميع في مستوى واحد ، وستختلف الاسماء لكن الحقوق سنتساوى للجميع . . . ولن يكون هناك ايضا الا ايمان واحد للجميع ، وتلك فكرة بلهاء

بالطبع لا معنى لها ... فليس الا سرطانات الماء تشبه بعضها بعضا ...
خذ الاسماك مثلا ، حتى هي تختلف عن بعضها : فحوت سليمان لا يشبه
السماك الابيض أبدا ، والسماك النهري لا يداني السماك البحري ... ولقد
كان لنا ، بدورنا ، بونابرتاتنا — فهناك مثلا رازين ستيفان تيموفيف :
وبوكاتش ايميليان ايفنوف — ولكني سأخبرك عنهما في وقت آخر ...
وقد كان ، في اغلب الاحيان ، يرنو الي بعينيه المتسعنين مدة طويلة ،
وكانه يراني للمرة الاولى ، وكان هذا يزعجني كثيرا .
ولكنه لم يحدثنى ، أبدا ، عن والدي او عن والدتي ...

...

كانت جدتي تدلف احيانا الى الغرفة اثناء هذه الاحاديث .. فتقتعد ،
في هدوء جم ، كرسيها في زاوية الغرفة ، وتعتصم بالصمت مدة حتى تسأل
على حين فجأة بصوتها اللطيف :

— اتذكر ، يا ابتاه ، كم كانت جميلة تلك الايام التي حججنا فيها الى
ميرون نזור العذراء الطاهرة ؟ في اي عام حدث ذلك ؟

— لست اذكر بالضبط ، لكن ذلك كان قبل الكوليرا ، في السنة التي
طهروا فيها الغابات من الاولنخاريين .

— صحيح ! أنا اذكر كم كنا نخافهم !

— نعم ، نعم !

فأسألت من يكون هؤلاء الاولنخاريون ، وما دفعهم الى الاختباء في
الغابات . فاجاب جدي باشمزاز :

— لم يكونوا الا فلاحين ارقاء ، هربوا من العمل في المصانع والحقول .

— وكيف قبضوا عليهم ؟

— هل لك ان تحزر ؟ كان ذلك أشبه بالاطفال وهم يلعبون ... البعض
يركضون ويخبئون ، والآخرين يمسكون بهم . وعندما تم القبض عليهم جلدوا
بالسياط ، وضربوا بالعصي ، ثم جدعت أنوفهم ، وكويت جباههم بالنار كي
يتضح للملأ العقاب الذي انزل بهم .

— ولم ذلك ؟

— من يدري ؟ ان ذلك امرا مبهما غامض الاسرار ، ومن الصعب ان تميز المخطيء فيهم — اهو الذي فر ، ام الذي قبض على الفئار ؟

وقالت جدتي ثانية :

— اذكرك ، يا ابتاه ، ما الذي حدث بعد النار العظيمة ؟

فاستفسر جدي ، وقد قطب وجهه بدقة :

— اية نار عظيمة ؟

وغرقا في ذكرياتهما ، وكاتا دوما ينسيان وجودي في مثل هذه الحال ، فتتمالى كلماتها بهدوء ، موزونة ، حتى يخيل الي انها ينشدان اغنية شجية ، لكنها اغنية حزينة في الوقت ذاته ، موضوعها النار ، والامراض ، والمصائب التي تنزل بساح المخلوقات البشرية ، والموت المفاجيء ، واللصوص الاذكياء ، والدراويش ، والنبلاء النزقون المنحدرون من الطبقات المراقية ، والمتسولون المتعددون ...

وتمتم جدي :

— ما اكثر ما شاهدنا ! ما اكثر ما عشنا !

فسألت جدتي :

— وهل كانت حياة سيئة ؟ هلا ذكرت روعة ذلك الربيع الذي ولدت فيه فارفارا ؟

— كان ذلك سنة ١٨٤٨ ، سنة الحملة على المجر ، ولقد ساقوا معهم عرابها تيخون بعد يوم واحد من عمادها فحسب .

فتنهدت جدتي ، وقالت :

— وهو لم يرجع منذ ذلك الحين !

نعم ، لم يرجع ! ومنذ ذلك اليوم حتى الان ورحمة الله تنزلق بعبيدا عنا ، كالماء اذ يسيل على سطح مشحم ... آه ، ان فارفارا ...

— كفى ، يا ابتاه ...

فأجاب غاضبا :

لماذا كنى ؟ هؤلاء اولادنا ينقلبون ارذالا رغم كل العناية التي بذلت لهم .
لقد ذهبت سائر جهودنا هباء منثورا ! كما نظن ، انت وأنا ، اننا نضع
اشياءنا في حرز امين ، ولكن الله أراد ان يضيع كل شيء من بين ايدينا ...

وكمن وسم بالنار ، اخذ يقفز بين زوايا الغرفة ، يئن ؛ ويهاجم اولاده ،
ويهز قبضته المتعظمة الصغيرة في وجه جدتي ، وهو يصيح :

— وانت دامت دوما عن هؤلاء اللصوص ، وانسدتهم بتدليكك لهم ،
انت ، ايتها الساحرة ! انت ، ايتها الساحرة !

والتي به غضبه العنيف في زاوية الايقونات ، حيث شرع يضرب صدره
النحيل بكلتا قبضتيه ، وينوح بصورة مؤثرة :

— لم ذلك ، يا ربي ؟ هل انا اكثر خطيئة من سواي من الناس حتى
استحق هذا العقاب المقاسي ؟

وراحت عيناه النديبتان تلمعان سخطا والما ، وجسده يرتجف كالورقة
الجافة في مهب الريح ...

كانت جدتي تظل تابعة في الظلمة ، وهي ترسم اشارة الصليب ، ثم
تنهض ، وتمشي اليه بحذر ، وتقول معزية :

— لم تعذب نفسك هكذا ؟ ان الله بكل ما تصنع يداه عليم ! فليس
هناك كثرة من الاولاد افضل من ابنائك . ان الامر متشابه في كل مكان ، يا
ابنائه .. خصومات ، ونزاعات ، وضوضاء ... ان جميع الامهات والآباء
يغسلون خطاياهم بدموعهم الخاصة ، ولست الوحيد الذي ...

كانت كلماتها ، احيانا ، ترد اليه الهدوء ، فينزلق في فرائسه متعبا
بينما ننطلق ، جدتي وأنا ، الى جناحنا الخاص . ولكنه ، اذ اقتربت منه
ذات مرة ، تخاطبه بكلماتها اللطيفة ، استدار حول نفسه ولطمها بقبضته
لطمة رنانة على وجهها . فترنحت جدتي ، وقد شددت يدها على شفتيها ،
حتى اذا استردت هدوءها ، قالت في صوت هادىء لطيف :

— يا لك من احمق !

ثم بصقت الدم عند قدميه . فرفع ذراعيه فوق راسه ، وزعق مرنين :

— اذهبي من وجهي قبل ان اقتلك !

فرددت جدتي ، وهي تتجه صوب الباب :

— أحمق !

فالتقى بنفسه خلفها ، ولكنها اجتازت العتبة دون تسرع ، وشفقت
الباب في وجهه . . . فصرخ الشيخ ، أحمر اللون كاللحم المتأجيج ، وقد أمسك
بقبضة الباب يضرب عليه بأظافره :

— يا للفاجرة العجوز !

كنت جالسا على ظهر الموقد ميتا أكثر مني حيا ، عاجزا عن تصديق عيني .
لقد كانت المرة الاولى التي تضرب فيها جدتي في حضوري ، ولقد تأملت من
شماعة ذلك ، وكثيفت فعلته تلك عن صفة جديدة فيه لا يمكن ان يبررها
شيء على الاطلاق ، راحت تثقل علي بنير لا يطاق . . . ظل واقفا هناك متعلقا
بقبضة الباب ، وقد أربد وجهه فلأن الرماد ذر عليه . وفجأة ، خطا الى
منتصف الغرفة ، وسقط على ركبتيه ، وارتدى الى الامام مستندا على
ذراعه . ثم نهض واقفا ، وضرب صدره بكلتا يديه ، وهو يصيح :

— يا الله ! يا الله !

فتدحرجت على قرميد الدكة الحار السذي بدا لي وكأنه مصنوع من
الجليد ، ثم أطلقت ساتي هاربا . . .

كانت جدتي في الطابق العلوي تغدو وتروح ، وهي تفرغر كمية من
الماء في فمها .

هل تتألمين ؟

فلمضت الى زاوية الغرفة ، وبصقت الماء في المغسلة . . .

أجابت برزانة :

— لا ، أبدا ! ان اسناني لم تصب بسوء — لقد جرحت في شفتي
فقط . . .

— لماذا فعل ذلك ؟

فأجابت ، وهي تشخص الى النافذة :

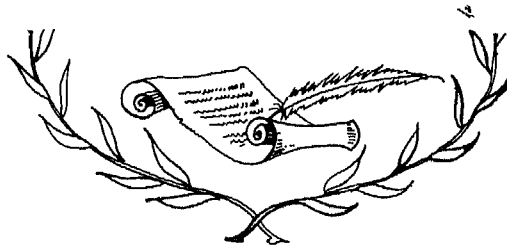
— لقد فقد صوابه ! كم يصعب عليه ، هو الرجل الشيخ ، ان يتحمل هذه المصائب كلها ! ... اذهب انت الى فراشك ، وانس ما جرى .. فسألتها عن شيء اخر ، ولكنها صاحت بشدة غير مقصودة ، وغير معتادة :

— ألم تسمعي ؟ اذهب الى فراشك ! يا لك من ولد عاق !

جلست قرب النافذة تمص شفتها وتبصق ، من حين لآخر ، في منديلها . ظللت أنظر اليها طول الوقت ، وأنا أطلع ثيابي ، وفوق رأسها تلتصع كوكبة من النجوم في غسق الليل . كان كل شيء هادئاً في الخارج ، وكل شيء في الداخل مظلماً . وعندما التحفت الغطاء تقدمت مني ، وداعبت جبينني بلطف :

— نم في سلام . اني سأنزل اليه الان ... فلا تأسف من اجلي ، أيها العصفور الصغير ! ان لاخطائي نصيباً كبيراً في ذلك . هيا ، الى النوم !

قبلتني وخرجت ، وخلفتني غارقاً في بحر من الحزن والاليم . فقفزت خارج السرير الدافئ الطري ، ومضيت الى النافذة حيث رحت أحملق فهي الطريق الخالي ، وأنا أرزح تحت عبء عذاب لا يطاق ...



مرة اخرى ، امست الحياة كابوسا لا يحتمل ! فغي ذات مساء ، وقد انتهينا من تناول الشاي ولجأنا ، جدي وأنا ، الى قمرأة المزامير ، بينما راحت جدتي تغسل الصحون والواني ، اندفع الخال ياكوف كالريح العاصفة داخل الغرفة . . . كان أسمع الشعر كعادته ، يشبه الى حد بعيد مكنسة بالية مهترئة . ورمى بقبعته في احدى زوايا الحجرة وراح يتكلم بسرعة دون أن يلقي سلاما او تحية ، وهو يقوم اثناء ذلك بحركات جنونية همجية غريبة :

— ان ميخائيل مغتاز ، يا ابتاه ! لقد تناول الغداء عندنا ، وشرب حتى الثمالة ، وامسى كالجنون ! فكسر الصحون ، ومزق ثوبا من الصوف يخص أحد العملاء ، وحطم النافذة ، وشتمني وجريجوري ، وهو الان في طريقه الى هنا ، وقد أقسم ان ينال منك ! كان يعوي : « سأنتف الشعر عن لحية والدي ! » ، ثم يصيح : « وسأقتله ! . . . » . يحسن بك ان تنتبه لنفسك . . .
وانحنى جدي على الطاولة ، ونهض على قدميه بصعوبة ، وقد تشنج وجهه وتجمع عند أنفه حتى أشبه بلطة صغيرة ، وزعق قائلا :

— اتسمعين ذلك ، يا اماء ؟ ما قولك ، ايه ؟ انه يريسدان يقتل والدها ! هذا هو ، من لحمي ودمي ! حسنا ، لقد حان الوقت ! لقد حان الوقت ! يا شباب . . .

واصلح من وضع كتفيه ، وراح يتخطر في الغرفة غدوة ورواحا ، ثم مضى الى الباب واترسه بمزلاجه الثقيل . قال :

— أنكما تتسابقان وراء مهر فارغارا دوما ! أنا اعرف ذلك ! ولكن اليك
ما ستنااله ...

واستدار نحو ياكوف ، وانحنى ساخرا تحت أنفه مباشرة ...

وتراجع هذا الاخير ، وقال بصوت مفتاط :

— وما ذنبي انا ، يا أبتاه ؟

— أنت ؟ اتي اعرفك انت ايضا !

لم تقل جدتي شيئا البتة . بل راحت تضع الفناجين بسرعة في الخزانة
— بكل بساطة — ثم تغلق عليها .

— لقد جئت احملك !

فضحك جدي بخبيث :

— ها ! ذلك جميل اعرفه ! اشكرك ، يا بني ! اسمعي ، يا امهات !
اعطي هذا الثعلب شيئا يشتغل به ، قضيب النار ، أو المكواة ، وأنت يا ياكوف
فسيلينيتش ، في اللحظة التي يتوصل اخوك فيها الى الدخول فاعطه اياها
— على رأسي ...

فدفع خالي يديه في جيبه ، وانتحى بعيدا احدى الزوايا :

— حسنا ، ما دمت لا تريد ان تصدقني .

فصاح الجد ، وهو يضرب الارض بقدمه :

— اصدقك ؟ أنت ؟ افضل ان اصدق قطا ، أو جرذا ، أو خنزيرا ، أما
انت فلا ! فأنت الذي سقيته المسكر واثرتة ... أنا اعرف ذلك ! حسنا ...
والان ، عليك ان تتخلص من أحد الاثنين . هيا ، واختر ... اقتل احدا :
هو أو أنا !

واستدارت جدتي الي ، وهمست :

— أسرع الى الطابق العلوي ، وارقب خالك ميخائيل من خلال النافذة ،
واخبرنا سريعا عندما تلمحه ! هيا الى فوق ، اركض !

نصعدت السلم نهبا ، وارتفتت النافذة ...

كنت خائفا نوعا ما لمجرد تفكيري بما سيفعله خالي الحانق عندما يبلغ المنزل ، لكن مزهوا بالمسؤولية الحظيرة التي عهد بها الي . كان الشارع عريضا ، غطته سحابة كثيفة من الغبار تبدو من خلالها حوانيت الحدائين ، وهو يذهب بعيدا ناحيه الشمال وينجاوز المنحدر ، ويفضي الى ساحة اوسنروجنايا ، حيث ترتفع ابنية السجن القديمة الشهباء اللون بابرأجها الاربعه المنتصبه برسوخ في التربه الطينية . وكان في ذلك البناء جمال كئيب مثير للشعور . والى اليمين ، لم يكن الا ثمة ثلاثة منازل يفصل دارنا عن ساحة سينايا التي يحدها من الجهة المقابلة معسكرات الاسرى الصفراء ، وبرج المراقبة الذي يدور الحارس فيه ككلب تقيده سلسلته ... اما الساحة فكانت مليئة بالخنادق والحفر التي طاف قاع احداها بوحل مخضر ... وعن يمين ذلك ، كانت بحيرة دوكوف حيث حفر خالاي مرة ، كما روت لي جدتي فيما بعد ، تغرة في الجليد يريدان القاء والذي فيها ... وثمة درب ضيق جانبي يفتح مقابل نافذتي تماما ، تحف به منازل صفيرة كثيرة الالوان تنتهي عند كنيسة الاقمار الثلاثة ، وهي بناء ضخّم يجثم على الارض بثقل وارهاق . كنت اذا نظرت من نافذتي باستقامة بدت لي السقوف أشبهه بقوارب متلوّنة مقلوبة تسبح فوق امواج الحدائق الخضراء وتعموم .

وكانت دور شارعنا الغبراء التي جرد لونها بفعل رياح فصول الشتاء الطويلة ، والتي طالما اغتسلت بأمطار الخريف اللامنتهية ، تتراكم متراسة الى بعضها كجماعة من المتسولين عند بوابة الكنيسة ، تسترق النظر بنوافذها النائثة وكأنها مثلي تنتظر شيئا ما ، والناس القلائل الذين وقع بصري عليهم يقطعون الطريق مبطينين ، وكأنهم تلك الصراصير الناعسة تتسلق جدران الموقد لتأوي الى الظل مرتاحة اليه . . وشرعت حرارة خانقة تهب على نافذتي ، تحمل في طياتها رائحة غريبة كريهة في مزيج من مجل الربيع وجزره . وما زلت اذكر ، حتى هذه الايام الحاضرة ، ان تلك الرائحة لم تكن تطاق ، وانها بعثت في نفسي مقدارا عظيما من كآبة لا مبرر لها ولا سبب .

كان المنظر مملا ، مملا حتى ليصعب احتماله ، فاذا بصدري يزدحم بشيء أشبه بالرصاص السائل ثقلا ، راح يضغط على أضلاعي حتى صور لي انني سأنفجر مثل اناء مليء بالبخار ، تضيق تلك الغرفة الصغيرة المشبّهة بالنعش عن استيعابه .

وفجأة ، لمحت خالي ميخائيل يبرز من وراء احد المنازل المشهباة في زاوية الدرب الجانبية ، وقد غاص رأسه في تبعته حتى الاذنين . كان يرتدي معطفا قصيرا ، وحذائين يبلغان ركبتيه غطاهما الغبار تماما ، وقد اختفت احدي يديه في جيب سرواله ، بينما أمسكت الاخرى بلحيته تشد عليها بحنق وغيظ . ولم استطع أن أميز ملامح وجهه ، ولكن مظهره كان يوحي بأنه يستعد لان يقفز حلال الشارع ، ويغمد مخالبه السوداء المليئة بالشعر في منزل جدي . وكان يجب علي أن أهبط الدرج بسرعة لاخبرهم بمجيئه ، ولكني لم استطع سبيلا الى اننزاع نفسي بعيدا عن النافذة ، بل رحت اراقبه يتقدم بحذر شديد ، يعبر الشارع وكأنه يخاف على حذائيه الرماديين ان يتسحا ، ومن ثم بلغ سمعي قرعقة الزجاج وصرير المفصلات وهو يفتح باب الحانة وينسل الى داخلها .

هبطت الدرج اربعا اربعا ، وطرقت باب غرفة جدي ، فصاح العجوز بخشونة دون ان يفتح الباب :

— من هناك ؟ انت ؟ حسنا ؟ ادخل الى الحانة ؟ ماذا تقول ؟ لا بأس !
عد من حيث أتيت ...

— انسي خائف ! ...

— لا حيلة لي في ذلك .

فرجعت ادراجي الى النافذة ... كانت الظلمة قد ابتدأت تنتشر ، فازداد غبار الطريق كثافة وسوادا . وتدحرجت من النوافذ أضواء مصفرة راحت تنتشر كبقع زيتية متزايدة الاتساع ، وتصاعد من المنزل المقابل ضجيج موسيقى بعضها جميل مفرح ، وبعضها الاخر كئيب محزن .. وكان أحدهم يغني في الحانة ، وكلما فتح الباب تناهى الى سمعي صوت منكر متعب أعرف فيه صوت المتسول نيكيوتوشكا الاعور ، وهو شيخ ملتحم اغمضت عينه ليسرى ، بينما اشبهت اليمنى فحمة حمراء تنفث لها . وكان اصطفاق يطفى على غنائه ، فنصمت الاغنية وكأنها قطعت بضربة نأس قطعاً ...

كانت جدتي تحسد ذلك المتسول ، وحيثما كانت تسمع اليه يغني تنهد وتقول :

— ما أسعده في هذه النعمة-اذ يعرف جميع هذه الاغاني الرائعة !

وكانت تدعوه الى ساحتنا احيانا ، فيجلس على عتبة الباب مستندا الى عصاه ، يغني منظومات من الشعر ، بينما تقبع جدتي بالقرب منه تقاطعه بأسئلتها المتعددة :

— اتعني انك تود ان تقول ان العذراء الطاهرة ظهرت في ريزان ؟

فكان يجيب واثقا :

وزحفت على طول الشارع موجة من ضنى ناعس غير مشعور بها ضيقت الخناق على قلبي ، وراحت تعمل على اغلاق عيني . لو ان جدتي تأتي فقط! او حتى جدي أيضا ! أي رجل كان ابي حتى يبغضه خلاي وجدي هكذا ، في حين تتحدث جدتي وجريجوري والمربية يفجينا عنسه بكل ما هو جميل ولطيف ؟ واين هي والدتسي ؟

أضحيت ، في المدة الاخيرة ، افكر فيها أكثر فاكتر ، اتصورها بطلمة سائر قصص جدتي وأساطيرها . وكان صدوق ابي عن العيش مع عائلتها يكفي وحده ليرفع من قدرها في عيني ، ويضاعف من احترامي لها ، فأتحيل انها تحيا مع عصابة من قطاع الطرق في أحد الحانات ، يسرقون الاغنياء ويوزعون ما نهبوه على الفقراء من الناس ، او لعلها تعيش في كهف في الغابة، مع عصابة من اللصوص طيبي القلوب طبعاً ، تطبخ لهم طعامهم وتحرس ذهبهم المسروق ، او اني اراها هائمة على وجه الارض ، تضرب في أرجائها وتعدد كنوزها مثل بنجانيثشيفا « الاميرة اللصة » ، تصحبها العذراء المقدسة التي تهمس لها باستمرار ، كما كانت تفعل للاميرة اللصة :

« أنا لم أجرد أرضنا عيشاً ،

مما حواه كنزها الذهبي ..

يا من سرقت المال لاهية ،

قومي ، واخفي المعار ، وانتحبي ! »

فتجيبها والدتي بكلمات الاميرة اللصة :

« اغفري لي ، أم الاله ، طموحي ،

وارحمي نفسي ، واصفحي عن ذنوبي !

فأنا لم اسرقه من اجل روحي ،

انما كان لابني المحبوب ! »

وعندئذ تتسامحها العذراء المقدسة . وهي التي نحمل قلبا نقيًا طيبًا
كقلب جدتي ، ونقول لها :

« دعني الكهف ، فارفرتي ، واخجلي ،

وهيا اتركي الان اولئكنا !

ولا تسرقي مال جارك الا

اذا كنت محتاجة ذلكنا !

واياك ان تلعنسي ابدا ! ...

واياك ان تظلمي احدا ! ... »

وغرقت في ذكريات هذه الاساطير كما يفرق المرء في حلم لذيد عذب .
ولكن زعانا ، وضجيجا ، وهتافات واردة من الحانة والساحة في الاسفل
بمثنئي من غفوتي ، فانحنيت على حافة النافذة لارى جدي ، والخال ياكوف ،
وشخصا اخر من مستخدمي الحانة تبعث هيئته على الضحك ، يدفعون
الخال ميخائيل التهل خلال البوابة الى الطريق . كان يشق طريقه متعثرا ،
فيركلونه ، ويلطمونه على الذراعين ، والقفأ ، والكتفين ، حتى ذهب أخيرا
بتدحرج في غبار الطريق ... وأغلقت البوابة وارتجت بالمزلاج والمقراس ،
والقي بقبعة الخال السكران من فوق الحاجز . ثم اضحى كل شيء هادنا
صامتسا .

وبعد أن اضطجع خالي ميخائيل المنهول المهلهل ساكنا فترة من الزمن .
عاد فانتصب على قدميه ، وتناول حجرا من الارض تذف البوابة به محدثا
بذلك دوبا أشبه بصوت برميل فارغ على الارض ، فاندفع من الحانة اناس
سود الوجوه ، يتزاحمون ويشربون باعناقهم وهم يحركون أذرعهم فسي
الفضاء ، كما اطلت بعض الرؤوس من نوافذ المنازل ، وأصبح الشارع يعج
بالصياح والضحك . كان كل ذلك ساحرا حلوا كاحدى اساطير الجنيات ،
لكن مزعجا في الوقت ذاته ، ومخوفا ايضا ...

وعلى حين غرة انتهى كل شيء ، وانصرف الجميع ، وخيم السكون . . .
... وهذه جدتي متكورة على صندوق للثياب ، محدودبسة الظهر ،
عديمة الحركة ، تكاد لا تتنفس ، وأنا أقف قبالتها أربست على خديها الناعمين
الدافئين النديين ، دون أن تلقي فيما يبدو الى ذلك بالا ، وهي تتمتم بأشياء
بأشياء كثيرة :

— رياه العزيز . ألم يكن لديك ما يكفي من العقل لتوزعه علينا ، أنا
واولادي ؟ رياه ، كن رحوما بنا . . .

. . .

احسب ان جدي لم يعيش في منزل بوليفوى اكثر من سنة واحدة — من
الربيع الى الربيع فقط . ولكن الدار اكتسبت ، في تلك المدة القصيرة ، شهرة
سيئة للغاية . فكان الصبية يأتون بوابتنا متراخين متزاحمين ، في كل احد
تقريبا ، فيتجهرون ويأخذون بالهتاف مبتهجين مرحين :

— هناك معركة جديدة في دار آل كاشرين !

وكان الخال ميخائيل يأتي ، بصورة عامة ، في كل مساء تقريبا ويبقى
طوال الليل ، جاعلا من المنزل هدفا لحصاره ، ومن سكانه غريسة للقلق
الدائم . . .

وغالبا ما يصطحب . معه مساعدين أو ثلاثة ، وهم فتيان بائسون
يستخدمهم في معمل كوناينو ، فيتسلقون السور سوية ، ويهبطون الى
الحديقة حيث يطلتون العنان لما يمليه عليهم خالى الثمل ، فيقتلون جذور
الفريز ، والاغصان الخضراء ، وكل ما يقع في مساول أيديهم . وفي ذات
مساء ، انقضوا على غرفة الغسيل يحطمون كل ما يمكن تحطيمه فيها ، من
الرفوف حتى المقاعد والقذور . وأخذوا معهم الموقد بعد ان اقتلعوا بلاط
الارض ، وخلعوا الباب وأخشاب النوافذ .

وكان جدي يقف الى النافذة ، صامتا ، مكنهر الوجه ، يصفي اليهم وهم
يدمرون ممتلكاته ، أما جدتي فتركض عبر الساحة ، حيث تغيب في الظلمة
فلا يبلغنا منها سوى صوتها المتوسل .

— ميخائيل ! فكر فيما تفعل ، يا ميخائيل !

انتقلنى الجواب سلسلة من الاوساخ والشتائم الروسية البلهاء التي يتجاوز معناها ، من دون أدنى ريب ، افهام ومشاعر تلك الحيوانات التي تقسىء بها .

لم يتبادر الى ذهني ابدا ان الحق بجديتي في مثل تلك اللحظات : كان ذلك مستحيلا ، ولكن البقاء دونها أمر مرعب حقا ، فامضي الى غرفة جدي ، ولكنه يزعق في وجهي بقسوة :

— اخرج من هنا ، ايها الملعون !

فأسرع الى الطابق العلوي ، اتفرس في ظلمة الحديقة ، مثبتا بصري في جديتي ، ساعيا الا تضبعها عيناى ، وأنا اصيح واناديها خوفا من ان يفتكوا بها . ولكنها تأبى الرجوع ، بينما بطلق خالى الثمل على امي ، لدى سماعه صوتي ، كل ما في جعبته العامرة من الشتائم الدنسة والسباب البذيء .

وحدث ان مرض حدي ذات مساء ، فتهدد في فراشه وراح يعول بشكل يقطع بباط القلب ، وهو يؤرجح رأسه الى الامام والخلف فوق الوسادة :

— اهذا ما عشت له ، واخطات من اجله ، وادخرت المال في سبيله ؟ لولا الخوف من العار لاستدعبت الشرطة ، وسقتهم امام المحكمة . . . يسا للفضيحة ! من ذا الذي سمع ابوين يسلمان اولادهما للشرطة ؟ لم يبق امامك اذن ، ايها العجوز ، الا ان تتحمل كل شيء او تظل مضطجعا هنا دون حراك ! . . .

وفجأة رمى قدميه عن حافة السرير ، ومضى يخسب الى النافذة . فصاحت جدتي ، وقد أمسكت به من ذراعه :

— قف ، الى ابن انت ذاهب ؟

فأمرها ، وهو يكاد يختنق :

— اعطني قنديلا !

فأشعلت جدتي شمعة قدمتها اليه ، فأمسك بها كالجندي اذ يمسك

بندقيته ، وصاح هازنا من خلال النافذة :

— تفو ، مبشكا ! يا سارق الليل ! ايها المجنون ! ايها الكلب المستكلب !

ماذا بلوح من زجاج النافذة يتهشم في اللحظة نفسها ، وتقع نصف آجرة على المائدة قرب جدتي . فهتف جدي في حالة لم أدر على الضبط ان كانت بكاء أم ضحكا :

— لقد اخطأت الهدف !

مالتقطته جدتي بين ذراعيها كما تفعل بي ، واحتملته الى السرير ، وهي

بغمغم بصوت مرنجف :

— ماذا تفعل بحق المسيح ؟ لو حدث شيء لكانت سييريا تنتظره !

انتظنه يدرك ماذا تعني سييريا عندما يكون في مثل هذه الحال ؟

واضطجع الجد . ترتجف ساقاه ، وهو يبكي بصوت خشن :

— فليقتلني ...

ودندف من الخارج صوت زمجرة وغضب وصخب ... فاخترقت قطعة

الاجر عن الطاولة ، وركضت الى النافذة ... ولكن جدتي أمسكت بي ، ودفعنني الى الزاوية ، وهي تفتح :

— أبها الأبله الصغير !

وفي مرة ثانية تسلق خالي الباب الخلفي ، وشرع يضرب عليه بهراوة

غليظة ، ووقف جدي في الصالة ينتظره ، يعضده اثنان من الجيرة ، يحمل كل منهم هراوة في احدى يديه . وكانت هناك أيضا زوج صاحب الحان البدينة ، تحمل حبلا طوبسلا مدورا . أما جدتي فقد وقفت خلف الجميع تتوسل :

— دعوني أهل اليه ... دعوني اقل له كلمة واحدة ...

ورفع جدي هراوته متهيئا لكل طارئ ، وقد مد قدما الى الامام ،

فاضحى بذلك شبيها بالفلاح حامل الرمح في لوحة « صياد الدببة » . وعندما

مضت جدتي اليه دفمها عنه ، بصمت ، بقدمه ومرفقه ... كانوا ، أربعتهم ، يقفون في وضع وعيد ، وتهديد ، وارتقاب ... وكان قنديل مثبت في الحائط فوق رؤوسهم يضيء وجوههم بشعاعاته المتلونة . أما أنا ، فوقفنا أراقب ذلك من الطابق العلوي ، تعممني الرغبة في أن أخطف جدتي الى جانبي ، بعيدا عن ذلك المكان المرعب .

ظل خالي يضرب الباب ثائرا ، حتى تحطمت مفصلته السفلية وانهارت فتركته معلقا بالمفصلة العلوية وحدها ، وهي الأخرى تهدد بالانهيار بين لحظة وأخرى . واتجه جدي الى معاضديه ، وقال لهم بذات الصوت المتكسر:

— اضربوه على بديه وساقيه ، وحذار من اصابعه في رأسه . انتبهوا !

كان بالقرب من الباب نافذة صغيرة لا تسمح لأكثر من الرأس بالمرور من خلالها ، فكسر خالي زجاجها ، وتركها فاعرة فاهما في الظلمة ، مزركشة بشظايا الزجاج المكسور كعين مقلوعة . فركضت جدتي الى هذه النافذة ودفعت يديها خلالها ، ولوحت بهما لميخائيل وهي تقول :

— ميشا ، بحق المسيح ، أرجع من حيث أتيت ! سيعطلون أحد أعضائك أن بقيت ! أرجع ! ...

ولكنه ضربها بهراوته ... واستطعت أن أرى شيئا ثقيلًا يومض قرب النافذة يصيب ذراعها ، فاذا بها تسقط على الأرض ، وهي تصيح مرة ثانية:

— ميشا ، اهرب ...

ثم تكومت على نفسها ، وصمتت ...

وصرخ جدي ، في صوت مخوف :

— آه ... أماه !

وفتح الباب ، واندفع خالي ميخائيل منه الى الداخل ، ولكنه سرعان ما ترنح وسقط على العتبة كذئبة من طين .

وحملت زوج صاحب الحان البدينة جدتي الى غرفة جدي حيث تبعها بعد قليل ...

سال مفتحا ، وقد انحنى عليها :

— هل كسر العظم ؟

فأجابت ، دون ان تفتح عينيها :
— يبدو كذلك ! ولكن ، ماذا فعلتم به . ماذا فعلتم به ؟
نصاح الجد غضبا :

— استردي عقلك ، يا امرأة ! اتظنين انني وحش مفترس ؟ لقد قيدناه ،
وهو يضطجع الان في الخارج ، في الاسطبل . لقد صببت سطلا من الماء على
وجهه . . . يا لذلك الشيطان الذي انجبته ! ترى من أين جئت به ؟
فتأوهت جدتي . . .

وقال جدي ، وهو يجلس الى جانبها على السرير :

— لقد ارسلت في طلب المجبرة ، حاولي ان تتحملي ذلك بعض الوقت .
انهما سيحملان الموت الينا ، يا امه ! انهما سيؤديان بنا الى المقبرة قبل ان
بحين اجلنا !

— اعطهما كل شيء .

— وفارنارا ؟

استمرا في الحوار مدة طويلة ، جدتي بصوتها المهاديء الحزين ،
وجدي بصوته النزق الغاضب .

وأخيرا ، ظهرت امرأة صغيرة حدباء ، يمتد فمها من الاذن الى الاذن ،
مفتوحا أبدا كفم السمكة فوق فكها الاسفل الذي يرتجف دون انقطاع ،
يشطر منخر حاد بارز شفتيها العليا حتى ليخيل الى الناظر اليه انه يسعى
الى الارتواء في احضان الجوف الفاجر فاه . أما عيناها فصغرتان غائرتان ،
تستحيل رؤيتهما . ولم تكن تمشي ، بل تزحف بالاحرى على الارض متكئة
على عكازين ، وهي تحمل في احدي يديها حزمة صغيرة يصدر عنها رنين
غريب . . .

ظننت انها الموت يزحف نحو جدتي ، فاندفعت اليها اصيح بكل ما في
من قوة :

— أخرجي من هنا !

لكن جدي اختطفني ، وحملني بين ذراعيه ، وصعد بي الى العلابق
المعلوي .



أدركت في وقت مبكر جدا ان اله جدي يختلس كل الاختلاف عن اله
جدتي . فقد كانت هذه الجدة ، بعد أن تستيقظ صباحا ، تظل في السرير مدة
طويلة تمشط شعرها المدهش ، فيهتز رأسها ، وتصر أسنانها ، وهي نسرح
خصله الحريريّة السود الطويلة ، وتلعنها بصوت خفيض خشية ايقاظي :

فليصبك الجدري ... فليصبك الطاعون ... فلتحل اللعنة عليك ..

ركانت تصدف أجبانا عن تصفيفه فتجمعه ، دون عناية ، في جدبسة -
واحدة ، ونعجل بالاغتسال ، وجمجمة غضب تند عنها طوال الوقت ، ثم
نجتو تجاه الايقونات دون ان يمحي عن وجهها العريض ما ارتسم عليه من
آثار الغيظ والنوم . وعندئذ يبدأ اغتسالها الحقيقي الصباحي الذي ينعشها
تماما ، ويرد عليها ، بصورة مفاجئة ، حيويتها كاملة غير منقوصة ... وإذا
بها تقوم عمودها الفقري ، وتشمخ برأسها الى العسلء ، وترمي به السى
الخلف، قليلا ، وترنو بحنان الى وجه عذراء تازان الدور ، ومن ثم ترسم
اشارة الصليب بحماسة زائدة وهي تهمس :

— أيتها العذراء المباركة ، يا لم الاله الجيدة ، امنحينا بركاتك في هذا
اليوم الجديد ...

ثم تنحنى حتى تلامس جبهتها الارض ، ومن ثم تنهض ببطء ، وتعود
تهمس في حمية عظيمة ، وحنان متزايد أبدا :

— يا ينبوع السعادة والفرح ، أيها الجمال الطاهر ، يا شجرة تفاح في
أوج ازدهارها ...

كانت تجد في كل صباح كلمات جديدة من المديح والعبادة ، مما يجعلني

اعني بصلواتها ، فأعيرها اذني بانتباه زائد :

— أيها القلب العزيز الفائق الطهارة والالوهية . . . يا ضياء نفسي ،
يا حارسة مأواي ، يا شمس السماء البهية الذهبية ، يا أم الحبيبة ، انقذينا
من تجارب الشيطان الماكر ، واحميني من أن أهين أحداً ، أو أتلقى الاهانة
من أي انسان دون ضرورة او فائدة

وتبرق ابتسامة لطيفة في عينيها السوداوين ، فيخيل الي انها تستعيد
صباها وشبابها ، ثم ترسم اشارة الصليب بحركة رزينة من يدها الثقيلة ،
وتستطرد :

— يا يسوع الحبيب ، يا ابن الله ، ارحمني أنا الخاطئة بشفاعمة
والدتك الطاهرة . . .

كانت صلواتها ، دوماً ، ذبائح من التمجيد والثناء ، تصدر عن قلب نقي
ساذج طاهر . . . ولم تكن تطيل صلاة الصباح كثيراً ، اذ لا بد من القيام
الى أعمال البيت ، وفي المحل الاول تهيئة السماور ما دام جدي قد استغنى
عن معونة الخدم ، فاذا حدث ان تأخر شاي الصباح عن الموعد المحدد
كافاها جدي بسيل من اللوم والتقريع لا ينتهي .

كان يستيقظ ، في كثير من الاحايين ، قبل جدتي ، فيصعد اليها في
المطابق العلوي حيث يجدها غارقة في صلواتها ، فيرهدف السمع بعض الوقت
في سكون ، وقد تراقصت على شفتيه الضيقتين ابتسامة احتقار ، ثم يخاطبها
— فيما بعد — ونحن نتناول طعام الإفطار :

— كم مرة علمتك الصلاة ، أيتها الغبية المعجوز ؟ ومع ذلك فأنت
تصرين ، في عناد ، على تلاوة سخافات من ابتكارك كما يفعل الهراطقة تماماً!
كبق يستطيع الله ان يرضى بذلك ؟ هذا ما يفوق ادراكي !

فتجيب جدتي في ثقة :

— أما هو فهمهم . . . فالمرء يستطيع ان يقول له كل ما بشاء ، وهو
بفهمه بكل تأكيد . . .

— أنك لمجنونة ، تلك هي حقيقتك ! تفسو !

كان الهها يصحبها طوال اليوم ، حتى انها تحدث الحيوانات عنه .

وكنت أشعر أن سائر المخلوقات ، من بشر ، وكلاب ، وطيور ، ونحل ، وحتى النباتات أيضا ، تخضع لذلك الاله القادر على كل شيء في غير عسر او صعوبة ، اذ كان لطيفا لكل حي على الارض ، وعززا عليه بالتالي .

وحدث ، ذات يوم ، ان قط زوجة صاحب الحان المدلل — وهو حيوان شرير ، سيء الطباع ، رمادي اللون ، ذهبي العينين ، يحبه الجميع بالرغم من انه خبيث متملق ، ولص اكل جشع بالاضافة — حدث ان هذا القط اصطاد أحد الزراير ، فانتزعت منه جدتي الطائر المسكين ، واتجهت اليه غاضبة توبخه بقولها :

افلست تخاف الله ، ايها الحيوان الشنيع ؟ تلك هي مصيبتك ، ايها البائس !

فضحك البواب وزوج صاحب الحان البدينة من جدتي لهذه الكلمات ، ولكنها صاحت فيهما بنزق :

— اتظنان ان الحيوانات لا تعرف الله ؟ ان اقلها قيمة يعرفه كما تعرفانه ، انتما ايها المخلوقان الفظان !

وعندما كانت تترج الحصان « ساراب » السمين ، لم تكن تتأخر عن النحدث اليه :

— لم انت حزين هكذا ؟ لم انت حزين هكذا ، يا خادم الله ؟ لقد هرمت على ما اعتقد ؟ ...

فيزغر الحصان ويهز رأسه ...

ولكن اسم المولى ، بالرغم من ذلك كله ، لم يكن يتردد على شفيتها بمقدار ما كان جدي ينطق به . ولقد اصبحت افهم اله جدتي ، فلم يعد يخيفني البتة ، ومع ذلك كنت لا استطيع الكذب في حضرته : تلك تكون فضيحة اذن ! واتقاء لهذا العار لم اكذب على جدتي أبدا . ولقد كان يستحيل تماما ، بالاضافة ، اخفاء اي شيء عن ذلك الاله اللطيف ، وفي ذكرياتي اني لم أشعر قط يميل الى ذلك .

وحدث مرة ان تخاصم جدي وزوج صاحب الحان ، فشملت هذه جدتي البريئة في قدحها وذمها ، لا بل بلغ الامر بها ان ضربتها بجزرة كبيرة ، فلم تفعل جدتي اكثر من ان قالت لها :

— انك حمقاء ، يا سيدتي العظيمة !

ولكني استنأت كثيرا من تصرف تلك المرأة تجاه جدتي ، وقررت ان اتأمر لها . . . فظللت ، مدة طويلة ، افتش عن احسن طريقة انال بها من تلك المرأة المدينة ، الحمراء الراس ، المزوجة الذقن ، والتي كان يستحيل على الانسان ان يرى عينيها الغارقتين في كتل الشحم الكثيفة .

كنت اعرف ، من مراقبتي لسائر مراحل الحروب المهلكة التي تنشب بين الجيران ، ان الثأر يكون عادة اما بقطع اذنان القطط ، او تسميم الكلاب ، او قتل الفراخ الصغيرة ، او التسلل الى اقبية العدو ليلا وصب الكاز في براميل مخلال الخيار والملفوف واواني المؤونة ، او نزع السدادات عن براميل الكفاس الصغيرة . ولكن هذه الطرق لم ترق لي : كان لا بد من اختراع شيء جديد اكثر تأثيرا ، واشد هولاً .

واخيرا قر رأيي على التدبير التالي : انتظرت مرة زوج صاحب الحان المدينة حتى سعت الى القبو طلبا لحاجة ما ، فاغلقت الباب خلفها واتقلته ، وقمت برقصة الثأر عنده ، ثم القيت بالمفتاح على السقف . ومن ثم اندفعت باقصى سرعة الى المطبخ حيث كانت جدتي تهيء الطعام . ولم تفهم بادىء الامر سببا لحماستي ، حتى اذا اكتشفت ذلك صفعتني عدة مرات على الامكان المعبنة لهذا الغرض ، ثم جرتني الى الساحة وارسلتني الى السطح طلبا للمفتاح . فجننت به صامتا ، مذهولا من هذه الخاتمة غير المنتظرة ، ثم هربت الى احدى زوايا الساحة ، حيث رحمت اراقب جدتي تطلق سراح الاسيرة التي جاءت الي برمقتها ، وكتاهما تضحكان برقة ، فكأنهما صديقتان حميمتان .

وهددتني زوج صاحب الحان المدينة ، وهي تهز قبضتها الغليظة هـي وجهي ، وان ظل وجهها الابله يبتسم بلطف وحنان ووداعة :

— سوف انتقم منك يوما ما ، ايها العفريت الصغير !

وجرتني جدتي من عنقي ، وقادتني حتى المطبخ ، وسالت :

— لم فعلت ذلك ؟

— الم تضربك بجزرة ؟

— آها . . . لقد فعلت ذلك من اجلي اذن ، اليس كذلك ؟ سأحفظ ذلك لك ، ابها الصغير ، فارميك تحت الموقد بصحبة الفيران ، وعندئذ تسترد بعض الاحساس ! لقد جعلت من نفسك فارسا اذن ! تعالوا يا قوم وانظروا هذه المفقاعة قبل ان تنفجر ! . . . ولو اخبرت جدك بذلك ، افلن يسلسخ الجلد عن ثفاك ؟ هيا ، اسرع الى الطابق العلوي الان والسق نظرة على كتبك . . .

لم تحدثني أبدا ببقية ذلك النهار ، لكنها جلست مساء ، قبل ان تجثو للصلاة ، على حافة سريرى ،وقالت هذه الكلمات التي لن انساها :

— اصغ ، ابها الطير الصغير ، وتذكر دوما ما سأقول لك : لا تتدخل ابدا في امور الكبار ، فالكبار جماعة شريرة مفسودة امتحنتها المعقبات والتجارب ، أما انت فضعيف بعد ، وعليك اذن ان تعيش حسب سنك الصغيرة ومعلوماتك الحاضرة ، وتتصرف حسب ما يمليه عليك قلبك الطاهر حتى يجد الرب من الموافق ان يلمس قلبك ، ويبين لك واجبك ، ويقودك الى الدرب التي يجب ان تسير عليها . . . افاهم أنت ؟ فالله يحكمم ويقتص ، وذلك شأنه وليس شأننا ! اما من يستحق اللوم على هذا الامر او ذاك فليس من شأنك ابدا !

والتجأت الى الصمت لحظة استنشقت خلالها بعض السموط ، ثم ضيقت عينها اليمنى ، واضافت :

— واؤكد لك ان الله نفسه يصعب عليه ، في اغلب الاحيان ، ان يميز البريء من المذنب . . .

فسألت مدهولا :

— لم ، الا يعرف الله كل شيء ؟

فأجابت بكآبة :

— انه لو كان يعرف كل شيء ، اذن لامتنع الناس عن ارتكاب العديد من الامور . انه يجلس هناك في السماء ، يراقبنا نحن الخطاه على الارض ، وكثيرا ما يذرف بعض الدموع ، وهو يتأوه ويقول : آه ، يا ابناي ، يا ابناي الاحباء المساكين ! لكم يتألم من اجلكم قلبي !

وبكت بدورها ، ثم مضت ، دون أن تجفف عينيها ، الى زاوية الايقونات وشرعت بالصلاة . . .

ومنذ ذلك الحين ، امسى الهها عزيزا على قلبي وغاليسا اكثر من ذي قبل ، واقرب الى ادراكي وفهمي ايضا . . .

• • •

كان جدي يعلمني في دروسه ان الله يعرف كل شيء ، ويرى كل شيء ويوجد في كل مكان ، وهو على استعداد لمساعدة الناس في سائر مشاكلهم الطارئة . ولكنه كان يصلي باسلوب يختلف كثيرا عن اسلوب صلاة زوجه . . . فهو ، قبل ان يتلو صلاته صباحا ، يغتسل بعناية ويرتدي ثيابه ، ويصف شعر رأسه ولحيته الحمراء بتأنق مائق ، ولا يتجه نحو زاوية الايقونات — الامر الذي يفعله خلسة دوما فيما يصور لي — الا بعد ان يصلح من وضع قميصه امام المرآة ، ويعقد ربطة عنقه السوداء فوق صدريته الناصعة الميائض وكان يقف ، على الدوام ، في ذات البقعة من الارض الخشبية حيث تركت اقدامه اثرا يشبه عين الحصان الى حد بعيد ، فيسمر ذراعيه الى جانبيه كالجندي ، ويظل متزرة من الوقت غارقا في بحر من الصمت عميق ، خائسع الرأس ، منتصب القامة ، نحيل الجسد ، اشبه ما يكون بمسار كبير ، ثم يتم بتأثر :

— باسم الاب والابن والروح القدس !

وكان يخيل الي ان سكونا خاصا يرين على الغرفة بعد تلك الكلمات — حتى ان الذباب نفسه يروح يوز بهدوء اعظم ! . . .

ويرمي برأسه الى الخلف حتى توازي لحيته الذهبية الارض ، ويعمد ما بين حاجبيه ، ويأخذ بتلاوة صلواته بصوت رزين وكأنه يستعيد أمثلة عليه ان يحفظها عن ظهر قلب ، وهو يشدد على الكلمات كمن يضمن بها :

— وسيجيء يوم الحساب ، على غير انتظار ، وعندها تنكشف اعمال البشر . . .

ويشرع يضرب صدره بلطف ، ثم يلتمس قائلا :

— قدام وجهك ، قدام وجهك وحدك اخطأت ... فاصرف وجهك عن خطاياي ...

واذ ينلو « دستور الايمان » تنطلق الكلمات من فيه باندفاع وعزم وتأخذ ساقه اليمنى بالارتجاج زمنا طويلا ، ويميل جسده كله في اتجاه الايقونات ، ويبدو كما لو كان يكبر ، وينحل ، ويقسو ...

— انت ، يا من ولدت المخلص العظيم ، طهري قلبي من جميع الخطايا واصفي الى انين نفسي ، واغفري لي يا ام الاله الطاهرة !
ثم يبكي بهدوء ، وتلتهمع الدموع في عينيه الخضراوين :

— يا الهي ، دع ايماني ينب عن اعمالي ، وامح كل ماثمى ...

ومن بعد يرسم شارة الصليب عدة مرات ، بسرعة وارتعاش ، ويحني رأسه مثل تيس يناطح . ويتحدث بصوت باك كئيب ... وعندما سنحت لي الفرصة ، فيما بعد ، لزيارة مجامع اليهود ، ادركت ان جدي لا يختلف في صلاته عن احد الاسرائيليين ...

كان السماور يغلي منذ زمن بعيد على الطاولة ، وقد امتلأت الغرفة برائحة كحك الجاودار الحار والقشطة الطازجة . ان معدتي لتعوي من الجوع ... وقد وقفت بجدي مستندة الى الباب تتشعب وتكثر ، ترنو الى الارض لا تحيد بنظراتها عنها ، والشمس تطل جذلانة فرحانة من خلال النافذة ، والندى يتضوأ كاللؤلؤ على الاشجار ، ونسيم الصباح العليل يحمل رائحة طرية من نبات الشمار ، والزبيب ، والتفاح الناضج .

ولكن جدي يتابع عويله ونواحه ، وهو يتلو صلواته :

— اطفئ نار اهوائي لانني بائس ملعون !

كنت احفظ صلاة السحر التي يتلوها ، وكذلك صلاة الغروب عن ظهر قلب ، ولذا كنت اتأثره بانتباه مركزا املا في ان يخطيء مرة او ينقص منها شيئا ، ولو كلمة واحدة فقط . وكانت تلك الفرص نادرة جدا ، ولكنها توظف في دوما احساسا خبيثا بالنصر .

وعندما ينتهي جدي من صلاته ، يلتفت الينا ، ويلقي السلام :

— انعمتها صباحا !

- فنحنني ، ثم نتخذ اماكننا من المائدة . . .
- قلت مرة ، وقد استدرت ناحيته :
- لقد اسقطت اليوم كلمة « يكفيني » من صلاتك .
- فسال مرتابا :
- بنقا ؟ اوافقك انك لا تكذب ؟
- نعم ! كان يجب ان تقول : « ولكن ايماني بكفيني فاستغني بـ كل شيء . . . » . ولكنك اسقطت كلمة يكفيني .
- فقال : وهو يطرف شزرا :
- هم ! .
- كنت اذفع غالبا ثمن ملاحظاتي هذه : ولكنني اشعر بالخفر والـ طالما اجده متضايقا مرتبكا .
- وذات يوم ، قالت جدتي مازحة :
- لا ريب ان الاستماع الى صلواتك امر يبعث على الملل بالنسبة لله ، يا ابناه ! فانت تردد دوما الاشيء نفسها .
- فتشدد بكلامه متوعدا :
- . . . ا . . . ذا ؟ بماذا تهذين ؟
- اتقول اني لم اسمعك ، منذ معرفتي بك حتى اليوم ، تخاطب بكلمة واحدة من عندك صادرة عن قلبك
- فاحمر وجهه ، واخذ يرتجف فوق مقعده ويرقص ، ثم يثفز على ورمها باحد الصحون الصغيرة ، وطفق يزعم كمنشار يقطع زجاجا :
- اخرجني من هنا ، ايتها الساحرة العجوز !
- كان كلما حدثني عن قوة الله التي لا تقهر ، يشدد في الدرجة على فسوته وهول غضبه . مثلا ، ان الناس قد اخطأوا مرة فاغرتهم في الطوفان ، واخطأوا مرة ثانية فاحرق الله مدنهم ودمرها ، وفي مرة ثـ عوقبوا بالمجاعة والبطاعون فوق رؤوس الاشرار .

كان يحذرني ، وهو يقرع الطاولة باصبعه المنعظمة :

— ان كل من يخرق قوانين الله لا بد ان تكون عاقبته سيئة . فيحل الشقاء والخراب في داره .

وكان الايمان بقسوة الله يصعب علي جدا ، فارناب في ان جدي يخلف تلك الاحاديث ليعت في ليس مخافة الله ، بل مخافته هو ...

سألته بصراحة ذات يوم :

— اتخبرني بهذه الامور لتجعلني اطيعك وحدك ؟

فأجاب بصراحة مماثلة :

— بالطبع ! ان شيئاً عظيماً سيحدث ان لم تطع ...

— ولكن جدتي ...

فأجاب بحدة :

— لا تلق بالا لتلك الحمقاء . لقد كانت طوال حياتها مجنونة ، جاهلة ، عديبة الحس السليم ، امية ... وسأمنعها من التحدث اليك بمثل هذه الاثياع الهامة . والان ، اوجب على هذا السؤال : كم طبقة يوجد بين الملائكة ؟

فأجبت ، ثم سألت :

— ماذا تعني هذه الكلمات : « فرد من الطبقة الراقية » ؟

فنفخ بمنخره ، اسبل جفنيه ، وعض شفته ، وصاح :

— اوجب ان تلم بكل شيء ؟

ثم شرح لي ذلك ، بعد لحظة قصيرة ، بصوت متردد :

— ان ذلك لا يتعلق بالله ، بل هو من خصائص البشر — افراد من الطبقة الراقية — انهم امثال موظفي الحكومة . فالموظف هو احد الذين يعيشون من القوانين ويلتزمون بها ...

— اية قوانين ؟ وما هو القانون ؟

فأجاب الشيخ ، وقد مضت عيناه الحادثان الئدبتان باللذة :

— القانون ؟ انه ، على حد تعبيرهم ، الشيء الذي يتخذه الناس عادة . فالناس يعيشون سوية ، ويتفقون فيما بينهم على ان هذا الاسلوب أو ذاك ، مثلا ، أفضل ما يسرون عليه في التعامل مع بعضهم البعض ، ولذلك يتخذون منه عادة ، ويجعلون منه قاعدة ، أو قانونا كما يسمونه ، مثلهم في ذلك مثل جماعة من الصبيان يتجهرون ليلعبوا لعبة ما ، ويقررون بسين بعضهم كيف سيلعبون ، فهذا الذي يقررونه يسمونه القانون .

— والموظفون ؟

— انهم يشبهون الاولاد الشريرين الذين يخرقون القانون ، مع ان حراسه اوكلت اليهم .

— ولم ؟

فقال ، وهو يزمجر :

— ذلك ما لا تقدر ان تفهمه ! انك اصغر من ان تعرف هذه الامور ثم يعود الى متابعة الدرس :

— ان الله يراقب اعمال الجميع . وهم يريدون شيئا ، وهو يريد شيئا اخر . ولكن ارادة الانسان مزعزعة سريعة العطب ، ويكفي ان ينفخ الرب عليها حتى يتبدد كل شيء مع الريح فكانه الهباء المنثور .

كانت هناك عدة اسباب هامة تدفعني الى الاهتمام بالموظفين ، ولذا تشبثت بوجهة نظري ، وعدت الى الكر قائلا :

— ان هناك اغنية يرددها الخال ياكوف تقول : « الملائكة الابرار هم خدم الله . . . وموظفو الحكومة هم عبيد الشيطان ! » .

فأغلق جدي عينيه ، ووضع لحيته في راحة يديه ثم دفعها في نفسه . كنت أستطيع ان الحظ ، من ارتجاف خديه ، انه يضحك في سره . قال :

— يجب ان توضع أنت والخال ياكوف في كيس من الخيش ثم يلتقى بكما في النهر . ما شأنه حتى يغني مثل هذه الاغنيات ، وما شأنك حتى تستمع

المية ؟ انها دعايات وضعها الهراطقة والمنشقون عن الكنيسة — وهم جماعة
من الماجنين الاشرار .

ثم حلق في لحظة ، واضاف وهو يتنهد :

— تفو ! يا لهم من قوم !

كان يضع الهه عاليافي السماء ، يشرف من هناك على سائر أعمال
البشر ، ويشركه مع ذلك في سائر اعماله . مع عدد لا يحصى من القديسين ،
وكذلك كانت تعمل جدتي بالها الخاص ، وان كانت تجهل ، فيها يبدو ،
القديسين جميعا ، اللهم الا نيقولاوس ، وجاورجيوس ، وفرولا ، ولعازر ،
وهم جميعا لطفاء طيبون ، قضوا حياتهم في التنقل من قرية الى قرية ، ومن
مدينة الى مدينة ، يساعدون الناس ويقاسمونهم مصائبهم فلا يخلفون عنهم
في شيء ، ولا يميزون بأي عمل متفوق . وبالمقابل ، كان سائر قديسي جدي
من الشهداء الذين حطموا التماثيل ، وقاموا ضد القياصرة واباطرة روما ،
ولذلك عذبوا او احرقوا على الخازوق ، او سلخ جلداهم عنهم وهم احياء .

— لو يساعدني الله فابيع هذه الدار بربح خمسمائة روبلا ، اذن لاقمت
قداسا احتفاليا للقديس نيقولاوس !

متضحك جدتي ، وتهمس في اذني :

— يا لذلك الاحمق العجوز ! ايظن ان لا عمل لنيقولاوس الا ان يبيع
المنازل له ويبتاعها ؟!

بقيت طويلا محتفظا بتقويم جدي الكنسي ، وقد كتب في حواشيه
ملاحظات متباينة بخط يده . ففي الصفحة المقابلة لعيد يواكيم وحنة مثلا ،
كتب بالحبر الاحمر : « لقد تخلصنا ، بفضلها ، من بلية عظيمة » . . . وأنا
اذكر حقيقة تلك « البلية » . . فقد أخذ جدي يتعامل بالربسا خفية ليساعد
ولديه اللذين اخذت اعمالهما تسوء يوما بعد يوم ، وبأخذ لقاء ذلك بعض
الحاجيات الثمينة رهنا وضمانة . . . فوشى به أحدهم الى الشرطة التي
هاجمت الدار ، ذات مساء ، وقامت بتفتيشها . . . وكان هرج عظيم ، ولكن
كل شيء انتهى على خير وجه من حسن الحظ . وظل جدي يصلي حتى بزغ

الفجر ، وفي الصباح ، قبل طعام الافطار ، كتب تلك الكلمات على النقود بحضوري .

• • •

كنا نقرا معا ، قبل العشاء ، فصولا من المزامير ، او مقطوعات من كتاب الصلوات ، او صفحات من مجلد ضخيم من تأليف يفرهم سيرين . فاذا انتهينا من العشاء ، عاد يصلي ثانية ، فتتوالى كلمات توبته المطردة الفظ زمتنا طويلا ، في سكون المساء ، على وتيرة واحدة :

— الرب وحده اعطى ، الرب وحده اخذ . . . ايها الملك المجد الذي يموت . . . لا تدخلنا في التجربة . . نجنا من الشرير . . ولتحلني دموعي من خطيئتي . . .

وكانت جدتي تقاطعه في أغلب الاحيان بقولها :

— اوه ، كم انا متعبة ! يبدو اني سأزحف الى الفراش دون ان اتلا صلاتي هذه الليلة !

ومما لا ريب فيه انني لم احسن هنا التعبير عن ذلك التمييز الصبيان الذي اقمته بين الالهين ، بل اعطيت عنه بالاحرى صورة اقرب الى السخف والعبث . وعلى كل حال فإن هذا التمييز سبب لي ، فيما بعد ، الشيء الكثير من النزاع الروحي . فاننا اخاف اله جدي واكرهه ، هذا الذي لا يحب احدا ، بل يسلط علينا حادة على سائر البشر ، وينصرف اهتمامه ، قبل كل شيء ، الى اكتشاف الشر والخطيئة والرذيلة في الانسان . وكنت أشعر بوضوح انه لا يؤمن بالناس او يثق بهم ابدا ، بل هو ينتظر منهم دوما التوبة . ويبتهج كثيرا اذ ينزل عقابه المصارم بهم . . .

وفي تلك الايام ، كان التفكير في الله يؤلف غذاء نفسي الرئيسي ، فهو الجمال الوحيد الذي لقيته في هذه الحياة ، بينا سائر الانطباعات الاخرى تصدمني ، او تؤلني بما فيها من رذيلة ووحشية . ان الله — وأعني به اله جدتي وصديق كل حي على الارض — لابهى وأفضل من كل شيء اخر يحيط به .

والغريب حقا ، وهذا ما كنت أعجز عن فهمه ، ان يمسى جدي عن هذا الاله الطيب القلب . . .

كان النزول الى الشارع محروفا علي لفرط ما كان يثريني ، لا بل يسكرني ان صح هذا التعبير . وقد كنت فيه محور الفضائح التي منشؤها حميتي ، وميلتي الى القتال ، وعصيانتي الدائب . ولذا لم ارب صداقات ابدا ، بل كان سائر أبناء الجيران يناصرونني العدا . وعندما لاحظوا اني اكره ان ادعى كاشرين ، اصبحوا يتلذذون باغاظتي فينادونني بذلك الاسم كلما لحوني من بعيد او قريب :

— ها هو ذا حفيد كاشرين ، ذلك البخيل العجوز ، آت الينا ! انظروا !
— ارموه ارضا !

وعندها تبدأ المعركة ...

كنت قويا بالنسبة الى عمري ، ومقاتلا جريئا ... حتى اعدائي كانوا يسلمون بذلك ، فلا يهاجموني الا مجتمعين ، فيتغلبون على علي الدوام بكثرتهم ، وانال من لوماتهم الشيء الكثير ، واعدوا الى الدار بانف نازف ، وشفتين مجروحتين ، ووجه مكلوم ، وثياب ممزقة ...

وفي البيت تستقبلني جدتي ، مرتجفة ، يفيض الحنان منها :

— ماذا ؟ احاربت ثانية ، ايها الجرذ الصغير ؟ ساطعك من الضرب ما لن تنساه ! فمن اين ابدا ؟

وتغسل وجهي ، ثم تضع قطعة من العملة النحاسية ، او بعض الامشاب ، او الاملاح الخاصة ، على جروحي وهي تدمدم طوال الوقت :

— ما الذي يدفعك الى القتال هكذا ؟ انت في البيت طفل هادئ ، ولكنك تنقلب عفريتا عندما تضع رجلك في الشارع . هلا تخجل ؟ ساخبر جدك فيحظر عليك بعد الان الخروج من البيت .

وكان جدي يلاحظ آثار الضرب والجروح فلا يغضب ، بل يقول بكل بساطة :

— هل ارتديت اوسمتك مرة ثانية ؟ يا للمحارب الشجاع ! لكن ، اياك ان تسمح لي بمفاجأتك في الشارع مرة اخرى ، اتسمع ؟

لم تكن لي رغبة في الخروج الى الشارع حين يخيم الهدوء والسلام

عليه ، فاذا ما بلغتني صيحات الاطفال المرحة ترتفع فيه ، نسيت تهديد الجد ووعيده ، وافلتت من ساحة الدار باي ثمن كان . ولم اكن اعني باثار الضرب والجروح ابدا ، بل اشمئز فقط واستاء من الوحشية التي تسيطر على العاب الاطفال ، وحشية اجدها تحت مختلف المظاهر ، فتثير غضبي ، ونفمتي ، وتسوقني الى ما يشبه الجنون . . . كنت اثور كلما رأيتهم يدفعون الديوك والكلاب الى قتال بعضها بعضا ، او يؤذون القطط ويمذبونها ، او يطاردون تطعان الماعز التي تخص اليهود ، او يكابدون المتسولين الثلثين ويسخرون منهم ، وخاصة ذلك المتقي ايجوشا الملقب بـ « حامل الموت في جيبه » .

كان ايجوشا هذا رجلا طويل القامة ، نحيل البنية ، عابس الوجه ، ذا لحيه خشنة تتركز شعراتها خاصة في اسفل وجهه المتعظم ، يرتدي في جميع الاوقات ، سترة من جلد الماعز تتأرجح بشكل غريب ، ويجتاز الشارع محدودب الظهر ، مثبت البعنين في الارض بقوة وعناد ، فلا ينحني يمنة او يسرة قيد انملة . كان وجهه المظلم ، وهيئته المنكمشة ، وعيناه الحزيتان تبعث في الاحترام والهيبه نحوه ، فيخيل الي ان مشاغل خطيرة تقلق بال هذا الرجل حتى لا يجوز ابدا ازعاجه وتأخيره عن تحقيق المهمات الملقاة على عاتقه .

وكان الصبية يتراكمون خلفه يرمون ظهره الاحدب بالحجارة . اما هم فيبطل فترة طويلة من الوقت لا يعيرهم ادنى انتباه ، فكأنه لا يحس ما يكيلون له من ضربات ، حتى اذا نفذ صبره اخيرا وقف ، على حين غرة ، ورفع راسه بقوة ، وتفحص تبعته الشغناء في حركات مضطربة ، وتطلع حوله كمن نهض من النوم لتوه . ويصيح الاطفال به :

— ايجوشا ! يا حامل الموت في جيبك ! ايجوشا ! الى اين تدب ؟ انظ في جيبك فقط — واخبرنا هل الموت جاثم فيها ؟

فيمسك ايجوشا بجيبه ، وينحني على الارض ليتناول حجرا او قبض من التراب ، ثم يلوح بذراعه الطويل في غير انتباه ولا خبرة ، وهو يتمن بعض الشكائم . وكانت جعبته من السباب ثلاث كلمات سافلة لا يعرف ا بردد سواها — اما قاموس الاطفال فكان اغنى من ذلك بشكل يفوق التصور وكان يركض وراءهم ، احيانا ، وهو يعرج ، فيعترض معطمه الطويل طرية ويرمييه ارضا ، فيقع على ركبتيه معتمدا بنفسه على ذراعيه القذرتين

الشبيهتين بعصاوين جافنين . وعند ذاك يفرقه الاطفال في سيل من الحجارة ،
بينما يركض اليه أشجعهم ويرمي بملء يده التراب على رأسه ، ثم يفر
هاربا .

نكن أشد مناظر الشارع ابلاما ، بالنسبة الي ، كانت رؤية رئيس
عمالنا السابق جريجوري ايمانوفيتش الذي أمسى فاقد البصر تماما ، يقضي
ايامه متجولا خلال البلدة يستعطي أكف الناس . كان فارغ العود ، مفلق
الوجه ، جميل الطلعة ، تقوده امرأة عجوز صغيرة الجسم شائبة الشعر
تقف به تحت كل نافذة وتهتف في صوت يصرصر ، وهي تنظر ابدا الى جهة
اخرى :

— ساعدوا المستعطي الضرير ، محبة بالمسيح !

اما جريجوري فيظل بالصمت معتصما ، نرنو نظاراته السوداء وان بثبات
الى جدران المنازل ، او النوافذ ، او وجه اي انسان يصادفه في طريقه ،
وتروح يده الملوثة ببثايا الصباغ تداعب لحيته العريضة ، بينما تظل شفناه
مطبقتين بأحكام .

كنت القاه كثيرا ، ولكنني لم اسمع قط كلمة واحدة تصدر عن هاتين
الشفنتين المغلقتين ابدا ، غائلم واتضايق من ذلك الصمت الذي لا ينتهي أكثر
من أي شيء آخر . ولم اكن أمضي اليه بل لا اكاد المحه حتى أعود الى
البيت راكضا أخبر جدتي :

— ان جريجوري في طريقه اليينا !

فتقول ، وقد تملكها اضطراب مؤلم :

— آه ، حقا ! خذ ، اركض واعطه هذه !

فأرفض بغظاظه ، وعندئذ تذهب جدتي بنفسها الى البوابة ، وتقصف
هناك تتحدث اليه زمنا طويلا . كان يضحك ، ويحك لحيته ، ولكن لا ينبس
ابدا ببنت شفة . وكانت جدتي تدموه ، في كثير من الاحايين ، الى المطبخ ،
فقطعمه ثم تقدم اليه الشاي . وسألها مرة عنى ، فنادتني ، ولكنني هربت
واختبأت بين اكوام الاخشاب . لم اكن استطيع له لقاء ، بل أشعر بالخجل
في حضوره ، وأعلم علم اليقين ان جدتي تشعمر نفس شعورى ايضا . وقد

تحدثنا عنه ، جدتي وأنا ، مرة واحدة فقط ، بعد ان رافقته حتى البوابة وعادت، متمهلة الى المساحة ، محنية الراس ، تذرّف الدموع ... فمضيت اليها ، وامسكت بيدها ، فسالتني بهدوء :

— لم تهرب منه دائما ؟ أنه يحبك كثيرا ، وهو رجل طيب ...

لم لا يطعمه جدي ؟

— جديك ؟

توقفت عن الاسير ، وضمنتني اليها ، وهمست بنغمة تنبؤية :

— تذكر هذه الكلمات : ان الله سيعاقبنا عقابا صارما من اجل

تصرفنا مع هذا الرجل ! عقابا صارما جدا !

ولم تكن مخطئة فيما ذهبت اليه ، اذ لم تمض عشر سنوات على ذلك ، وكانت جدتي قد رقدت الى الابد ، حتى كان جدي ، وقد اضحى شقيا مجنونا — يستجدي في طرقات المدينة ، تحت النوافذ ، شيئا يسد به رمقه :

— ايها العشيبة الطيبة ، اعطيني بعض اللحم — قطعة صغيرة بحسب . تفو ! يا لهم من قوم ! ...

كانت كلماته القاسية الجافة : « تفو ! يا لهم من قوم ! ... » الشيء الوحيد الذي بقي له من ماضيه ...

وبالاضافة الى ايجوشا وجريجوري ايفانوفيتش ، كانت هناك امرأة مستهترّة تدعى فورونيكّا ، تدفعني الى الفرار من الشارع كلما صادفتها فيه . كانت تظهر صباح كل أحد — ضخمة الجثة ، شعناء الشعر ، ثملة ، لها مشية غريبة كأنها لا تحرك قدميها أو تمس بهما الارض ، بل تطير كسحابة من سحب العواصف تزمجر باغان فاسقة خليعة . وكان القوم يهربون بسرعة من امامها في الشوارع ، ويخنفون في الدكاكين أو في منعطفات الازقة حتى ليتمكن أن يثال انها تكنس الدرب من كل ما فيها ... وكان وجهها أزرق اللون منتفخا كالبالون ، وعيناها الجاحظتان الرماديتان تدوران في محجريهما بشكل مربع وساخريّ آن واحد . وكثيرا ما كانت تصيح ، دون ما سبب ظاهر :

— أين انتم ، يا اولادي ، يا اولادي !

فسألت جدني ماذا تعني بذلك ، فأجابت :

— ذلك لا يجوز لك معرفته .

ولكنها اوضحت لي ذلك ، فيما بعد ، بكلمات قليلة . . .

وخلاصة القصة ان تلك السيدة تزوجت قديما من موظف يدعى مورونوف . ولكنه باعها ، طمعا في الترقية الى رتبة عالية ، لرئيسه الذي احتفظ بها ما يقارب السنين ، عادت بعدهما الى زوجها الاول لتجد أن طفلها — وهما صبي وبنيت — قد توفيا ! . . . وشرع زوجها بعد ذلك يقامر بأموال الحكومة العامة حتى القي به في السجن . . . فأخذت المرأة تشرب بنت العنب لتغرق فيها حزنها . ومنذ ذلك الحين وهي تعيش حياة العهر والفحش ، حتى ان الشرطة تلتقطها ، كل أحد ، من عرض الشوارع .

لم يكن هناك مجال للشك في أن المنزل أفضل من الشوارع . وكنت اعشق خاصة تلك السويجات التي تلي الغداء ، اذ يمضي جدي لزيارة الخال ياكوف ، وتعمد جدتي الى النافذة تروي لي قصصا خرافية رائعة ، او تحدثني عن والدي . . .

كانت قد قصت ، في كثير من الحذق ، جناح الزرور الذي انقذته من القطعة ، واستبدلت ساقه المقطوعة بعود خشبي صغير . وعندما تماثل الطير للشفاء ، أخذت تعلمه الحديث ، فلقفت ساعات كاملة بالقرع من القفص الموضوع على حافة النافذة ، وهي تردد الكلمات التي تود تعليمه اياها :

— تعال الان ، قل : اعطيني قليلا من البرغل !

ويطرف الطير بعينه المدورة ناحيتها كما يفعل ماجسن الاسطورة ، ثم بضرب بساقه الخشبية ارض القفص ، ويمد عنقه ، ويصفر مثل الارغن مقلدا طير ابو زريق والوقواق ، محاولا ان يموء كالقط ، او ينبج كالكلب ، دون ان ينبج في تقلب الاصوات البشرية .

وتقول جدتي باهتمام ومرح :

— كف عن هذه الخزعلات ! حاول ذلك الان ، قل : اعطيني قليلاً من
البرغل !

وعندما كان ذلك القرد الزاهي الريش يصيح بشيء يشبه كلمات
جدتي ، كانت تضحك مغتبطة ، ثم تقدم له على أصابعها كمية من البرغل ،
وتؤنّب في كثير من السخرية بقولها :

— آه ! أنا امرئك جيداً ، ايها الماجن الصغير ! انك تستطيع ان تقول
كل ما تشاء لو أردت ذلك فقط .

وهكذا علمته ان يتكلم ، فلم يمض طويل زمن حتى راح يطلب البرغل
بوضوح تام ، وكان يهتف ، اذا رأى جدتي ، بشيء ما يبرن شبيهاً بكلمة
« مرحباً » !

كان قفصه معلقاً بادىء الامر في غرفة جدي ، ولكنه سرعان ما نفاه
الى غرفتنا بعد أن أخذ يقلده . وكان جدي يبتهل بصوت واضح ، فاذا ذلك
الزرزور ، كلما سمعه يصلي ، يمد منقاره الاصفر كالشمع من خلال قضبان
القفص ، ويصيح :

— تر . ر . و . تر . ر . ر

... او . او . او .

وكان هذا يضايق جدي كثيراً . . وفي ذات يوم قطع صلواته ، وضرب
الأرض بقدمه ، وصاح غاضباً حائقاً :

— اخرجي هذا الشيطان من الغرفة قبل أن اقتله !

كان في منزلنا أمور كثيرة تثير الاهتمام ، وأشياء أخرى عديدة يطرب
لها القلب . لكن شعوراً عنيماً بالحزن كان يطغى علي أحياناً فكأنه حمل
وازن يئيد علي ، فيصور لي أنني أفوص في قاع حفرة سوداء مظلمة ، وقد
زالت حواسي ، وفقدت البصر والسمع والشعور ، أهوي ، نصف حي نصف
مبت ، في الهاوية التي لا تترار لها !

باع جدي منزلنا ، على غير انتظار ، الى صاحب الحان وابتاع منزلا آخر في شارع كاناتايا . . كان هذا الشارع ، نظيفا ، هادئا ، غير معبد ، مغطى بالعشب ، يفضي في نهايته الى الحقول ، تحف به من الجانبين منازل صغيرة زاهية الالوان .

كان المسكن الجديد اكثر بهجة وانسا من السابق ، فواجهته مدهونة باللون الاحمر القاتم ، تنفصل عنها بجلاء مصاريع نوافذ الطابق السفلي الثلاثة الزرق ، وشعريات نوافذ الطابق العلوي التي تنتصب ببهاء وروعة . وعن اليسار ، كان السطح مزخرفا باغصان الدردار والليمون . اما الساحة والحديقة فمليتان بعدد لا يحصى من الخلوات المريحة ، تبدو وكأنها جعلت خصيصا للعبة الطيية . راقت لي الحديقة بصورة خاصة ، فهي ليست عظيمة الاتساع ، ولكنها مغطاة بشجرات صغيرة ، فاتنة ، كثيفة ، متعانقة ، تقوم غرفة الغسيل في احدى زواياها ، صغيرة أشبه بصندوق للدمى . . . وفي زاوية أخرى ، حفرة قليلة الغور ، مغطاة بالعشب البري ، تندفع منها كتل خشبية مسودة هي بثايا حريق لغرفة غسيل سابقة . . . اما عن اليمين ، فابنة صغيرة تابعة لال بيتلينغ . وكانت الحديقة تنتهي الى اليسار باسطبلات تخص الكولونيل اوهسيانيكوف ، بينما الجهة المقابلة للمنزل قد الحقت ببناء « صانعة الالبان بتروفنا » ، وهي مخلوقة سميئة ، حمراء الوجه ، مزعجة ، تشبه جرسا واسعا كبيرا . كان منزلها الصغير ، الاسود ، المتهدم ، يتربع براحة على الارض ، مغطى بالطحلب من كل جانب ، تطل نافذته على الحقول الواسعة ، ممزقتين بأخاديد عميقة ، ناظرتين الى ضباب الغابة البعيدة الازرق وكان عدد عديد من الجنود يتمرنون ، طوال

النهار ، في تلك الحقول ، فتلمع حراب بنادقهم كالبرق الابيض تحت اشعة شمس الخريف المحزنة .

كانت الدار تعج بجمع من الناس لم يقع عليهم بصري من قبل قط ، فالجناح الامامي يشغله ضابط تتري المولد ترافقه زوجه الصغيرة المدورة ، وكانت هذه المرأة لا تنقطع عن الضحك والضحك والمصياح والعزف على قيثارة مزخرفة بثتي الالوان البهية الغريبة منذ الصباح حتى المساء . وكانت تغني بصوت حاد ، رنان ، وتردد بصورة خاصة اغنية ، هذه بعض كلماتها :

« اني ، يا صاح ، لا عجب لك
اتعيش وزوجك لا تهواك ؟
فتعسال نفتش عن أخرى ،
عن زوج تعرف ان ترعاك »

وكان زوجها ، المدور كالكرة ، يجلس طويلا الى النافذة تتورد وجنتاه الزرقاوان كلما نفخ في غليونه ، يجيل عينيه البنبتين الضاحكتين الصغيرتين هنا وهناك ، ويسعل بنباح غريب :

— ا. ح. م . ا. ح. م . ا .

وكان يعيش ، في جناح صغير مبني فوق المخزن والاسطبل ، رجلا مهنتهما سوق العربات . . كان أحدهما رجلا صغيرا ، اثنى الشعر ، ينادونه بالعم بيوتر ، أما الآخر ، وهو ابن أخيه ويدعى ستيبا ، فكان أطرش أبكم ، لين الخلق ، هادئ الطبع ، ذا وجه يشبه صينية نحاسية حمراء اللون . وكان يشاركهما المسكن تتري كالح الوجه ، مرتب الهندام ، يدعى قالي . كان هذا الجمع كله غريبا علي ، فبدأ لي غنيا بالامانيات الجديدة التي سلبت لي سلفا ، وراحت تمنيني بمغامرات لا تعد ولا تحصى .

بيد أن الشخص الذي اجتذبتني وسحرني اكثر من سواه هو المستاجر المتطفل « هذا رائع ! » ، الذي يشغل غرفة تجاور المطبخ في اقصى الدار ، كانت غرفته هذه واسعة طويلة ذات نافذتين تطل احدهما على الحديقة ، والثانية على المساحة .

كان ذلك المستاجر باسق الطول ، منحني الجسم ، ذا لحية متشعبة تضاعف شحوب وجهه ، وعينين لطيفتين تحميها نظارتان كبيرتان ، هادئا

على العموم ، منطويا على نفسه ، سكوتا ، كلما دعني الى العشاء أو .
الشاي اجاب بقوله :

— هذا رائع !

وظفقت جدتي تدعو « هذا رائع ! » ان يحضر للشاي !

أو كانت تقول :

— تناول شيئا اخر ، يا « هذا رائع ! » فأنت لم تأكل كفاية .

كانت غرفته مزدحمة بالصناديق والكتب الضخمة المطبوعة بأحرف لم
ينجح في حل طلاسمها المعضلة . وكنت تجد ، في كل مكان ، زجاجات مليئة
بسوائل مختلفة الالوان ، وقطعا صغيرة من النحاس ، والحديد ، ومساطر
من الرصاص لا عد لها . وكان صاحبنا يرندي دائما معطفا بنيا من الجلد ،
وقفازين رماديين ملطخين بالدهان ، تفوح منهما رائحة كريهة ، ويقضي
اليوم بطوله في غرفته ، منذ الصباح حتى المساء ، يصهر الرصاص ، ويلجم
النحاس ، ويزن قطعا صغيرة من المعدن في ميزانه الدقيق ، وهو يزجر من
وقت لآخر اذ يحرق اصابعه ، فينفخ عليها ، ومن ثم يروح يحنو على بعض
الاشكال الهندسية المعلقة على الحائط ، ويأخذ — بعد ان يمسخ نظارتيه —
يفحصها عن قرب بحيث يكاد يشمها بأنفه الناصع البياض الشبيه بالحوار .
وكان يقف ، أحيانا ، ودون سابق انذار ، منتصبا في وسط الغرفة أو قرب
النافذة ، ويظل هكذا زما طويلا جدا ، مغلقي العينين ، خافض الرأس ،
ساكنا ، لا حراك به . . .

تسلقت مرة سطح المظلة الممتدة على طول المساحة ، ورحت أرائبه من
خلال النافذة المفتوحة . كنت أستطيع ان أرى الي اللهب الازرق المتصاعد
من فتيل مصباح الكحول الذي يشتعل فوق الطاولة ، وقد انحنت ثامة الرجل
موقه ، أو أراه يكتب أشياء عديدة على دفتر ملاحظات ممزق ، ونظاراته
تلمعان ببرود في ضوء اللهب الازرق كأنهما قطعتان من الجليد .

كان العناء الذي يتحمله ذلك الرجل يسمرني على السطح طوال
ساعات عديدة ، وقد تملكني فضول عنيف يعذبني بشكل غريب . . . وكان
يقف ، في أحيان أخرى ، مستندا الى النافذة ، وقد وضع يديه خلف ظهره ،
يشخص باستقامة الى السطح دون ان يراني أو يعرفني ، الامر الذي كان

بعيظاني جدا . ثم يقفز فجأة في اتجاه طاولة ، وينحنى عليها وهو بنفث
باهتمام بين الاوراق والملفات المراكمة فوقها .

ربما كنت اخافه لو كان أكثر شراء ، وفضل لباسا ، ولكنه كان فقيرا
معدما فيياقة قميصه المجعد الوسخة تبرز من تحت معطفه الجلدي ،
وسرواله مرقع ملطخ ببتع كثيرة الالوان ، أما حذاؤه فاسوا من أن يلبس
تبرز من خلاله اصابع قدميه العاريتين . والفقراء لا يبعثون خوفا ولا يثيرون
خطرا ، هذا ما اقتنعني به شيئا فشيئا شفقة جدتي نحوهم ، وكراهيه
حدي لهم .

كان جميع من في الدار يكرهون « هذا رائع ! » كثيرا ، ويتحدثون عنه
بسخرية فائقة : فتدعوه زوج الضابط المرحة بـ «صاحب الانف الطباشوري»
والعم بيوتر بـ « الكبياتي الساحر » ، وجدي بـ « الصيدلي بائع السحر
الاسود » .

سألت جدتي مسرة :

— ماذا يفعل « هذا رائع ! » ؟

فأجابني بفضلاظة :

ذلك ليس من شأنك . أعرف متى تحتفظ بفمك مغلقا .

وجمعت ، ذات يوم ، كل ما أملك من شجاعسة وأسرت السى
نافذسه . . .

سألته ، وأنا أحاول بصعوبة اخفاء انفعالي :

— ماذا تفعل ؟

فبغت ، تم شخص الى طويلا من فوق نظارتيه ، ومد لي يده المحترقة
المفروشة ندوبا وجروحا ، وقال :

— تعال ، تسلق الى هنا !

والواقع ان سماحه لي بزيارته من خلال النافذة بدلا من ان يدعوني
الى عن طريق الباب ، قد رفعه كثيرا في عيني ، وزاد من تقديري له .

وجلس على احد الصناديق المبعثرة ، وأجلسني قبالة وهو يؤرجحني
يمنة ويسرة ، ثم سألني :

— من أين جئت ؟

كان السؤال غريبا جدا ، فأنا اجلس بالقرب منه الى المائدة في المطبخ أربع مرات يوميا ، أجبت :

— انى للحفيد هنا .

— آه ، نعم !

ثم غرق فيسكون عميق ، وهو يتأمل احدى أصابعه . . .

رايت من الضروري ان أوضح له الامر ، فقلت :

— ولكني لسنت من عائلة كاشيرين — أنا من آل بشكوف . الكسي بشكوف .

فردد ، وهو يشد على الثبرات :

— بشكوف ! الكسي بشكوف ؟ هذا رائع !

ودمغني عنه ، ونهض ، ثم ركض الى الطاولة وهو يقول آمرا :

— خسنا ! اجلس . اياك ان تحدث ضجة ما .

جلست هناك طويلا ، طويلا جدا ، أراقبه يبرد قطعة من النحاس امسك بها بين فكي كماشة صغيرة ، وعندما انتهى من ذلك ، جمع التراب الذهبي المتساقط على لوحة من الورق المقوى وصبه في بوتقة كثيفة ، ثم اضاف اليها قليلا من مسحوق ابيض كالمالح أخذه من احدى الزجاجات ، وأخيرا سكب على الخليط شيئا من قنينة سوداء اللون ، فشرعت محتويات البوتقة تفتح ، وتدخن ، وتغلي ، وتطلق رائحة حادة جعلتني أسعل قسرا .

سأل الساحر بفخر :

— نعم !

— آها . . . هذا حسن با اخي ، هذا حسن جدا !

حاولت ان أجد في ذلك مدعاة للفخر فلم أفجح . . .

قلت بعنف :

— ما دامت رائحته سيئة فيستحيل أن يكون حسنا اذن !

فصاح ، وهو يفرك عينيه ؛

— أحمقا ماتتقول ؟ حسنا ، ليس ما تقول صحيحا دوما ، يا أخي ! أتحب اللعب بالكمساب ؟

— نعم !

— أترى أن اصنع لك كعبا من الرصاص ؟ أن احدا لن يفلبك به !

— بالطبع اريد !

— اعطني كعبك اذن !

وانجه نحوي نانية ، يحمل البوتقة الداخنة في يده ، ثم خاطبني وهو يرنو الى بعين واحدة :

— أتعدنى ، اذا ما صهرت الكمب لك ، ألا تعود الى هنا مرة ثانية ؟ أتفتننا ؟

فساعني ذلك كثيرا . . .

قلت :

— لست بحاجة لذلك كي لا اعود الى هنا !

ثم مضيت الى الحديقة غضبان مكثبا . . .

وجدت جددي منهمكا في تسميد الارض حول جذوع اشجار التفاح . . .
كان الوقت خريفا ، واوراق الاشجار تتساقط منذ امد بعيد . . .

ناولني المقص ، وقسال :

— خذ ، قص ادغال توت العليق . . .

فسالست :

— ما هذا الذي يفعله « هذا رائع ! » ؟

فأجاب غاضبا :

— انه يخبص ، فهو يتلف الغرفة ، ويحرق الارض ، ويلطخ الجدران ، حتى لقد مزق تسما كبيرا من الورق الملصق عليها . . . سأندره بضرورة اخلاء

الغرفة نهائيا في اقرب وقت ...

فوافقت ، وأنا أشذب أطراف توت العليق :

— انك تفعل حسنا اذن !

ولكنني كنت متسرعا في قلبي هذا ...

...

كانت جدتي ، في الامسيات الماطرة ، عندما يخرج جدي الى بعض اعماله ، تحيي في المطبخ حفلات رائعة ... فتدعو جميع الجيرة ، دون استثناء ، بما فيهم السائقين ، والعسكري ، وزوجه المرحه ، وبتروفنا البدينة . اما « هذا رائع ! » فكانت تجده في زاوية قرب الموقد ، حيث يجلس صامتا لا يأتي بأدنى حركة ، بينما يلعب الابكم الاصم ستيبا بالورق مع المتتري نالي الذي يلطمه ، بين الفينة والفينة ، على انفه العريض ويصيح :

— أنت ، أيها الشيطان الهرم !

كان العم بيوتر يحمل معه رغيفا من الحنطة البيضاء ، وقطعة مليئة بمرى توت العليق ، فيشرح الخبز ، ويصب عليه المرى بكرم ، ثم يقدم تلك الشرائح على راحتيه المدودتين للضيوف قائلا ، وهو ينحنى انحناءة خفيفة :

— هلا تفضلتم وتناولتم من هذا شيئا ؟

وكلما تناول أحدهم قطعة ، يفحص العم بيوتر راحته السوداء ، فان شاهد عليها قطرات من المرى أسرع لملعقتها بلسانه .

وكانت بتروفنا الحلوة تجلب معها قليلا من السوائل الروحية ، والجارة الصغيرة المرحه بعض الجوز وسكر النبات . وعندها تبدأ وليمة حقيقية تشرف عليها جدتي والغبطة تغمر قلبها الفرح الضاحك .

أقامت جدتي احدى هذه الحفلات بعد فترة قصيرة من محاولة « هذا رائع ! » رشوتي كي ابتعد عن غرفته . كانت أمطار الخريف الكثيرة تنسج من اعالي الجو فتضرب الارض بعنف وقوة ، وريح عاتية تهب ، والأشجار

نلتطم وتضرب جدران المنزل بأغصانها . وكان جو المطبخ دافئاً لطيفاً ، والقوم قد تجهروا بعضهم قرب بعض هائنين مرحسين ، وجدتني تشرف في سرد أفاضيلها الرائعة أكثر من المعتاد .

كانت تجلس على حافة دكة الموقد ، وقدمها مسنريحتان على احدى درجاته، تنحني على القوم ، ووجهها يشرف بابتسامة خفيفة لطيفة في ضوء القنديل الملتهب . كانت تختار ذلك المكان على الدوام كلما كانت منتعشة النفس ، متحمسة لرواية الاقاصيص ، وتقول :

— أود أن اتحدث من هذا المكان العالي . ذلك اسهل ، وهو يترك في النفس أثرا عمق أيضا .

جلست عند قدميها على الدرجة الاخيرة ، تماما فوق رأس « هذا رائع ! » ، وهي تروي هذه المرة قصة « ايفان المحارب » و « الراهب ميران » الرائعة ، فماتينا كلماتها متلاحقة موزونة متناسقة كأروع الشعر :

« كان يعيش في غابر الزمان قائد شرير يدعى جورديون ، روحه خبيثة آثمة ، وقلبه كالحجر الاصم ، يكره الصدق والصادقين ، ولا يعرف الحنان الى مؤاده سبيلا ، يعيش في الشر كالخلد في كهف عميق سحيق لا يرى النور . وكان ابغض الناس الى جورديون هذا راهب متدين اسمه ميرون ، يعيش ناسكا في الصحراء ، قلبه ينبض بالسلام والمحبة ، ويندفق دون وجل بالخير والصدق . وفي ذات يوم ، استدعى جورديون المحارب ايفانوشكا الشجاع الى مجلسه ، وقال لـ :

— اذهب الان الى العجوز ميرون ، واذبح ذلك الشيخ المتكبر ، دق عنقه ولا تخف ، ارفعه عاليا من لحيته الكثيفة ، وجثني به وليمة فاخرة لكلاب صيدي . . .

فذهب ايفان ينفذ الاوامر بطاعة ، وقلبه يعتصره الالم ، يقول في نفسه :
انا لا اسير بنفسي ، وانما الحاجة تسيرني . انها الضرورة تدفعني الى ذلك ، انه النصيب المقدر لي من قبل الله . واخفى سيفه القاطع تحت ثوبه ، وجاء الى الراهب ، وانحنى امامه باحترام ، وحياه قائلا :

— سلاما ، ايها الشيخ الجليل . . كيف حالك ؟ اما زال الله ينسبغ

عليك نعمه ، ويصونك بحمايته المقدسة ؟

فابتسم ذلك الذي يعرف كل شيء ، ابتسم ميرون العجوز ، وسقطت من شفطيه الحكيمتين هذه الكلمات :

— لست ادري ، يا ايفان ، لماذا تكذب وتريد خداعي ! لكن الله الرب يعرف كل شيء . والخير والشر ملك يده . وهو ، من دون أدنى ارنياي ، على علم بغايتك الشريرة .

فامتأ قلب ايفانوشكا خجلا ، ولكنه خاف انتقام جورديون . فاسئل سيفه من غمده الجلدي ، ومر بشفرته الجارحة على ثيابه ، وقال :

— لقد اردت ان اوغر عنك رؤية هذا السيف ، واقتلك وانست في جهل مبارك بن غايتي . اما الان ، وقد عرفت كل شيء ، فهيا اركع ايها الشيخ العجوز على ركبتيك وصل للمرة الاخيرة ، وصل لينبوع الحياة ، صل من اجلي ، ومن اجلك ، ومن اجل سائر البشر ايضا ، وعندئذ اقطع رأسك . . .

فجثا الشيخ على ركبتيه ، جثا تحت شتلة سنديان مالت عليه بأغصانها الخضراء حادبة ، ثم توجه الى محدثه يخاطبه وهو يبتسم :

— ايفان ، ايفان ! ان انتظارك سيطول كثيرا لان الصلاة من اجل خلاص الجنس البشري لا نهاية لها ، فالأفضل اذن ان تفهم حيل حياتي دون تأخير من ان تتعب نفسك بالتردد . فهيا ، عجل بالخاتمة ، وعد من حيث جئت سريعا .

وهنا تطب ايفان وجهه بغضب ، وأجاب الشيخ الجليل بحق جم :

— أبدا ! ان ما قيل قد قيل ، وهكذا يجب ان يكون ! صل اذن ، وسانتظرك ولو قرنا كاملا .

فشرع الراهب يصلي حتى خيم الظلام الدامس ، واستمر يصلي من هبوط الليل حتى شروق الفجر ، ومنذ الفجر حتى عودة الظلام ، ومنذ الصيف حتى قدوم الربيع . . . وتناقلت الاعوام والراهب الطيب ما يزال راكعا تحت السنديانة التي نمت الان وراحت تطاول السماء ، وانبتقت غابة من ثمراتها ، ودعاؤه ما يزال يتصاعد دوما نحو العلاء .

وحتى هذا اليوم ، ما يزال الراهب ميرون يصلبي ، دون كلل ، في طلب الغابة ، يسأل المعونة لكل البشر ، ويرجو العذراء أن تحنو على جميع الناس . وبالقرب منه يقف ايفان المحارب ، وقد بلي سيفه وغمده بفعل الغبار ، وأكل الصدا دروعه وحديدها ، واهترأت كل ثيابه وتفتتت ! على طول الشتاء يقف عريانا ، أهلكته الحرارة ، ومع ذلك لم يهلك ، التهمته الجائحات دون ان تجهز عليه ، تعرض الذئاب عنه ، والدببة تحيد عن طريقه ، توغره الاعاصير ، ولا يقتله الزمهرير ، وهو عاجز عن أن يتحرك من مكانه ، أو أن يرفع يدا أو يلفظ كلمة . . . وذلك كان عقابه لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر ، وأخضع ارادته لارادة سواه . أما صلوات الشيخ الجليل فما تزال ترتفع نحو الله من أجلنا نحن الخطاة ، متدفقة كالجدول يسيل نحو مياه المحيط . . . »

وقد لاحظت ، منذ بداية القصة ، ان « هذا رائع ! » قد تملكه ، لسبب ما ، اضطراب عظيم :فيدها ترتعشان بصورة غريبة ، وهو يضع نظارتيه ثم يخلعها ، ثم يعود فيهزها بحركة موزونة متناسقة مع الكلمات الشادية ، يهز رأسه ، ويضغط بأصابعه على عينيه ، ويمسح العرق المقصّب على جبهته وخديه . وكان ، كلما تحرك أحدهم أو سعل أو ضرب الأرض بقدمه ، يصيح بنزق :

— هس ! . . .

عندما انتهت جدتي من قصتها ، ومسحت بكمها العرق المتلألئ على جبهتها ، قفز « هذا رائع ! » بصخب وضجيج ، وراح يدور على أرض المطبخ بشكل حلزوني ، وقد بسط ذراعيه باضطراب ، وهو يهمهم :

— هذا رائع ! رائع جدا ! يجب ان يدون بأي ثمن كان ! انه صحيح تماما . . . وروسي بكل معنى الكلمة ! . . .

لاحظ الجميع بوضوح انه كان يبكي : تمتلئ عيناه بالدموع ثم تنهمر كسيل صغير فوق وجنتيه . وكان من الغريب والمؤثر معا منظر هذا الرجل الذي يركض في المطبخ بشكل مضحك ، يجرب أن يعلق نظارتيه خلف أذنيه دون ان ينجح في ذلك . وكان العم بيوتر يضحك ، ولكن الباقين اعتصموا بالصمت وقد تملكهم الدهشة .

قالت جدتي بسرعة :

— حسنا ، امض ودونها ان شئت ، فلا خطيئة في ذلك ! وانا اعرف من امثالها كثيرا !

فصاح المستأجر منهيجا :

— اوه ، كلا ! هذه فقط ! انها روسية — روسية من الصميم !

وتوقف ، على حين فجأة ، في وسط المطبخ ، وطفق يتكلم بصوت عالي النبرات ، وهو يلوح بذراعه اليمين . ويحمل نظارتيه في اليد اليسرى المرتجفة ظل يتحدث طويلا بحمية ، نصدر عنه ، من وقت لآخر ، آهة عميقة ، وهو بضرب الارض بقدميه . ولاحظت انه ردد ، عدة مرات ، هذه الكلمات :

— كلا ! كلا ! انها لجريمسة لا تغتفر ان يعيش المرء حسب ضمير سواءه !

وعلى حين غرة ، انقطع صوته ، والقي نظرة سريعة على المحتفين به ، ثم دلف خارجا حانى الرأس . فنظر الجميع الى وجوه بعضهم البعض باستياء وقلق ، بينما انفردت جدتي في ظلمة الموقد حيث سمعتها تنهد بأسى ...

سألت بترونا ، وقد أمسكت بيدها شفتها الحمراء الكثيفة :

— كأنه غضب ؟

فأجاب العم بيوتر :

— كلا ! بل تلك طريقتيه بكل بساطة !

وهبطت جدتي عن الموقد ، وشرعت تهبىء السماور ...

أضاف العم بيوتر بهدوء :

— ان المثقفين والنبلاء هكذا دوما — متقلبوا الاطوار !

وأضاف فالسي :

— كل هذه الحماقات سببها الحياة الفردية ، حياة العزوبية .

فضحك الجميع ...

وقال العم بيوتر :

— أرايتم اليه حين بكل ؟ لقد ابكته قصتنا ... يظهر ان العزف أصاب منه وترا حساسا !

لم يعد جو المطبخ يطاق ، وقد طفى على قلبي حزن موحش . أدهشني « هذا رائع ! » كثيرا ، فاشفقت عليه . وحتى الان ، ما تزال عيناه الدامعتان منحفرتين في ذاكرتي .

قضى ذلك الليل بعيدا عن الدار ، ورجع بعد الغداء في اليوم التالي .
كان يبدو خائر التوى ، مرتبك البال ، مكتئب خاطر ...

قال لجدتي بطريقة صبيانية خالصة :

— لقد ارتكبت حماقة مساء البارحة ، أغاضبة أنت ؟

— ولم أغضب ؟

— لاننى فحمت نفسى فيما لا يعنبنى ، وقلت حماقات كثيرة .

— انك لم تجرح شعور احد .

شعرت ان جدتى تخاف منه ، فهي لا تنظر اليه ، ولا تخاطبه كما اعتادت ان تفعل .

اقترب منها ، وقال ببساطة فائقة :

— أنت ترين اننى اعيش لوحدي ، وليس من يؤنسني في العالم كله ...
عندما يعيش الانسان طويلا ، وحيدا هكذا ، صامتا أبدا ، فلا بد من ان تحيى لحظة بأخذ فيها كل ما تراكم في نفسه بالغلجان ، فيطفح وينفجر ...
انه ، في مثل تلك اللحظة ، يخاطب حتى الصخر ، والحجر ، والشجر ...

سألت جدتي ، وهي تبعد عنه :

— لم لا تتزوج ؟

فصاح ، وهو يحرك يده :

ذآه!...

نم مضى انبس الوجهه ...

راقبته جدتي ، مقطبة الجبين ، وهو يغادر المكان ، ثم تنشقت بعض
المسموط ، والتفتت الي وقالت :

— لا تدر. حواليه كثيرا ، فالله وحده يدري ما يمكن ان يفعل هذا
الانسان .

ولكن شيئا ما كان يجذبني اليه باستمرار ...

لاحظت التغير الذي طرا على وجهه وهو يقول : انني اعيش لوحدتي.
فقد كان في تلك الكلمات شيء اهمه جيدا لمس مني شغاف القلب ، فمضيت
للاقتائه ...

تطلعت خلال نافذة غرفته — كانت خالية منه ، مليئة باشياء غريبة
عديمة النفع ، عديمة الترتيب ، مثل صاحبها تماما . فقصدت الى الحديقة
حيث وجدته مقتعدا خشبة متفحمة في الحفرة حيث شب الحريق ، وقد
احدودب ظهره ، وارتركز مرفقاه على ركبتيه وتشابكت يداه خلف رقبته ...
كانت الخشبة مغطاة بالاوساخ، تندفع احدى نهايتها، في الهواء فوق الحشيش
ونبات القريص والارقطبون . لم يكن مرتاحا في جلسته هناك ، مما جعلني
اشعر بمزيد من الاسف والحزن ، اجتذبنى اكثر فأكثر الى ذلك الرجل ...

ظل وقتا طويلا يرنو الي بعينه العميقتين الغائرتين ، لكن دون ان
يراني فهما يبدو ، ثم سال فجأة في ضيق وملل :

— اجئت تطلبني ؟

— كلا !

— ماذا تريد اذن ؟

— لا شيء على التعيين !

فنزح نظارتيه ومسحهما بمنديله الملطخ ببقع سود وحمير . قال :

— تعالى الى هنا .

ضممني اليه ، عندما أخذت مكاني بالقرب منه ، وقال :

— اجلس هنا ! اننا سنجلس فقط دون ان نتكلم . ما رأيك ؟ هكذا . . .
انك حقاً لفتى عنييد !
— نعم !
— هذا رائع !

وقبعنا هناك ، مدة طويلة ، دون ان نتفوه بكلمة واحدة . . . كانت
الامسية لطيفة هادئة ، من تلك الامسيات الصيفية المزعجة الحزينة ، عندما
تأخذ الزهور بالذبول والجفاف امام عينيك ، والارض المنهوكة من رائحة
الخریف الرطبة ترشح بالبرود والبلل ، والهواء يشق بشكل غريب ،
والغريان تتوالت في السماء المحمرة تثير في الخواطر افكار حائرة قاتمة . كان
كل شيء ساكناً ابيكم ، حتى ان الاصوات الخفيفة ، من حفيف اجنحة الطيور
الى صدى سقوط الاوراق ، ترن بصورة تدفعك الى الانتصاب والتلفت
حوالك قلنا مستفهما ، ثم يعود كل شيء ميفرق مرة أخرى في المسكون
العميق الذي يجلل الارض بأسرها .

كانت تلك اللحظات البهية تستدعي افكاراً نقية صافية ، لكنها هشة
شفافة كنسيج العنكبوت ، تتحدى المرء ان يثبتها في كلمات . انها تومض
وتغيب كالنجوم المتساقطة . تملأ النفس حزناً ، أو تملؤها غبطة . أو تقلقها ،
أو تجعلها تغلي لتتجمد في اشكال ثابتة — في مثل تلك اللحظات نتكون
الشخصية وتأخذ القلب الذي ستحتفظ به مدى الحياة .

رنوت وجليسي ، وقد ركنت الى جسده الدافئ ، ناحية التكتلات
السود التي ترسمها فروع شجرة النفاح حيث راينا « زقيقية » تدفع نحو
السماء الواسعة ، وراينا الحساسين تنقر نبات اللفت الجاف تفتش عن
حبوب مبتلة ، وراينا السحب الرمادية المتدائعة بتجمعاتها القاتمة تتراكم
على طول الحقول ، وراينا جموع الغريان تتناكب في اتجاه المقبرة حيث
اعشاشها . كل ذلك كان جميلاً ، وكأنه ارتدى حلة خاصة واضحة للبصار
قريبة الى الافهام .

كان رفيقي يصعد تنهداته ، بين وقت وآخر ، ويسأل :

— هذا رائع ، اليس كذلك ؟ رائع ، يا اخي ! هم ، ولكن الطقس رطب ،
الست مصيباً ، ألا تشعر بالبرد ؟

قال عندما اسودت السماء ، وغرق كل شيء في عتمة الليل :

— حسنا ، أعتقد ان ذلك يكفي . هيا بنا . . .

وتوقف ، عندما بلغنا بوابة المنزل ، وقال :

— ان جدتك امراة رائعة . آه ، ياله من وجود !

ثم اغلق عينيه وابتسم ، وتابع بهدوء ووضوح :

— « وذلك كان عقابه ، لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر ، واخضع ارادته لارادة سواه » .

ثم وجه حديثه الي ، وهو يدمعني داخل البوابة :

— تذكر ذلك ، يا أخي ! اتعرف الكتابة ؟

— كلا !

— تعلم . وعندما تتعلم اكتب تصص جدتك ، ان لذلك اهمية كبيرة .

اضحينا صديقين حميمين . . . فاعتدت ، منذ ذلك اليوم ، زيارة « هذا رائع ! » كلما رغبت في ذلك ، فاجلس على صندوق مليء بالقماش اراقبه منشرح الصدر ، وهو يصهر الرصاص او يسخن النحاس ، فاذا بلغ درجة الاحمرار راح يطرقه صفائح رقيقة ، على سندان صغير ، بمطرقة خفيفة ذات مقبض جميل . وكان « هذا رائع ! » يستعمل أيضا مبردا ، ومناشر رفيعة بعضها رقيق كالشعرة ، ويزن كل شيء بميزان دقيق من النحاس ، ويمزج سوائل مختلفة في وعاء من الصيني الكثيف ، فيعج جو الغرفة برائحة خانقة ، ويكثر ، وهو ينظر في كتاب ضخيم ، ويغمغم بشيء ما ، وهو يعض شفتيه الحمراءوين ويتنهد بلطف ويدندن :

— آه يا زهرة شارون . . .

— ماذا تفعل ؟

— شيئا هاما ، يا أخي .

— ما هو ؟

— ستري ، فأنا لا اعرف كيف اشرح لك ذلك الان لانهمك اياه . . .
— جدي يقول انك تزور العملة .
— جدك ؟ هم ! ذلك هراء ! ان المال ، يا اخي ، لا يستاهل كل ذلك
العناء .

— اذن ، ماذا تدفع ثمن خبزك !
— هذا صحيح ، فنحن لا نستطيع شراء الخبز بدون المال .
— ارايت ؟ واللحم كذلك . . .
— واللحم كذلك !
وضحك بهدوء ضحكة لطيفة بعثت الغبطة في قلبي ، ثم فرك اذني مداعبا
كما يفعل لقطعة صغيرة ، وأضاف :
— اني لا اقدر على مناقشتك يا اخي ، فأنت تفحمني دوما وتضيق
الخناق علي . فلنكف عن الحديث اذن .

كان يمتنع أحيانا عن العمل ويجيء فيجلس الى النافذة قربي ، يراقب
معي من خلالها أشجار التفاح تتعري من أوراقها ، أو المطر ينهمر على
السطح بعنف ويسيل في الساحة المغطاة بالعشب . وكان « هذا رائع ! »
بخيلا في كلامه ، فاذا تحدث لم ينطق الا بالكلمات الضرورية التي تبدو لي ،
دائما ، وكأنها الحقيقة بعينها ، واذا أراد أن يلفت انتباهي الى أمر ما ،
لكزني بمرفته وأشار الى الشيء بغمزة من عينه .

لم اكن أرى في ساحتنا شيئا يبعث على الاهتمام . ولكن تلك اللكزات ،
وما يرافقتها من كلمات ، كانت تضفي على كل ما أراه معنى خاصا وتحفره
عميقا في ذاكرتي . فهذه قطعة تمرق في الساحة ، ثم تقف أمام بركة من المياه
المتجمعة تراقب فيها انعكاس صورتها ، وترفع مخالبا المرعبة كما لو كانت
ستضرب بها الظل المنعكس ، فيقول « هذا رائع ! » بلطف :

— ان القطة المتكبرة متشككة !

ويطير الديك الاحمر الذهبي « مامي » . ويحط على السور ، ثم يخفق
بجناحيه ، وهو يكاد يفقد توازنه ، فيتضايق ، ويبدأ يصيح بغضب ، وهو
يمد عنقه الى الامام . . . ويقول :

— انه يتفطرس ، هذا الجنرال ، ولكنه اخرق عديم الشعور .

ويشق الإعرج فإلي طريقه وسط الساحة كحصان هرم ، وقد رفع رأسه العريض المتورم يتطلع شزرا الى السماء ، فوقعت عليه خيوط شاحبة من أشعة شمس الخريف جعلت أزرار معطفه النحاسية الكبيرة تلمع زاهية ، فتوقف التتري عن المسير ، ولس تلك الأزرار بأصابعه الملتوية متأثرا ، فقال صاحبي :

— انه يتأمل الأزرار وكأنها مداليات علقت على صدره !

وسرعان ما اكتشفت ان تعلقي بـ « هذا رائع ! » يزداد وثوقا وقوة . وأصبحت لا أستطيع له فراقا ، اتقاسم وياه جميع افراحي واحزائي . وبالرغم من مبله ، بطبيعته ، الى الصمت ، فهو لم يجرب أبدا ان يمنعي عن التحدث ، في اي وقت كان ، عن كل ما يجول في خاطري من أفكار . أما جدي فعلى نقيض ذلك ، ينهني كلما انفرجت شفطاي بقوله :

— كف عن ثرثرتك ، يا طاحونة الشيطان !

لكن « هذا رائع ! » يصغي الي بانتباه ، وغالبا ما يقول وهو يتسم :

— ولكن هذا غير صحيح ، يا أخي ! انك تخلق ذلك من مخيلتك كانت ملاحظاته الوجيزة جديرة بالعباية ، تقع في حينها فيخيل الى انه يستطيع ان يستشف ما في قلبي وعقلي ، ويخمن الاشياء المزورة المختلفة التي تجول في رأسي قبل ان تمر على شفطي ، فيذبحها ، عندما يراها ، ويخفق نقاشا لا فائدة منه قبل ان يولد بأربع كلمات لطيفة يقولها بشغف وولع :

— أنت تكذب !

— وكيف عرفت ؟

— أوه ، انني اعرف ذلك تماما ؟

كانت جدتي تصحني معها ، في كثير من الاحايين ، لنستقي الماء من مضخة ساحة سينايا . فرأينا ، ذات يوم ، خمسة من اهل المدينة يضربون فلاحا مسكينا ، ألغوا به على الأرض ثم هجموا عليه كعصبة شرسة من الكلاب فتناولت جدتي الدلو من خشبته ، وهجمت على البورجوازيين الخمسة ، وهي تصيح بي :

— أهرب من هنا !

كنت خائفا . فأسرعت وراءها ركضا . . . وشرعت أرمي الاعداء بالحجارة ، بينما انهالت الجدة عليهم بالعصا بشجاعة فائقة ، نال منهم الرأس والكتفين معا . واشترك في المعركة بعض الناس ، ففر البورجوازيون بأقصى ما يستطيعون من سرعة ، وعندئذ التفتت جدتي الى الفريسة تغسل وجهه الذي ائخنته الجراح . وما زلت ارتعد فرقا ، حتى اليوم ، كلما تخيلت كيف ضغط ذلك الفلاح شفتيه الممزقتين بأصبعه المتسخة ، وسعل ، ونبح بصوت عال ، بينما الدماء تنصب غزيرة من بين أصابعه على وجه الجدة وصدرها . وطفقت تنوح بدورها ، وترتجف من ام رأسها حتى أخمص قدميها .

وانطلقت ، عندما بلغت الدار ، الى غرفة المستأجر اقص عليه ما حدث . فتوقف عن العمل ، ووقف أمامي ، وهو يحمل مبردا طويلا كالسيف ، يصغي الى حديثي . ثم نظر الي بجفاء ورسوخ من تحت نظارتيه ، وقاطعني فجأة قائلا : وهو يشدد على كلماته بصورة غير معتادة :

— رائع ! هذا ما حدث بالضبط !

كنت مضطربا بعد ، متأثرا بما رايت ، فتابعته الحديث دون ان اعير اقواله انتباها . ولكنه احاطني بذراعه ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو نشاطعني من جديد ، ويقول في لهجة عتاب وتوبيخ :

— يكفي ، يكفي ! لقد قلت كل ما يجب ان يقال !

فتوقفت عن سرد الحديث . . . ألمني ذلك بادىء الامر ، ولكنني ، اذ تمعنت فيه جيدا ، أدركت في دهشة بالغة انه أوقفني في الوقت المناسب . . . كنت ، في الواقع ، قد رويت كل شيء . . .

قال :

— اياك ان تشغل فمك بسخافات كهذه . حاول ان تنسى ذلك !

كان ينطق ، أحيانا ، بأشياء هادئة جدا بحيث أظن لها ذاكرا طول الحياة . وقد حدثته مرة عن عدوي اللدود كوشنيكوف ، أحد أبطال شارع

نوفائيا ، وهو صبي سمين ، كبير الرأس ، لم اكن استطيع ان انال منه اكثر مما كان ينال مني ، واصفى « هذا رائع ! » الى متاعبي ، ثم قال :

— هراء ! ان قوة بهذا الشكل لا تعد قوة على الاطلاق . ان القوة الحقيقية تكمن في الحركة السريعة ، فكلما كنت نشيط الحركة سريعها كلما كنت قويا — أتفهم ؟

وفي نهار الاحد التالي جريت ان تكون لكماتي اكثر سرعة ، فاستطعت بسهولة كبيرة ان اتغلب على كوشنيكوف ، الامر الذي زاد من تقديري لكلمات جارنا ونصائحه .

— يجب ان تعرف كيف تمسك بالاشياء ، أتفهم ؟ انه عمل صعب ان تجيد مسك الاشياء .

فلم افهم ما عنى بكلامه ، ولكنني تذكرت ذلك ، واشياء اخرى عديدة مماثلة . تذكرت ذلك لان فيه سرا يكتنفه يثير في النفس ، بالرغم من بساطته، الحيرة والعجب .

كانت كراهية سكان دارنا لـ « هذا رائع ! » تزداد يوما بعد يوم ، حتى ان قطة السيدة الشاببة التي تتسلق غرف الجميع دون تفريق ، امست تستثنيه من هذه الثقة ولم تعد تلبس نداءه اللطيف . واغاظني ذلك منها فماقبتها عليه بشد الاذن ، ورحت اجرب — باكيا مترجيا — ان اقنمها بالا تخاف من صديقي . لكن « هذا رائع ! » يجد لها الاعذار ، فيقول لي :

— ان رائحة ثيابي تنفرها مني .

اما انا فكنت على ثقة من ان لكل فرد من اهل البيت ، بما فيهم جدتي ، اسبابا خاصة تدفعه لان يظمر البغض للجار ، ويناصبه العداء الشديد . وكنت ارى في كل ذلك خطأ فادحا يثير في الما لا يحتمل . . .

سألنتي جدتي بغضب :

— لم تحوم حوله دائما ؟ انتبه ! فالله وحده يعلم ما سيلقنك اياه !

اما جدي ، رأس الشر فكان يجلدني بوحشية كلما بلغه انني زرت ذلك

الاستأجر . وطبيعي انني لم اطلع « هذا رائع ! » على ما ينالني من عقاب
كلما عصيت أمر الامتناع عن زيارته ، غير انني اخبرته صراحة برأيهم فيه :

— ان جدي تخافك ، وهي تقول انك تشتغل بالسحر الاسود ، وهذا
هو رأي جدي ايضا ، فهو يقول انك عدو الله ، ومن الخطر على الناس أن
يتعاملوا معك .

فهز رأسه وكأنه يطرد ذبابة تضايقه ، ولم وجهه الشاحب بابتسامة
ينقبض لها قلبي ، ويترنح منها رأسي ، وقال بهدوء :

— اني استطيع رؤية ذلك ، يا اخي . هذا شيء محزن ، أليس كذلك؟
وأخيرا ، أبعده عن البيت . . .

وجدته ، ذات صباح بعد طعام الافطار ، متربعا على الارض يحزم
امنته وكتبه في حقائبه وصناديقه ، وهو يترنم بلحن زهرة شارون . . .

— حسنا ، الوداع يا صديقي ، اني ذاهب .

— ولم ذلك ؟

فتأملني لحظة قبل ان يجيب :

— الا تدري السبب ؟ انهم في حاجة الى غرفتي من اجل والدتك .

— من قال هذا ؟

— جدك .

— انه يكذب !

فضمني « هذا رائع ! » اليه ، وقال بهدوء ، بينما كنت اتخذ مجلسي
على الارض :

— لا تغضب ! ظننت انك على علم بتلك المكائد ، وانك تخفيها عني ،
ولذلك احدثك بأمرها يا اخي ، وأنا لا احب ذلك على أية حال . . .

ثم تابع هامسا :

— اصغ ... أنذكر مني اياك من زيارتي ؟

فأرمأت بالإيجاب ...

— لقد جرحت شعورك يرمذك ، اليس كذلك ؟

— نعم ؛

— أنا لم أقصد ذلك ، ولكنى عرفت انهم سيؤثبونك اذا ما اصبحنا
صديقين ، فأردت ان أوفر عنك عناء ذلك

وظلق يحدثني كما لو كنا اصدقاء في سن واحدة . وكانت كلماته تغمرني
بالرح والسعادة ، ويخيل الي اني اعرف — منذ أمد بعيد — كل شيء يريد
ان يطلعني عليه . قلت :

— لقد فهمت ذلك منذ مدة طويلة .

— حسنا ! ذلك أفضل ، يا اخي .

— وأجسست لما عنيفا يعتمر قلبي ، فسألته :

— لم لا يجبك أحد ؟

فاحتضنتني بلطف وتطلع بعيدا ، وهو يجيب :

— لانني غريب ، انهم ؟

فتعلقت بكتفه دون ان اعرف ماذا اتول او افعل ...

وأضاف :

— لا تغضب !

وهمس بعد فترة في اذني :

— ولا تبك أيضا .

ولكن الدموع انهمرت على خديه من تحت نظارتيه الموصختين ...
وجلسنا هكذا مدة طويلة صامتين ، كالعادة ، شاردين ، نجمم بين
حين وحين بكلمات مقتضبة .

وفي ذلك المساء ، وبعد أن ودع الجميع ، وعانقني بحرارة ، مضى في حال لحظة كومضة برق .

ركضت خارج البوابة ، أراقبه يبتعد وهو قابع على قمة العربة التي انطلقت تسحق بعجلاتها أكوام الاوساخ المتجمدة . . . ولم يكذب يرحنا حتى شرعت الجدة بتنظيف غرفته القذرة . فذهبت اليها ، ورحت أركض أمامها من زاوية لاخرى متعمدا مضايقتها . . . فصاحت بي :

— أخرج من هنا !

— لم طردتموه ؟

— هذا ليس من خصوصياتك .

— انكم حمقى ، كل هذه العشرة .

فأسرعت نلطنني بالمسحة المبلولة ، وهي تصيح :

— هل جننت ، أم ماذا ؟

فأجبت مصحفاً :

— لقد جن الجميع ، الاك . . .

وعلى طاولة العشاء ، مساءً ، قال جدي :

— حسنا ! شكرا لله على ذهابه . لقد كان كالخنجر يحز في قلبي كلها رأيت ، ولذا تخلصت منه .

فكسرت لمعة لشدة حنفي ، نلت جزاء عليها عذابا صارما . . .

وهكذا انتهت صداقتي مع أول انسان من تلك الجماعة التي لا تحصى من البشر — الغرباء في موطنهم الام — رغم كونهم افضل أبنائه .

استطيع ان اشبه نفسي طفلا بخلية نحل يحمل اليها اناس منباينون
عسل معرفتهم وآرائهم في الحياة ، وكل منهم يشترك اشتراكا واسعا ،
حسب إمكاناته الخاصة ، في اختلاف اطوار شخصيتي . وغالبا ما كان العسل
مرا ، ولكنه ، باعتبار معرفته ، كان عسلا على أية حال .

تمكنت أواصر الصداقة ، بعد رحيل « هذا رائع ! » ، بيني وبين العم
بيوتر ، وهو يشبه جدي في رفته ، وأنافته ، ونظافته ، وأن كان أضعف جسما
واخصر بقليل ، يثير مرآه في النفس صورة مراهق يرتدي - مجرد التسلية
فقط - ثياب شيخ طاعن في السن . وكان وجهه كثير التفضن ، تلتمع عليه
عيناه الضاحكتان كطيرين صغيرين . وكان شعره الرمادي الاثيب اجعد
الخصل ، ولحيته الطويلة تمتد بشكل دوائر عديدة ، وفمه ينمادى بغليون
يطلق دخانا يماثل لون شعره . وكان يخيل الي انه يهزأ بالناس دونما
انقطاع ، وهو يروي سيرة حياته :

— في البدء قالت لي الكونتس التي تملكني ، وتسمى تاتيان ، وتكنى
الكسيينها : ستكون حدادا . ولكني لم أكد أبدا ذلك العمل حتى قالت : كن
مساعدا للبستاني . فلم اعترض ، واصبحت بستانيا . ولكن ، كما يقول
المثل « اعط الخبز للخبار ولو أكل نصفه » . وعندما لم انجح في عملي الجديد ،
قالت : جرب ان تصطاد ، يا بتروشكا . فقبلت ، لان الامر سواء عندي ،
وابتعت عدة الصيد . ولم أكد اتعود عملي الجديد حتى قلت للاسماك وداعا ،
اذ أرسلتني سيدتي الى البلدة لآخدم فيها سائقا ، أو اي شيء اخر ارغب

فيه . وقبل ان تسنح لها الفرصة لتجعل منسي شيئاً اخر جاء التحرير
واجسيت طليقا لا املك الا الحصان . ومنذ ذلك اليوم اضحيت اتبع الد
بدلا من الكونتس .

كان حصانه هرما ، يخيل الي انه كان — فميما مضى من الزمن —
اللون ، لكان فنانا شملا رساه بفرشاة وسخة ، ولم يعن بمسح أ
الدهان عنه . كان حيوانا سثيما ، معوج الارجل ، يتدلى راسه الذ
بعينيه المتعكرتين في اسى بالغ من عنق يكاد الا يصله بالجسد الا
الاوردة الضخمة ، وقليل من الجلد الجاف المنكش .

ولكن العم بيوتر يعامله ، مع ذلك ، باحترام عظيم ، فيدموه تانيا
يضربه ابدا .

ساله جدي مرة :

— لم تطلق على حيوانك اسما مسيحيا ؟

— ولكن لا ، يا فاسيلي فاسيليفيتش — لا ابدا ! ليس تانيا
مسيحيا ابدا . ان الاسم المسيحي تاتيانا .

كان العم بيوتر على قنسط وافر من الثقافة ، وله بعض الالمام بـ
المقدس . فيخوض وجدي على الدوام غمار نقاش لا ينتهي ، موضو
اقدس الجميع بين القديسين ؟ وكانا يدينان ، دون رافة ، جميع الذ
الواردة اسماؤهم في التوراة ، وابشالوم منهم بصورة خاصة . و
نقاشهما يتخذ احيانا شكلا حامى الوطيس . فيصيح جدي ، بعد نقاش
وعيناه الخضراوان تلمعان شررا :

— اخرج من هنا ، يا الكسي !

كان العم بيوتر مولعا بالترتيب والنظافة الى حد بعيد . وايضا
الساحة يلتقط التضببان الصغيرة ، والنشارة ، وهو يهمهم مزجرا :

— انها لا تصلح الا لتعرض الطريق !

كان ثرثارا ، تدل ملامحه على اللطف والانس ، وان كانت سحابة
تمشى عينيه في بعض الاوقات ، فاذا هما اشبه بعيني جثة ميتة . و

ما كنت اراه جالسا في بعض الزوايا المظلمة ، صامبا ، مكثبا ، كابن اخيه .
فأركض اليه ، وأسأله :

— مما بك ، أيها العم بيوسر ؟

فيجيب بأسى نسيدي وموت قاس بكلمات لا أفهم منها شيئا .

وكان يقطن أحد منازل تسارنا سيد في جيبه حديه ضخمة ، ومسي رأسه هوس غريب لا يفارقه : فهو يجلس ، كل يوم احد ، الى انماذه يطلع النار على الكلاب ، والقطط ، والفراخ ، والعربان ، وحتى على المارد الدين لا ترون له رؤيتهم . وقد نعل ذلك مرة مع « هذا رائع ! » ، لكن الرصاص لم يخترق معطفه الجلدي لحسن الحظ ، وان وقع بعض الخردق في جيبه . وأنا أذكر كيف وقف صاحبي وتند ينفحص باهتمام تلك الحبات الرصاصيه في راحة يده . وعندما حته جدي على تقديم شكوى ضد المعسدي ، رمى تلك الحبات في زاوية المطبخ ، وقال :

— انها لا تستأهل ذلك .

— وقد أرسل ذلك الاحمق ، مرة أخرى ، بعض الخردق في ساق جدي ، الذي اهتاج كثيرا وشكاه الى حاكم البلدة ، وراح يجند الشهود صده . ولكن ذلك السيد اخفى ، فجأه ، وكأنها غيبته الأرض في جوفها .

كان العم بيوتر ، كلما ارتفع صدئ طلقات المجنون في الشارع ، يسرع الى تبينه الباهنة اللون ، العريضة الحافة ، التي لا يرتديها الا ايام الاحاد فيضعها على رأسه ثم يخرج من البوابة ، وقد نفخ بطنه ، ووضع يديه تحت مؤخرة معطفه ليجمعه يرفع كذنب الطير ، ثم يروح يتمشى بنؤدة وكبرياء بالقرب من نافذة ذلك الاحمق ، ولا يمل من ذلك ابدا . ويتجمع سائر سكان منزلنا قرب البوابة يراقبون ما يجري في الشارع ، بينما يطل الضابط وزوجته المشغراء من النافذة ، وتغص ساحة بيتلينغ بالمستأجرين ايضا ، ولا يظل غير منزل آل اوفزيافيكوف عديم الحركة ، فكأنه قبر لا يضم الا الاموات . . .

كان تصرف العم بيوتر يظل دون جدوى في بعض الاحيان — فالصياد لا يحسبه صيدا يستأهل الرمي . . . وفي احيان اخرى ، كانت طلقتنا البندقية تنتابعا بشكل يصم الأذان .

— ببو! ببو! ...

فيقترب العم ببوتر منا ، دون ان يغير من سرعة خطواته ، ويقول برضى عظيم :

— لقد اصابني في ذيل معطسي .

لكن الطلقة اصابته ، ذات مرة ، في عنقه وكتفه ...

سالته جدتي ، وهي تزيل بابرّة خياطة ما اخترق جلده من رصاص :

— لم تثيره هكذا ؟ ذلك المخلوق الشرس ! قد ينتهي بأن يقلع عينيك !
فيجيب باحتقار :

— اوه ، لا ، يا اكوينا ايفانوفنا ! انه لن يفعل ذلك ابدا ! فهو لا يحسن الرماية على الاطلاق !

— ولم تعطيه فرصة لارضاء غروره ؟

— لارضاء غروره ؟ ولكني انما افعل ذلك لاغاضته فقط .

ويضيف ، وهو يتطلع الى مكان الجرح :

— كلا ، بالتأكيد ليس هذا برام ابدا ! ان الكونتس تاتيان الكسييفنا قد ارتبطت ، مرة ، بعلاقات زواج مؤقتة — فقد كانت تستبدل ازواجهها كما تستبدل ثيابها — مع ضابط يدعى مامونت ايليتش . حسنا ، ذلك كان راميا غذا وربي ، أيتها الجدة ، يستطيع ببندقيته ان يفعل كل شيء . لقد كان يوقف الابله اجناشكا على بعد أربعين خطوة أو أكثر ، ويربط زجاجة الي حزامه الجلدي ، بحيث تتدلى بين ساقيه اللذين يفرج اجناشكا بينهما وهو بضحك كالمجنون . وعندها يصوب مامونت ايليتش البندقية ، ويطلق النار ، فاذا بالزجاجة تتطاير شظايا صغيرة ... وذات مرة ، حرك اجناشكا ساقه — لعل ذبابة عقصته — واذا الرصاصة تصيب منه الركبة ، وتحطم العظم . وقد استدعي الطبيب فاسرع ، في مثل طرفة عين ، يقطع الساق ... هكذا ، من هنا — واشار باصابع يده الى مكان القطع — ولقد دفنوها ...

— واجناشكا ؟ هل مات !

— اوه ، لقد استمر يعيش في احسن حال ، فالبلهاء لا يحتاجون ابدا
لللايدي والارجل ، بل يعيشون في عالمهم الجنوني ، يفتنون من بلاهتهم ،
وجميع الناس يحيونهم ويقدمون لهم المعونة . . . انهم جماعة غير مؤذية ، كما
يقول المثل : « من لا عقل له ، لا ضرر منه » .

لم تؤثر تلك القصة في جدتي ، فهي تعرف الكبر من تلك القصص ،
ولكنها جعلتني ارتجف ، فسألت صاحبي :

— ايستطيع اى من النبلاء ان يقتل اي انسان كان ؟

— ولم لا ؟ انه يستطيع ذلك ! بل ان النبلاء يقتلون بعضهم بعضا
احيانا . وقد حدث مرة ان جاء احد الفرسان لزيارة تاتيان الكسيفنا ، فاشتبك
مع مامونت في معركة حامية الوطيس ، وقد شهر كل منهما مسدسه ،
ومضيا معا الى الحديقة . وهناك ، في المر ، بالقرب من البحيرة ، اطلق
الخيال النار على مامونت فاصابه في كبده . . . حسنا ! مضى مامونت
الى ملكوت السماوات ، ومضى الخيال الى بلاد القوقاز ، وكان ذلك نهاية
كل شيء . . . ارايت ؟ انهم يتذابحون ! اما الفلاحون ومن كان على ساكنهم
فما اكثرهم ! وخاصة في هذه الايام ، حيث لم يعودوا يملكونهم كما من قبل .
لقد كانوا ، قبلا ، اكثر حذرا وعناية ، لان الموجيك . على اية حال ، كان
ملكا لهم !

فقالت جدتي :

— انهم لم بعنوا بهم ، حتى في ذلك الحين ايضا .

فوافق العم بيوتر بأشارة من راسه ثم تابع يقول :

— نعم ، ذلك صحيح ! ملكية خاصة بهم ، ولكنها ملكية رخيصة .

كان لطيفا معي الى حد بعيد ، ان تحدث الى فبرقة لم اعهدا عنده في
معاملته للكبار ، ودون ان يفلق عينيه ايضا كعادته التي لم تكن تروق لي . . .
ولكن شيئا فيه لم يعجبني . كان عندما يعزمننا على المرعى المفضل ، يقتطع
لي من الخبز قطعة تكبر حصة الاخرين . واذا زار المدينة ، جلس لي معه
كعكا وحلوى ، وجذور السوس ، وكثيرا ما كان يسألني بهدوء واهتمام :

— حسنا ، ماذا ستفعل عندما تكبر ، ايها الشاب ، اتريد ان تكون جنديا ، ام موظفا ؟

— بل جندي !

— ذلك يليق بك ، اذ لم تعد حرفة الجندي صعبة في هذه الايام . وكذلك الامر بالنسبة الى الكهنة — ما عليك الا ان تسير في الشارع ، وتصيح : « يا رب ارحم ! » فينتهي كل شيء فحياة الكاهن أسهل بما لا يتعدى ، من حياة الجندي . ولكن الافضل لك ان تحترف صيد السمك ، لان الصياد لا يحتاج الى أية معرفة على الاطلاق — ما عليه الا ان يعتاد ذلك فقط ، وهذا كل شيء

ويتوقف قليلا ليعود ، بعد فترة ، يهز رأسه بمرارة ويقول :

— انك تغضب عندما يجلدك جدك ، اليس كذلك ؟ انك مخطيء اذن يا صاح ، اذ ليس من سبب يدعوك الى الغضب في مثل هذه الحال . انهم لا يجلدونك الا لمصلحتك الخاصة ولكن ، هناك سيدتي تاتيان الكسييفنا مثلا ، تلك امراة تعرف كيف تجلد الناس ، لا بل كانت تحتفظ بشخص خاص لمثل تلك الاعمال — ويدعى كريستوفور — وهو اختصاصي في فن الضرب ، طبقت شهرته الاتاق حتى أصبح الملاكون المجاورون يطلبونه من الكونتس . فيرسلون اليها يرجونها : تلطفي ، يا تاتيان الكسييفنا ، وأعيرينا كريستوفور لينزل العقاب بعبيدنا . فكانت ترسله اليهم وفي نفسها شيء من الاعتداد .

وراح يروي لي ببرود وأطناج كيف كانت الكونتس تجلس على كرسي احمر اللون بالقرب من بوابة قصرها ، تتألق في ثوب ابيض من الحرير ، ووشاح ازرق يلتف حول كتفيها ، تتطلع الى الجلالد كريستوفور يجلد العبيد من ذكور واناث بشغف ولذة :

— لقد كان كريستوفور هذا ، بالرغم من قدمه من ريزان ، يشبه غجريا او اوكرانيا في مظهره : فشاربه يمتد من الاذن الواحدة حتى الاخرى ، ووجهه شديد النورم لانه كان يطلق لحيته دوما . ولسنت أدري ان كان يصف مجنون ، او انه يدعي ذلك حتى تتيسر شؤون حياته . وكثيرا ما كان يدخل الى المطبخ ، ويملا أحد الاحواض ماء ، ثم يصطاد ذبابة ، او حشرة ، او بعض الخنافس ، ويتسلى باغراقها في الحوض بان يدفعها

تحت الماء بطرف أحد القضبان ، ويقضي زمنا طويلا منهمكا في هذه المهمة الغريبة . وكانت ياقة تميصه تقدم له ، في كثير من الاحايين ، فرائس هوايته .

كنت اعرف كثيرا من تلك القصص ، فقد روى لي جدي عددا لا يحصى من امثالها . وهي ، بالرغم من اختلافها ظاهريا ، تتشابه بصورة غريبة جدا ، موضوعها دوما الالام البشرية ، والذل ، والهوان ، وفي كل منها انسان يتعذب ، او عبد يضطهد ، او فلاح يسخر منه . ومللت ، كل الملل ، تلك الاتفاصيص وعزقت عن سماعها فقلت للسائق :

— حدثني عن شيء آخر .

فجمع سائر خصل لحيته المجددة فوق فمه ، ثم رفعها حتى عينيه ، وأردف موافقا :

— حسنا ، ايها الجثع ! هاك شيئا اخر . . . لقد كنا نملك ، مرة ، طبابخا . . .

— من كان يملك الطبخاخ ؟

— الكونتس تاتيان الكسييفنا .

— ولم تدعوها تاتيان ، كما لو كانت رجلا ، عوضا عن تاتيانا ؟ انها امرأة ، اليس كذلك ؟

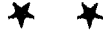
— بالطبع ، انها سييدة ! لكنها ، مع ذلك ، ذات شارب امود اللون ، فهي جرماتية الاصل ، اهلها اشبه بالقنائل السود . حسنا ، لقد كنا نملك طبابخا ، هيه هيه ، هذه قصة مضحكة ، يا عزيزي . . .

كانت تلك القصة المضحكة تتلخص في ان ذلك الطبخاخ امسد ، مرة ، طائرا يطبخه ، فعوقب على ذلك بتناوله طعاما دفعة واحدة . وكانت نتيجة ذلك ان سقط مريضا ، ولازم الفراش طويلا . فقلت معقبا باشمئزاز :

— انها ليست بالقصة المضحكة على الاطلاق .

— ما هو المضحك اذن ؟ هيا ارو لي . . .

— لست أدري .
— اذن ، عليك بالصمت .
ومرة اخرى ، راح يلفق اقايصه المملة ...



كان يزورنا ، احيانا ، ايام الاحاد والاعياد ، ابنا خالسي ، احدهما ، ابن ميخائيل ، حزينا كسولا كعادته ، والاخر ، ابن ياكوف ، نظيفا ، ذكيا ، ولما بكل الامور ، كعهدي به ابدا . وفي ذات يوم ، بينما كنا على السطح — ثلاثتنا — شاهدنا سييدا مقتعدا كومة من الاخشاب في ساحة آل بيتلينغ ، يلعب عددا من الكلاب الصغيرة . كان يرتدي معطفا طويلا اخضر اللون ، يضع فوقه فراء شمينا اسوداً ، اما راسه الصغير دون شعر — الاصفر اللون ، فكان دون غطاء . اعجبنا بالكلاب ، فاقترح ابن خالسي ميخائيل ان نسرق احداها الامر الذي لقي منا تأييدا تاما دون ادنى تردد . . . فرسنا ، بسرعة فائقة ، خُطلة لذلك مؤداها ان يخرج ابنا خالسي الى الشارع ، وينتظران عند بوابة آل بيتلينغ الكبيرة ، بينما اقوم انا بأخافة ذلك الرجل ، حتى اذا هرب انتهزا فرصة الفوضى التي ستنتج عن ذلك ، ودلفنا الى المساحة ليختطفنا الجرو الصغير ، سألت :

— وكيف اخيفه ؟

فماقترح احدهما :

— ابصق على راسه الاصلع .

فلم اجد في البصاق على راس اصلع خبطية كبيرة ، فانا اعرف اساليب عديدة لانزال الاذى والضرر بالناس تفوق هذه شرا بشكل عنيف . ولذا لم اتردد في تنفيذ تلك المهمة التي عهد بها الي . . .

لكن ذلك التصرف اثار ضجة كبيرة ، وسرعان ما غزا ساحتنا جيش كامل من نساء آل بيتلينغ ورجالهم جاؤوا ، يقودهم ضابط فتي انيق . وباعتبار ان زميلي كانا يلعبان بكل هدوء في الشارع اثناء ارتكاب الجريمة ،

تدري لي ان اتحمل الجزاء وحدي من دونها ، فقام الجد الكريم بجسدي ،
في احتفال كبير ، متملقا سكان الدار المجاورة مخفيا من غضبهم
ونقمتهم .

كنت اضطجع في المطبخ محطم الاعصاب ، متأما ، عندما
جاءني العم بيوتر ، وقد ارتدى أبهى ثيابه ، يبدو عليه انه في احسن حالاته
النفسية وهمس في أذني :

— تلك فعلة عظيمة تدل على الذكاء والفطنة ، يا صاح ! ان ذلك
التيس الهرم البالي ليستحق ما ناله ! ابصق على عشيرتهم كلها ! كان افضل
لورميت رأسه الاصلع بقرميدة ضخمة . . .

فتذكرت ذلك السيد المرتدي معطفا أخضر ، المدور الجسم ، الاصلع
الرأس ، بوجهه الذي يشبه وجوه الجراء الصغيرة ، وقد طفق يزعق بهدوء
والم كالكلب الصغير ، وهو يمسخ رأسه الاصفر بيديه الصغيرتين .
واحسست بخجل عظيم لا يوصف ، وبالكراهية لانني خالي في ذات الوقت ،
ولكنني نسيت كل ذلك الان ، اذ رأيت وجه ذلك السائق الذي يشبه السلة
المحفورة بالعضون العميقة ، والذي اكتسى مظهرا يبعث على الرعب والنفور
الشديدين ، لا يدانيه في شناعته الا وجه جدي اثناء جلده اياي .

صحت ، وانا ادفع بيوتر عنى بيدي وقدمي :

— اخرج من هنا !

ومنذ ذلك الحين ، فقدت كل رغبة في التحدث اليه ، ورحت اتجنبه ،
واراقبه في الموقت ذاته ، فكانني اتوقع منه شيئا ما لا اعرف ماهيته على
وجه التحقيق !



وتبع تلك المغامرة ، بعد فترة وجيزة ، حادث اخر . . . كان منزل آل
اوفزيانيكوف موضع اهتمامي وشغلي الشاغل منذ مدة طويلة ، يبدو لي ان
جدرانه العتيقة الرمادية تنطوي على وجود شيء غريب لا مثيل له الا في
الاقاصيص الخرافية .

وكان منزل آل اوفزيانيكوف كثير الضوضاء والمرح ، تعيش فيه مجموعة فتانة من الفتيات يتودد اليهن عدد من الطلبة والضباط الذين كنت تجدهم ابدا — ايان جثتهم — يضحكون ، ويصيحون ، ويغنون ، ويلعبون ، ويعزفون الالحان الموسيقية . وكان للمنزل نفسه مظهرا سارا ، ينبعث من نوافذه المتلحمة بريق النباتات الاخضر بزهوره النادرة . ولكن جدي لم يحب ذلك ابدا ، فهو يدعو سكانه جميعا بالكفرة والهرطقة ، بينما ينعت نساءه بكلمة بذئثة غريبة ، فسر لي معناها العم بيوتر مرة بطريقة جد واضحة ...

لكن الجد كان متأثرا من العبوس والسمت المخيمين على دار اوفزيانيكوف ، واللذين كانا يبعثان فيه الاحترام والتقدير ، كان منزلا عاليا ، وان كان يقتصر على طابق واحد فقط ، يشرف على ساحة مترامية الاطراف نظيفة مفروشة بالاعشاب ، ينتصب في وسطها بئر ماء عذب تحت سقف صغير قائم على دعامتين . وكان يقوم ، عن يمين مدخل البوابة الكبرى، مخزن للمحصولات يشبه المنزل الاصلي في كل شيء سوى ان نوافذه حصنت بطائرات سميت بالجدار ، وطلبت شرائحها باللون الابيض . وكان مظهر هذه النوافذ يبعث على النفور والقرف ، ويضعف في غموض الدار الاساسية ، وتستترها عن الاعين ، وسعيها الى العيش حياة خاصة ، غير مفهومة . كان العقار بكامله ، بما فيه الاسطبلات ، ومخازن المحصولات الفارغة ببواباتها الكبيرة ، يبعث في النفس احساسا من الانتفاخ الصامت ، والكبرياء الهائلة .

كنت اشاهد ، احيانا ، شيخا باسق القامة ، حليق اللحية ، ابيض الشاربين المنتصب شعرهما كالابرة الحادة ، سدب في الساحة وهو يعرج على رجل واحدة . ومن وقت لآخر ، كان شيخ اخر ذو سالفين طويلين ، وأنف اقنى ، يخرج من الاسطبل يقود حصانا رمادي اللون ، ضبق الصدر ، طاعن السن ، ضامر القوائم ، فاذا بلغا الساحة مرة ، شرع الحصان يهز رأسه في كل الاتجاهات مثل راهبة طيبة القلب تحيي جميع من تصادفهم في طريقها ، بينما يروح الشيخ يضربه بقسوة على مؤخرته ورقبته ، ويصنر ، ويتنهد بعمق ، ثم يعود به ثانية الى الاسطبل المظلم . وكان يتهاى لى ان ذلك الشيخ بود الهرب والاملات من تلك الدار تملا يستطيع لانه كان مسحورا .

وفي كل يوم تقريبا ، منذ الظهر حتى المساء ، كان ثلاثة اولاد يلعبون

في الساحة ويمرحون . كانوا يرندون معاطف رمادية ، وقمصانا وتبعات
المماثلة ، لا بل كانوا جميعا ، بوجههم المستديرة ، واعينهم العسلية ،
يشبهون بعضهم بعضا كل المشبه حتى لم استطع التفريق بينهم الا باختلاف
قاماتهم فقط .

كنت اراقبهم من خلال شق صغير في السور دون ان يلحظوا وجودي .
الامر الذي كان يزعجني كثيرا . وكنت ابتهج برؤية العابهم اللطيفة المسرة
غير المألوفة لدي . واحببت ، بصورة خاصة ، ثيابهم وطريقة عناية كل
منهم بالآخرين ، وخاصة كبيرهم بأصغرهم سنا — وهو فتى عنيذ ، يبعث
الغبطة في القلب ، والانشراح في النفس . كانوا ، اذا ما سقط على الارض،
يضحكون جميعا ، ذلك ان الناس يضحكون دوما كلما وقع امرؤ على الارض،
ولكن ضحكهم هذا كان بريئا من الخبث مجردا عن الدناءة . وسرعان ما
يساعده الاخران على النهوض ، ثم يمسحان يديه وركبتيه بورقة من بعض
الاشجار ، او بمنديليها . . . وكان الاوسط بجمجم بصوت رقيق عذب :

— الحق عليك ايها الغشيم !^١

ولم ارهم يتخاصمون ، او يخدعون بعضهم بعضا ابدا . . . بل كان
الثلاثة اقوياء ، نشيطين ، ممثلين حماسة .

تسلقت شجرة ذات يوم ، وصفرت لهم سعيا وراء استجلاب انتباههم
الي . فتوقفوا عن الحركة ، ثم شخصوا بأبصارهم الي ، وراحوا يتشاورون
بصوت منخفض . . . فانتظرت ان يرموني بالحجارة . فأسرعت بالهبوط من
مجثمى لاتسلق اليه ثانية ، بعد قليل ، وقد امتلا قميصي وجيوبتي بالحصى .
ولكنني وجدتهم يلعبون في زاوية بعيدة من الساحة ، وقد نسوا — فيما يبدو —
كل شيء عني . كان ذلك امرا يؤسف له ، ولكنى لم أرغب في ان
اكون البادىء باعلان الحرب . . . وما اسرع ان نادى احدهم من النافذة :

— الي البيت ، ايها الصغار ! اسرعوا . . .

فاستداروا طائعين ، وساروا كالاوز ببطء وتثاقل . . .

وكثرا ما تسلقت ، فيما بعد ، تلك الشجرة المنتصبية فوق السور ،
رجاء ان ادعى كى اشاركهم اللعب ، ولكنهم لم يدعوني . . . وكنت ، في
تصوراتي ، اشاركهم تلك الالعب على اية حال ، واتحمس لها كثيرا حتى

لاهتف أو أضحك عاليا من وقت لآخر . وعندئذ ، كان الثلاثة يرمونني بنظرهم ، ثم يتهامون فيما بينهم بما لا افقه منه شيئا ، بينما اهبط أنا عن تلك الشجرة حائرا مرتبكاً .

وذاث يوم ، شرعوا يلعبون « الغمبضة » ، وكان على الاخ الاوسط ان يفتش عن الاخرين ، فوقف في زاوية قرب المخزن ، وقد وضع يديه على عينيه ، دون ان يختلس النظر ، بينما مضى الاخران يفتشان عن مخبأ . وأسرع الكبير ، وتسلق العربة الجلدية التي كانت في الساحة بحركات سريعة محكمة ، ثم استقر بسطح المخزن البارز . غير ان الصغير ظل بدور ويدور حول البئر ، دون ان يعرف أين يختبئ .

صاح الاوسط سنا :

— واحد ... اثنان ...

فتسلق الصغير ، في شبه جنون ، حاظفة البئر ، وتعلق بالحبل ، ثم قفز الى السطل الفارغ الذي اختفى على الفور ، مصطدما بعنف ووحشية بجدران البئر الحجرية ... وامتلات رهبة ، عندما رأيت ان الحبل يهوي باندهفاع وسرعة ، غير أن ذعري لم يطل اكثر من ثانية واحدة ، بل سرعان ما تصورت هول ما سيحدث ، قفزت داخل الساحة المجاورة ، وأنا أصيح :

— لقد وقع في البئر !

كان الاوسط قد بلغ البئر ، في اللحظة التي وصلت فيها اليه ، فتعلق بالحبل الذي رفعه عاليا ثم رماه على الارض وقد أحرق يديه . ونجحت في الإمساك بالحبل بدوري ، وفي ذلك الحين ، وصل الكبير راكضا ، وساعدني في رفع الدلو ... قال :

— تمهل ، أرجوك !

أخرجنا ذلك الصغير الذي بدا عليه الرعب بوضوح ، والدم يتدفق من أصابع يده اليمنى ، وقد جرح أحد خديه بشكل ظاهر ، وابتل حتى خصره ، وشحب لونه كثيرا . ولكنه ابتسم مع ذلك ، وقال وهو يرتجف :

— يا لله ... لم أعرف كيف سقطت !

وتلثم الاخ الاوسط :

— أنت مجنون !

وراح يحتضنه ، ويمسح الدم عن وجهه ، بينما قطب الاكبر وجهه ،
وقال :

— تعال ، فنحن لا نستطيع اخفاء هذا الجرح باي شكل . يحسن
بنا أن نسرع الان .

فسألت :

— هل ستجلدون ؟

فهز راسه ، ومد يده لي ، وقال :

— انك تركض بسرعة غريبة .

فتمايلت لمديحه ، وقبل ان اصافحه ، راح يقول للاوسط :

— هيا بنا ، والا اصيب بالبرد . سنقول ، بكل بساطة ، انه وقع على
الارض . ومن المخجل ان نقول عن البئر شيئاً .

فوافق الصغير :

— نعم . سنقول انني وقعت في مستنقع .

ثم مضوا ...

غاب الاخوة الثلاثة ، بعد ذلك ، طوال اسبوع عن انظارني ...
وعندما ظهروا اخيراً كانوا أكثر ضوضاء منهم في أي وقت اخر . وسرعان ما
صاح كبيرهم ، عندما بصر بي ، بلطف ونعمومة :

— تعال تلعب سوية .

فخرجت اليهم ، وتسلقنا معا عربة عتيقة مهجورة حيث قضينا فترة من
الزمن نتعارف . سألت :

— هل ضربتم ؟

فأجاب الكبير :

- لقد نلنا نصيبنا ، جميعا !
- كان يصعب علي أن أصدق أن هؤلاء الحبية يجلدون مثلي ، واعتبرت ذلك ظلماً ، فتأملت من أجلهم . . .
- سأل الصغير بتردد :
- لم تصطاد العصافير ؟
- لأنها تغرد بصوت حلو رائع .
- لا تفعل ذلك بعد الآن . دعها احراراً تطير أنى تشاء .
- حسناً ، لن أفعل ذلك ثانية .
- ولكن ، قبل ذلك ، اصطد واحداً الآن واعطنيه .
- بـ أيها تفضل ؟
- لا فرق ، بل فليكن مفرداً فاضعه في قفص .
- ذلك يجب أن يكون بلبلا .
- فقال الأوسط :
- ستقتله القطعة . ولن يتركها والذي نحتفظ به .
- فوافق الكبير بايماءة من رأسه وقال :
- هذا صحيح !
- هل عندكم أم ؟
- فأجاب البكر :
- كلا ، ولكن . . .
- فقال الأوسط مصححاً :
- نعم لنا . . . ولكن واحدة أخرى ، وليست أمنا ، أمنا ماتت .
- فقلت :
- هذا النوع من النساء يسمى خالة .
- فأما البكر فقال :

— هذا صحيح !

وغرق ، الثلاثة ، في صبت عميق ...

كنت اعرف ، من أقاصيص جدتي ، ما هي الخالة ، فلم يمسر علي ادراك معنى حزنهم العميق هذا ، وقد جلسوا الان متلاصقين متراكمين مثل صيصان ثلاثه ، صغيرة ، مذعورة ... وتذكرت قصة تلك الخالة الساحرة التي لجأت الى أحط الوسائل غير المشروعة لتحل مكان الام الحقيقية ، فحاولت ان أعزي الصبية بقولي :

— لا تغنموا ! ان أمكم الحقيقية ستعود ثانية .

فهز البكر كتفيه ، وقال :

— وكيف تعود وهي ميتة ؟ ان ذلك لن يحدث !

هل صحيح ان الموت ، في مثل هذه الحالات ، لم يرسل من قبل الله ، بل

من قبل المشعوذين والسحرة ، وبالتالي لم يكن حقيقيا !

وظفقت أروي لهم بعض حكايات جدتي بحماسة وحمية ، ولكن الولد البكر ابتسم باحتقار ، وقال :

— لقد سمعنا هذه الحكايات ، انها قصص خرافية ليس غير ! ...

وأصفي اخواه باحترام وهدوء ، وقد قطب الصفير وجهه ، وزم شفثيه ، ووضع الاوسط ذراعه على ركبته ، واحاط بساعده الاخر رقبة أخيه وهو يجذبته في اتجاهي .

كان كل شيء ساكنا عند المساء ، وسحب رمادية عديدة تحلق فوق المسطوح العالية ، عندما ظهر بيننا ذلك الشيخ الابيض السالفين ، وقد ارتدى معطفا بنيا طويلا يشبه جبة الكهنة ، وغطى رأسه بقبعة كثيفة من الفرو . اقترب منا ، ثم سأل وقد أشار إلي بأصبعه :

— من هذا ؟

فنهض كبيرهم ، وأشار برأسه الى دار جدي ، وقال :

— هو من هناك .

— ومن طلب اليه المجيء ؟

فنزل الثلاثة حالا عن العربية ، ومضوا في اتجاه البيت .
مرة ثانية ، كالاوز المطيع ...

رامسك الشيخ بي بخشونة من كنتفي ، وقادني عبر الساحة حتى
البوابة . كنت اود ان اذرف الدموع من شدة خوفي ، ولكنه مشى بي مسرعا ،
وبخطوات كبيرة . بحيث وجدته في الشارع قبل ان اتمكن من البكاء . ووقف
بالقرب من البوابة ، وهيا أصبعه في وجهي مهددا ، وقال :

— اياك ان تتجاسر وتحضر لرؤيتي ثانية !

فصحت غاضبا :

— انا لم احضر لاراك انت ، ايها العجوز !

فطالني ذراعه الطويلة مرة اخرى ، وقادني امامه على طول الطريق ،
وهو بكرر ذات السؤال ، فتنهال كلماته مثل ضربات مطرقة ضخمة هبطت
على رأسي :

— هل جدك في الدار ؟

وثناء حظي العائز ان يكون جدي في الدار ... وقف امام الرجل
المتوعد ، وقد رمى رأسه الى الخلف ، وبرزت لحيته الى الامام ، وقال متلعثما
وهو يتطلع بعينين مدورتين كبيرتين كئيبتين :

— ان والدته غائبة ، وانا مشغول ، وليس من يعنى به . انسي
استميطك العذر ، يا كولومبي .

فزمجر الكولونيل بصوت تردد صداه في أرجاء البيت كله ، ثم دار على
عقبه ، وأبتعد ...

وبعد فترة وجيزة كنت مستلقيا في عربة العم بيوتر أخفي دموعي ،
بعد ان تلت نصيبي من الجلد كما لم اذق من قبل . فسألني السائق ، وهو
بقود العربية :

— أجلدت ثانيه ، يا عزيزي ؟ ما هو خطاك في هذه المرة ؟

ولما أخبرته بالامر هب واقفا على قدميه ، وكز باسنانه ، وصاح غاضبا:

— لم أصادق جماعة مثل اولئك ؟ انهم من سلالة النبلاء ، يعقصون كالانعى . . . رأيت ما نالك بسببهم ؟ ستردها لهم فيما بعد ، من دون ريب؟
اليس كذلك ؟

واستمر يهذر على هذا الفرار مدة طويلة ، فاستمعت اليه — بادىء الامر — في كثير من الود ، نائرا بسبب ما لحقني من الضرب بسببهم . ولكن وجهه الشبيهه بالسلة طفق يرنجف بشكل يبعث على النفور ، فما أسرع ما تذكرت ان اولئك الصغار يجلدون أيضا ، وان ذلك قد حدث لهم فعلا فيما مضى ، وانهم لم يتعمدوا مضايقتي أبدا ، فهم لا يستحقون اللوم أكثر مني في حال من الاحوال . قلت :

— ليس من سبب يجعلني ارد ذلك لهم . فهم طيبون ، وان كل ما تقول مجرد سخافات ليس غير .

تطلع الي بحدّة ، ثم صاح فجأة :

— اخرج من عربتي !

فصرخت ، وأنا أقفز الى الارض :

— يا لك من أحمق !

وانطلق يعدو خلفي في الساحة وهو يصيح ، دون ان يستطيع الى امساكي سبيلا :

— احمق أنا ؟ أسخيف أنا ؟ . . .

وظهرت جدتي على عتبة المطبخ ، غارتميت في احضانها ، بينما راح بيوتر يوضح لها ما جرى بيننا قائلًا :

— ينغص حياتي هذا الكلب الصغير . وهو لا يفقه ما يقول ، فينعتني بسائر الاسماء البذيئة ، ويجرؤ على ان يدعوني كاذبا مع اني أكبره بخمس مرات . . .

كنت أفقد صوابي عندما أرى الناس يكذبون أمامي ، فتمعقد الدهشة
لساني وتجعلني أقرب الى البلاهة . وهذا ما حدث لي عندئذ ، فوقفنا أنظر
اليه وقد فقدت القدرة على الكلام . . . ولكن الجدة قالت بلهجة رصينة :
— والان يا بيوتر ، انك أنت الذي يكذب . اني واثقة من انه لم يوجه
اليك الفاظا بذينة على الاطلاق .

اما جدي فكان يصدق ذلك السائق . . .



ومنذ ذلك اليوم ، اعلنها السائق علي حريا صامتة شموع ، فهو ينتهز
الفرص ليلكنني في ظهري ، او يصيبيني باللجام الذي يلوحه بيده عابثا ،
وكان الامر يحدث صدفة دون قصد منه ، كما افلتت طيورني من اقفاصها ،
وسلط القط عليها في احد الايام . . . وكان يشكوني ، في كل مناسبة ، الى
جدي ، ويهمس في اذنه بأشياء كثيرة مغاليا ابدأ في اظهار هفواتي وتعظيمها .
وهكذا كنت لا أرى فيه ، من جراء ذلك ، سوى صبي صغير في مثل سني ،
يرتدي لباس الرجال الشيوخ .

ورحت بدوري أتفنن في الانتقام منه ، فاحل شرائط صندليه ،
وأقرض عصابت الاممشة التي يستخدمها كجوارب لقدميه ، بحيث تتقطع
عندما يشدها ليربطها . ورششت ، مرة ، بعض الفلفل في قبعته ، فظل
يدور على عقبه ويعطس طيلة ساعة كاملة . وعلى العموم ، فقد رحت أبذل
ما في وسعي لارد له الكيل، خيلين ، فاذا جاء يوم الاحد طفق يتجسس علي
النهار بطوله ، ويراقبني بعين ساهرة يقظة لا يغمض لها جفن ، فان ضبطني
في حالة من العصيان ، أتحدث مع النبلاء الصغار ، أسرع دون ابطاء يشي بي
الى جدي .

لكن اتصالاتي استمرت ، بالرغم من ذلك ، مع اولئك الصبية ،
وازدادت أوصرها توثقا يوما بعد يوم ، وهي تمدني بسرور لا يمكن وصفه .
وكأنت تنهض ، بين حائط منزل جدي وسور آل اوغريانيكوف ، زاوية صغيرة
مظلة بشجر الليمون والسرو ، ومغطاة بادغال من شجر البلوط التي
حفر وراءها متسعا صغيرا في السور يأتيني الصبية منه ، كل بدوره او اثنين

اثنين ، فنجلس القرفصاء نتحدث في هدوء وسكينة ، بينما يخفر الثالث المكان كيلا يفاجننا الكولونيل على حين غرة .

وسردوا علي قصة الحياة الكئيبة المفجعة المرتيبة التي يعيشونها ، فاحزنتني ذلك كل الحزن ، وحز كثيرا في قلبي . كنا نتحدث عن الطيور التي نسطاها ، وعن كثير من الامور التي نهلا حياه الصغار ، ولكنني اذكر تماما انهم لم يأتوا أبدا على ذكر والدهم أو امرأة أبيهم . وكثيرا ما كانوا يسألونني ببساطة ان احكي لهم قصة ، فاعيد على مسامعهم — بأمانة تامة — كل تلك القصص والحكايات التي سمعتها فيما مضى فماذا نسيت بعض التفاصيل ، طلبت اليهم الانتظار بعض الوقت ، ومضيت الى المطبخ اتزود من الجدة ما غاب عن ذاكرتي الامر الذي كانت تسر له سرورا عظيما .

كنت احدهم ، في أغلب الاحيان ، عن جدتي وفي ذات مرة ، ندت عن البكر تنهدة عميقة ، ثم أعلن باكئنا :

— لا ريبة ان الجدات لطيفات جدا . لقد كانت لنا جدة لطيفة نحن الآخرون وكنا نحبها كثيرا

كثيرا ما تحدث بصيغة الماضي ، ويردد كثيرا ، وبحزن ظاهر ، هذه التعبيرات : « كنا » و « كان لنا » و « ذات مرة » ، حتى ليخيل اليك انه عاش مئات السنين ، لا احد عشر عاما فقط . وأنا اذكر ان يديه كانتا نحيلتين ، قد طالت اصابعهما ورقت ، لا بل كان — في مجمله — هزيلا نحيلًا ، ذا عينين صافيتين هادئتين تثيران في خاطر صورة لهب القناديل المحترقة أبدا في الكنائس . ولقد احببت أخويه أيضا ، فقد كسبا ودي وعطفي منذ اللحظة الاولى ، بحيث يبعثان في قلبي الرغبة الاكيدة في منحهما ما يحمل السعادة الى مؤاديهما . ولكن غرامي بالبكر كان أعظم على أية حال

كنت استغرق واياهم في الحوار حتى يفوتني ، غالبا ، اقتراب العم بيوتر منا كان ، أبدا ، يفرق بيننا وهو يهتف بنا :

— هكذا ؟ معهم ثانية ؟

كنت الحظ انه يزداد عرضة لنوبات التقطيب والعبوس . وتعلبت أيضا ان اخمن طبيعة مزاجه من مجرد طريقته في فتح البوابة عند عودته من

العمل . كان من عادته ان يفعل ذلك بتمهل ويتؤدة ، بحيث تصغر المفصلات طويلا بين يديه ، فاذا كان سيء المزاج بعنت تلك المفصلات صوتا حادا يشبه زئير انسان يتالم ويشقى .

وقد غادرنا ابن اخيه الابكم الاصم الى الريف منذ زمن طويل ، سعيا وراء الزواج ... وهكذا امسى بيونر يعيش وحيدا في غرفة واطئة السقف ، فوق بناء الاسطبل ، لها نافذة صغيرة . وكان قليل العناية بتلك الغرفة حتى غصت بروائح القطران ، والجلد المدبوغ ، والتبغ ، والعرق .

وقد طفق ينام ، في هذه الايام ، دون أن يطفىء القنديل ، الامر الذي ازعج جدي كثيرا .

كان يقول له دوما :

— احترس ! والا احترقت المكان ، يا بيوتر .

فيجيب ، وهو يتطلع من طرف عينه متفاديا نظرات جدي :

— كلا ، اطمئن ، فلا خطر من ذلك على الاطلاق ! اني اضع الشمعة في الليل وسط حوض من الماء .

اضحت نظراته الى الناس والاشياء مستترفة ، سريعة ، منحرفة ... وامتنع عن حضور حفلات جدتي ، ولم يعد يدعونا الى الربى ، في حين راح وجهه يجف ، وازدادت فيه الغضون عمقا وعددا ، وطفق ينرنسح في مشيته ويسحب رجليه سحباً مثل رجل منهوك القوى .

وذات يوم ، بينما كانت جدتي تنهيل الثلج الذي تساقط بغزاره اثناء الليل ، سمعنا مزلاج البوابة بلحن خاص وقع ، ودلف منه الى الساحة شرطي أغلق البوابة خلفه ، وانكأ بظهره عليها ، ثم اشار الى جدي بأصبعه المسمية الرمادية طالبا اليه الاقتراب منه . وعندما حاذاه الجد الصق أنه الضخم في وجهه ، واسر اليه شيئا جعله يجهجم ، وهو يرتعش :

— هنا ؟ متى ؟ لو كنت أتذكر فقط ...

ثم جفل بشكل مضحك ، وصاح :

— أيها الرب العلي ! اذلك ممكن ؟

فحذره الشرطي بصوت خفيض :

— صه ! لا تصح هكذا !

تطلع جدي حواليه ، فبصر بي ، فقال :

— احمل الجاريف واذهب الى الدار .

فاختبأت في احدى الزوايا اراقبهما يدخلان جناح السائق في الاسطبل .
وقد نزع الشرطي قفاز يده اليمنى وهو يقول :

— لقد فهم ذلك تماما ، فهجر حصانه واختفى ...

انطلقت الى المطبخ بسرعة اطلع جدتي على ما رايت وسمعت ، فالغيتها
منكبة فوق وعاء العجين ، ورأسها المغمور بالدقيق يتأرجح مع حركات
يديها ..

فالتت بتهمل ، عندما انتهيت من سرد قصتي ، وبقسوة تعنفني :
— لربما سرق شيئا ... أخرج الى الساحة والعيب ، فما دخلك في
ذلك ؟

رجعت الى الساحة راکضا ، فبصرت بجدي يقف قرب النواية ، وقد
نزع قبعته عن رأسه ، وحلق بنأظريه الى السماء وهو يرسم اشارة الصليب ،
مخشوشن الشعر ، تعلو امارات الغضب وجهه ، وترتجف احدى ساقيه بعصبية
صاح ، وهو يضرب الارض بقدمه :

— ألم أقل لك ان تذهب الى الدار ؟

ولحق بي الى المطبخ ، وما أن وقعت أنظاره على جدتي حتى هتف بها:
— تعالي ، يا امه !

مضيا معا الى الغرفة المجاورة حيث قضيا فترة من الزمن يتهامسان
وعندما رجعت البدة الى المطبخ ، أدركت ، من النظرة الاولى ، أن شيئا
رهيبا قد حدث ... سألت :

— أنت مذعورة يا جدتي ، لماذا ؟

فأجابت بهدوء :

— اطبق فمك ، اتفهم ؟

وأطبق على المنزل جو من الضيق والرهبة طيلة ذلك النهار ، وظل جدي وجدتي ، على مر الوقت ، يتبادلان نظرات متسائلة قلقة ، وكلمات مبهمة غير مفهومة ضاعفت من اضطرابي وحيرتي . ثم أصدر الجد أوامره ، بصوت مرتفع ، وهو يسعل :

— أضيئي القناديل كلها ، يا أمه ، أمام سائر الايقونات .

تناول طعام الغداء بدون شهية وبسرعة فائقة ، فكانها ينتظران احدا . وكان جدي يسعل ، ويهمهم :

— ان ابليس يفوق الانسان قوة . . . انظري الى كذا ، مثلا — رجل دين ، ورع ، تقى ، بكل معنى الكلمة ، ومع ذلك انظري ماذا فعل !

واتانا ، عند المساء ، شرطي اخر . كان سمينا ، احمر الرأس ، اقتعد ذكاة في المطبخ ، ومضى يغفو عليها ، فيرتفع شخيره في ضجيج عنيف . مسالته جدتي :

— وكيف اكتشفوا ذلك ؟

فاجاب بنظاظة ، بعد لحظة من الصمت :

— انهم يكتشفون كل شيء عندنا بسرعة .

كنت اجلس الى النافذة اسخن في فمى قطعة قديمة من العملة كي اطبع بها صورة القديس جاورجيوس ، حامل النسر ، على زجاج النافذة المجدد . . وعلى غير انتظار ، علا ضجيج صاخب في المر ، ثم فتح الباب ، وظهرت بتروفنا على العتبة ، وهى تصيح :

— تعالوا وانظروا ماذا يوجد على أرضكم في الخارج . . .

ولم تكد انظراها تقع على الشرطي ، حتى استدارت نحو الباب تسمى وراء الفرار . ولكن رجل الامن امسك بها من قميصها ، وصاح مذعورا :

— تهلي لحظة ! من انت ؟ وماذا يوجد هناك ؟

فركعت على ركبتيها ، وطفقت تبكي وهي تبتلع كلماتها ودموعها :

— لقد خرجت لالحلب البقرة ، وفجأة بصرت بشيء يشبه زوج احذية في
ساحة آل كاشرين ...

نصاح جدي عندئذ حانقا :

— هذا كذب ، أيتها الفاجرة ! أنت لا تستطيعين رؤية شيء في ساحتنا
فالسور عال جدا وليس من ثغرات فيه على الاطلاق . أنت تكذبين ! ليس
هناك شيء في ساحتنا .

فناحت بتروفنا ، وهي تمد اليه احدى يديها ، وتمسك رأسها باليد
الاخرى لتقول مترنحة :

— آه ، يا الهي ، انه على حق ، فأنا اكذب ! لقد انطلقت احلب
البقرة ، وفجأة رأيت آثار اقدم تقود الى السور ، والثلج مبعثر في بقعة
واحدة ، الامر الذي اثار فضولي ، فتسلقت السور وتطلعت من عليه ،
فرايته ... اجل رأيتنه ...

— رأيت ... ن ؟

جاءت هذه الصيحة عالية ، طويلة ، لا معنى لها ...

وعلى حين بغتة ، وكانهم فقدوا الشعور ، يركضون ويتدافعون خارج
المطبخ في اتجاه الساحة . وهناك ، بين كلال الثلج ، في الحفرة التي خلفها
احترق غرفة الغسيل ، كان العم بيوتر ممددا ، يستند ظهره الى خشبة
محترقة ، ويتدلى رأسه فوق صدره . وكانت فرجة واسعة تستقر تحت
أذنه اليمنى تماما ، اثنى ما تكون شغل احمر اللون ، ذي حواش مزرقرة
تبرز كالأسنان . اغلقت عيني في خوف ورهبة ، فشاهدت ، من خلال اهدابي ،
سكين العم بيوتر التي طالما رأيتنه يقطع الجلود بها ، تتدلى من على ركبته ،
وقد انشلت بالقرب منها اصابع يده اليمنى المحترقة الملتوية . اما اليد اليسرى
فكانت مدفونة في الثلج الذي ذاب تحت الجسد الصغير ، الفارق عميقا من
المحيط الابيض النبر الناعم ، يبدو طفليا اكثر منه في اي وقت مضى ، وقد
تلطخ الثلج عن يمينه فرسم صورة حمراء غريبة اثنى بالطير ، بينما ظل عن
يساره نقيا ، لامعا ، لا دنس فيه ، يمتد ناعما براقا كعهدي به دوما .

وكان الرأس المنحني يرتاح بما أوتي من قوة على الصدر الذي يظهر عليه ، من خلال اللحية المجعدة المشعثة ، صليب نحاسي أحاطت به خيوط عديدة من الدم المتجمد .

وأصابني الدوار لشدة اضطراب الاصوات حولي ، فبترومنا تزعق دونما انقطاع ، والشرطي يصيح بغالي ان يذهب الى مكان ما ، وجدي تصرخ بكل ما أوتي من قوة :

— أياكم ان تمسحوا اي اثر .

ولكنه عبس فجأة ، وشخص الى الارض تحت قدميه ، وخاطب الشرطي في صوت عال يتضمن الامر :

— لا فائدة من كل هذا الصياح ، ايها الضابط ! ذلك عمل الله ، دينونة الله ، وانت تأتينا بمهمتك الحمقاء هذه . تبا لك !

فصمت الجميع ، وهم يتنهدون ويرسمون اشبارات الصليب ، ويحدقون طويلا في الرجل الميت .

وقفز آخرون من فوق السور ، قادمين من ناحية منزل بترومنا . كانوا يقفون على الارض بهيمغمين بشيء مبهم ، ثم يأتون عدوا عبر الساحة دون ان يثيروا ضجة تذكر ، حتى رمقهم جدي بحلق ، وصاح كمن فقد الامل :

— انكم تسحقون ادغال توت العليق ، ايها الجيران ! الا تخجلون من انفسكم ؟

وامسكت جدي بيدي ، وقادتني حتى المنزل . . . حين سألتها :

— ماذا فعل ؟

فأجابت همسا :

— أما رأيت ؟

ظل اناس غرباء ، طيلة ذلك المساء ، وحتى ساعة متأخرة من الليل ، يملأون المطبخ والغرفة المجاورة . وكان الشرطي يصدر أوامره ، وهناك إخر أشبه بأحد التسمامة يسجل بعض الملاحظات في دفتر صغير ، وهو يكح باستمرار كالبطية :

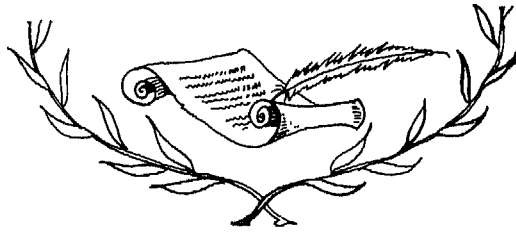
.. ماذا ؟ ماذا ؟

قدمت جدتي الشاي للجميع ... كان يجلس الى طاولة المطبخ رجل
منفوخ الجسم ، طويل السالفين ، ملأت البثور وجهه ، يقول في صوت متكسر :
— ان احدا لا يعرف اسمه الحقيقي . الشيء الوحيد المعروف عنه انه
جاء من ايلاتما . اما ذلك الابكم الاصم فلم يعد ابكم او اصم اكثر منكم او
مني . لقد تكلم واعترف بكل شيء . وكذلك اعترف شخص آخر — لانهم كانوا
ثلاثة — كانت مهمتهم ان يسرقوا الكنائس ، ذلك كان اختصاصهم منذ امد
بعيد جدا ...

نهتفت بتروفا ، محمرة الوجه ، وهي تتصيب عرقا :

— يا الهي !

اضطجعت في سقيفة المطبخ ، انظر اليهم من عل ، مُبدوا لي — جميعا —
قصارا ، غلاظا ، قديحين ...



خرجت باكرا صباح يوم السبت الى حديقة الجارة بتروفنا لاصطاد بعض الطيور ، ولكن وقتنا طويلا انقضى وتلك المخلوقات الطائفة امام عيني ، وكأنها تتعمد مضايقتي ، فتمخطر بعذوبة وانطلاق فوق الثلج الفضي المتجمد ، او تطير بين الادغال ، وتتمايل على الاغصان المكسوة بالجلد الفزير اشبه بأزهار زاهية تتألق بين الاضواء السزرق المنعكسة على غبار الثلج المتساقط . . . لقد كان ذلك كله على نصيب وافر من الروعة والجمال حتى انني لم احس اسفا او خيبة أمل من جراء محاولاتي الفاشلة للامساك بها . ثم اني ، على العموم ، لست بالصياد الماهر ، بل أسر بالطريقة التي اصطاد بها اكثر مني بالنتيجة ، واحب ان اراقب الطيور ، واتأمل أسلوب حياتها اكثر من ان احوز عليها واملكها .

حنا ! ما ابهى واحلى ان تجلس وحيدا الى حافة حقل يعج بالثلج ويموج ، ترهق السمع الى مناغاة الطيور في سكون أيام الشتاء البلورية ، في حين يرتفع ، في الافق البعيد ، رنين اجراس « ترويك » تعبر الطريق ركضا ، تلك هي قبرة الشتاء المحزن الكئيب تغني . . .

وجمعت شباكي واقفاصي ، عندما احسست بالقشعريرة تخترق العظم مني ، والصقيع يدب الى اذني ، وتسلفت السور المفضي الى حديقة جدي ، ومضيت مسرعا في اتجاه الدار . كانت البوابة مفتوحة ، وموجيك ضخم يقود من خلالها ثلاثة خيول أسرجت الى مزلجة واسعة مغلقة . وكانت سحب كثيفة من اللهاث تتصاعد من الاحصنة ، والفلاح يصفر مرحا ، ولكن قلبي

انتفض على حين بفتة دون سبب واضح . سألته :

— بمن جئت الينا ؟

فاستدار ورمقني من خلف كتفه ، ثم قفز الى مقعده

— لقد جئت بالكاهن .

فلم يثر ذلك اهتمامي — اذا جاء الكاهن فلا ريب

زيارتنا ، بل زيارة بعض المستأجرين سوانا .

وصاح الفلاح ، وهو يهز عنان الجياد يحثها على

الفضاء برنين أجراسها :

— هيا ، اسرعي .

راقبتهم يبتعدون ، ثم أغلقت البوابة ، ودخلت الدار . . . ولم أكد ابلغ

المطبخ ، حتى تناهى الى سمعي صوت امي العميق يرتفع في الغرفة المجاورة:

— حسنا ، ماذا انت فاعل الان ؟ ربما ترغب في الاجهاز على ، اليس

كذلك ؟

فالتفت بالاتفاص ارضا ، وأسرعت الى المر دون أن أخلع معطني .

لكن جدي أمسك بي عند عتبة الباب ، وحملق في بعينين وحشيتين ، وبلغ

بصعوبة شيئا ما كان عالقا في حلقه ، ثم صاح بصوت أجش :

— لقد رجعت امك . . . فاسرع اليها ! انتظر ! . . .

وهزني بعنف بحيث لم اتمالك نفسي الا بجهد كبير ، ثم دفع بي ناحية

الباب ، وقال :

— ادخل ، ادخل !

أصطدمت بالبواب ، ووقفت عنده لحظة مترددا حائرا ، ترتعش اصابعي

أنفعالا وبردا ، فأعجز عن الوصول الى مقبض الباب والامسك به . وعندما

فتحت الباب اخيرا ، وقفت على العتبة مذهولا ، منعقد اللسان ، فهتفت امي:

— أه ، ها هو ذا ! يا للسما ! السم تعرفني ؟ ما هذه الثياب

التي برتدبها !... انظري الى اذنيه المتجمدتين بردا ! اعطيني شيئا من
الدهن - اسرعي ، يا اماء !

وانتصبت في وسط الغرفة منحنية فوقى ، تخلع عني ثيابي تجعلني ادور
امامها كالمحور . كان جسدها الكبير متدثرا برداء احمر ، ناعم ، دافئ ،
عريض كمعطف الرجال ، ذي صف من الازرار السود الكبيرة بمتد منحرفا من
الكتف حتى طرفه ... انا لم اشاهد قط مثل ذلك الثوب من قبل !

بدا لي وجهها اصفر منه قبلا ، وانصع بياضا ايضا . اما عيناها فقد
اتسعنا وازدادتا غورا ، وشعرها اضحى اكثر بريقا ذهبيا منه في اى وقت
اخر . . كانت ترمى بالثياب التي تخلعها عنى ناحبة العتبة ، وشفتاهما
الحمراوان تنقبضان ازدرء ، وهى تقول في نفمة عاتية :

— حسنا ، لم لا تقول شئنا ؟ الست مسرورا ؟ تفو ، يا للقبص
الموسخ !

وفركت اذني بدهن الاوز ... ألمني ذلك ، ولكن تلك الرائحة المنعشة
اللطيفة التي كانت تفوح منها واستنى عن شدة الى وخففت منه . فالتصقت
بها ، وتطلعت عمقا في عينيها ، دون ان أقول شئنا لشدة اضطرابى
وانفعالى .

وسمعت جدتي تقول ، ردا على ملاحظات امى ، بصوت مهدد :

— لقد اقلت من كل رقانة ، ولم بعد يخاف حتى من جده ! آه ،
غاريا ، غاريا ...

— كفاك عويلا ! ان كل شيء سيسير على ما يرام .

كان كل ما يحبط بى ببو ، اذا ما قيس بوالدتي ، صغيرا ، هرما ،
بائسا ، لا بل خبل الى انى ، انا ايضا ، أداني جدتي المعجوز سنا وهرما .
وضمننى امى بقوة بين ركتيها . وطفقت تمسح على رأسي بيدها الدافئة :

— ان شعرك لفي حاجة الى المقص . . وقد حان وقت ذهابك الى
الدرسة . انريد ان تتعلم ؟

— لقد تعلمت كثيرا حتى الان .

. — ما يزال هناك أشياء كثيرة يجب ان تتعلمها . لكن ، يا لك من غنى
ذي بأس وحيلة .

وضحكت ضحكة غنية قوية ، وهي تلاعبني ...

ودخل الجد الى الغرفة ، غاضبا ، مشعث الشعر ، محبر العينين
. . فدفعتني امي عنها بحركة بسيطة ، وسألت في صوت عميق :

— حسنا ! ماذا علي ان اصنع ، يا أبت ، أرحل ؟

فوقف قليلا الى النافذة يحك الجليد بإظافر يده ، دون ان ينطق بحرف
واحد . كان الجو خانقا ، متوترا ، فكأنه يرهف السمع بكل ذراته ، وهو على
استعداد للانفجار لدى أول صدمة . وامتلا جسدي بأسره ، كما هي الحال
دوما في مثل هذه الحالات واللحظات ، عيوننا وأذاننا ، وتوسع صدري كثيرا ،
واحسست رغبة لا تقاوم في البكاء .

قال جدي ، في صوت يكاد يختنق :

— أخرج من هنا ، يا الكسي !

فمسألت امي ، وهي تجرني نحوها ثانية :

— ولم يخرج ؟

— انك لن ترحلي . أمنعك عن ذلك !

فنهضت والدتي ، وأخذت تمشي في الغرفة . ثم قالت ، وقد وقفت
وراء ظهره :

— اصغ ، يا أبت .

— اخرجي !

فعمادت تقول بهدوء :

— انني لا أسمح لك أن تصرخ في وجهي !

فصاحت الجدة ، وهي تنهض عن الأريكة وتهز أصبعها محذرة :

— فارأارا !

وغرق جدي يضعف في أحد المقاعد ، يجمع بينه وبين نفسه :

— ما هذا ؟ من أنا ؟ ماذا تسمين ذلك ؟

وعلى غير انتظار ، طفق يزمجر كحيوان مثخن بالجراح :

— لقد جلبت على العار ، هذا ما فعلته ، يا فاريبا !

فقالت جدتي تخاطبني :

— اخرج من هنا .

مضيت حزينا الى المطبخ ، وتسلمت الموقد حيث بقيت فترة طويلة استمع الى ما يجري في الغرفة المجاورة — كانوا يتحدثون بحدثة مرة ، ثم يخيم عليهم الصمت مرة اخرى ، كانوا يتحدثون عن طفل ولدته امي وتركته في رعاية بعض الناس . ولكني لم افهم ما الذي يثير جدي الى هذا الحد ، اهو غاضب لان امي وندت بدون اذنه ام لانها لم تحمل الرضيع اليه ؟

واخيرا ، دلف الى المطبخ ، احمر اللون ، اشمعت الهندام ، مضطرب البال ، منهوكا ، تأثره جدتي وهي تمسح الدموع المترقرقة على وجنتيها بطرف قميصها . وارتمى على كرسي ، معتمدا عليها بذراعيه ، منحني الظهر ، يعرض شفثيه للشاحبتين . وجثت الجدة على ركبتيها بالقرب منه ، وهي تقول بصوت حار خفيض :

— اغفر لها ، يا ابتاه ! محبة بالمسيح ، اغفر لها ! ان لكل حصان كبوة ، وهناك كثيرات غيرها زللن . او لا تحدث مثل هذه الامور بين النبلاء ايضا ، وحتى بين التجار كذلك ؟ انظر الى المرأة فيها واغفر لها ، فليس احد منا معصوما عن الرذيلة . . .

فاستند الى الجدار ، يحملق في عينيها ، وهو يردد ناشجا :

— اوه ، نعم ، بالطبع ! لم لا ؟ انت على استعداد لان تسامحي كل انسان وكل شيء . تفو ! تبا لسك !

ثم انحنى نحوها ، وأمسك بها من كتفها ، وراح ينهرها والكلام يسيل
همسا من بين شفثيه :

— ولكن ، ماذا تقولين عن الله ؟ انه لا يغفر كل شيء ، اليس كذلك ؟
ها نحن اؤلاء على حافة القبر ، وهو ينزل العقاب بنا . لقد بلغنا ايماننا
الآخره فاذا بها فارغة من السلام ، والفرح ، ومن كل ما كنا نطمح اليه . . .
سنموت شحاذين ، تذكري كلهااتي ، شحاذين معدمين !

فأخذت جدتي يده في يدها ، وجلست بالقرب منه ، وضحكت بهدوء :

— وما أهمية ذلك ؟ ولم كل هذا الخوف من أن تكون شحاذًا ؟ اذن ،
سنصير شحاذين ، وتستطيع انت ان تبقى في البيت ، بينما أخرج انا
لاستجدي . . . ولن نعيش جائعين عريانين ، فكنناك تعذب نفسك بمثل
هذه الالهام !

ونفخ بمنخريه فجأة ، ونطح الهواء برأسه كالتيس ، ولف ذراعه حول
عنق جدتي ، والتصق بها ، صغيرا ، رثا ، باليا ، وقال مأوها :

— أيتها الحمقاء ، أيتها الحمقاء اللعينة ! انت الانسان الوحيد الذي
بقي لي على الارض . انت لا تأسفين على شيء أيتها البلهاء ، لانك لا تفهمين
شيئا تذكرني فقط ما عملنا من اجل اولادنا ! أفلم ارتكب المعاصي في سبيلهم ؟
والان ، في النهاية ، ماذا فعلوا لنا ، لو انهم يردون لنا شيئا يسيرا مها
عملته من أجلهم . . .

وهنا لم اعد اأحتمل مزيدا ، فقفزت عن الموقد وأنا أتصعب عرقا ودمعا ،
وركضت اليهما ، وأنا أبكي فرحا لان أمي قد عادت ، ولانهما تبادلا هذه
الكلمات اللطيفة الجميلة ، أسفا لانهما سمحا لي بمشاركتهما احزانهما عانقاني
ودللاني ، واغرقتاني في دموعهما ، وهمس جدي في أذني كمن يعتذر :

— هانذا هنا ايضا ، أيها الوغد الصغير ! انك لن تحتاج الي بعد
الان ، بعد عودة أمك ، أنا ، جدك ، الشيطان الهرم ، اليس كذلك ؟ حتى ولا
جدتك ، تلك العجوز التي لا تعرف شيئا سوى تدليكك واغسلادك . الا تبالك !

وابعدنا عنه بإشارة من يده ، ثم نهض واقفا وقد تما لك نفسه . . .

صاح غاضبا :

— الجديع ينركوننا ! وكل بذهب في الطربق الذي يريد ، لا يعرف الا
مصلحته الخاصة .. حسنا ، نادوها ، اسرعوا !

فغادرت جديبي المطبخ مسرعة ، بينما انحنى جدي ناحية الايقونات ،
وهو يهمهم منحنى الرأس :

— ايها الرب الغفور — هل نرى ماذا اسمعل ؟ هل ترى ؟

وخرب صدره بقبضة يده بعزم ، فكان لذلك زنين قوي لم احبه . فكنت ،
على العموم ، ابغض تلك الطريقة التي يخاطب الله بها .. كان ابدا يتباهى
وسفخر بشيء ما .. وجاءت امي ، فمالت الغرفة بوجودها الذي كنت اثناقه
وجلست الى الطاولة على الدكة بين جدتي وجدي ، وكان ثوبها العريض
ينحدر عن كتفيها ، وراحت تروي لهما بهدوء ووقار قصة ما ، وهما يصغيان
اليها في صمت وسكون . كانا بيدوان بالنسبة اليها ، ، فكانها هي الام وهما
ولداهسا !

كنت مضطجعا في السقيفة ، فسرعان ما استسلمت ، منهوك القوى من
حوادث النهار ، للنوم الذي طغى علي بسرعة .. .

ارندى الشيخان ، ذلك المساء ، ثيابهما الفاخرة ، ومضيا لحضور
صلاة الغروب . غمزتنا جدتي جذلانة لتلفت انباهنا الى جدي الذي كان
بنالق في بزة رئيس نقابة الصياغين المؤلفة من سروال مخملي ومعطف من
جلد السنور ، تم همست في اذن امي كمن يكشف سرا :

— انظري الى ولدك ، يا له من تيس صغير :

فضحكت امي في غبطة .. .

وعندما خلوت واياها في غرفتنا ، جلست على الاريكة وقد ثنت احدى
ساقها تحت جسدها ، ونادتنني ، وهي تنقر باصبعها على الاريكة المجاورة لها:

— تعال ، تعال واجلس الى جنبي . حدثني كيف عشت حياتك ؟ حياة
رديئة ، اليس كذلك ؟

ترى ، كيف كانت الحياة ؟ لست أدري ! .. .

— أيجلدك جدك ؟

— لم يعد يجلدني كثيرا .

— صحيح ؟ حسنا ، حدثني عن كل ما نشاء ، هيا . . .

لم احس شوقا الى الحديث عن جدي ، فرحبت أروي لها ان رجلا لطيفا جدا سكن الغرفة التي نحن فيها الان ، وكيف لم يحبه احد من سكان الدار ، وكيف طرده جدي آخر الامر . وبدا لي ان تلك القصة لم ترق لوالدتي الذي قالت :

— حدثني عن أمور أخرى .

فحدثتها عن الصبية الثلاثة ، وكيف طردني الكولونيل من ساحته .

قالت ، وهي تحتضني :

— يا له من رجل خسيس !

واستكانت نفسها ، فراحت تتأمل الارض بنظرات من عينين ضيقتين ، وهي تحك رأسها . . . سألتها :

— لماذا ينقم جدي عليك ؟

— أنا مذنبه في نظره .

— كان يجب ان تحملي الطفل اليه . . .

فجفلت ، وقطبت جبينها ، وعضت شفتها ، ثم اطلقت ضحكة عالية . . .
قالت ، وهي تحتضني ثانية :

— أيها الطفل الصغير ! اياك ان تتفوه بأية كلمة عنه مرة أخرى ،
اتسمع ؟ ولا كلمة — بل اياك ان تفكر في ذلك على الاطلاق .

وظلت ، بعض الوقت ، تتفوه بكلمات هادئة ، جافة ، مبهمة ، لم اع منها شيئا ، ثم نهضت تذرع الغرفة ذهابا وحيثة ، وهي تنقر بأصابعها على ثغرها ، وتحرك حاجبيها الغليظين .

كانت شمعة تحترق على الطاولة ونذوب ، فتنعكس خيالاتها في
المرآة ، بينما ظلال وسخة ترنح على الارض ، والقنديل الازلي يلتهب في
زاوية الايقونات ، والنافذة المغطاة بالجليد تضيء في ضوء القمر بلمعان فضي
براق . وأجالت والدتي ناظريها حولها ، كما لو كانت تفنن عن شيء لمي
الجدران الفارغة والسقف العالي ، ثم سألت :

— متى تذهب الى فراشك ؟

— بعد قليل .

فأجابت ، وهي تتنهد :

— هذا صحيح ، لقد غفوت قليلا بعد ظهر اليوم .

سألها بعد قليل :

— اترغبين في الرحيل ؟

فأجابت في دهشة :

— الى اين ؟

ثم رفعت رأسي ، وحملت طويلا في عيني بحيث لم استطع لدموعي
احتباسا . . .

— ما بالك ؟

— ان رقبتي تؤلني .

ولكن قلبي كان أكثر ايلاما ، فقد أدركت انها لن تستطيع العيش في ذلك
البيت طويلا ، بل ستفادره حتما مرة أخرى .

قالت ، وهي تلعب بطرف المسجادة بقدمها :

— أنك ستغدو شبيها بوالدك في يوم ما . هل حدثتك جدتك عنه ؟

— نعم . .

— لقد كانت تحب مكسيم كثيرا . كانت مغرمة به . وكان ، هو الآخر ، مولعا بها .

— انا اعلم ذلك .

والقت نظرد على الشمعة ، وعيست ، ثم نفخت على الشمعة الضئيلة فاطفانها . . . وما عنمت ان قتالت :

— هذا افضل .

كان ذلك افضل من دون ريب ، فقد بدت الغرفة اكثر وداعة ونطافه عندما خمد النور . وحلت شعاعات ضوء القمر الزرق محل الاخيلة الوسخة على الارض - بينما طفقت شرارات ذهبية تتمايل على زجاج المناظرة وتتراقص كريشة في يد فنسان .

— اين كنت تعيشين قبل مجيئك الى هنا ؟

فذكرت اسماء بلدان عديدة . وكانها تستعيد في ذاكرتها ماضيا سحيقا غابت حوادثه عن بالها منذ زمن بعيد ، وهي تدور طوال الوقت في الغرفة كطائر حبيس ليس يدري افلاتا ، ثم سألت :

— من اين حصلت على هذا الرداء ؟

— صنعته بنفسي . اني اصنع كل شيء بنفسي .

كنت اسر للغاية حين اراها تختلف عن الجميع ككل الاختلاف ، فلا يؤسفني منها الاقلة حديثها ، فهي لا تتكلم الا كي تجيب على اسئلتي .

وجلست ، مرة ثانية على الاريكة قربي ، وبقينا هكذا طويلا صامتين ، ملتصقين ببعضنا بشدة حتى رجع الشيخان من الصلاة تفوح منهما رائحة الشمع والبخور ، وتعلو وجهيهما سيماء الرفيق ، واللفظ ، والاكبار . . .

وكان العشاء احتفاليا ، يليق بحدث عظيم الاهمية ، لم نتحدث خلاله الا نادرا بتحفظ شديد ، فكاننا نحاف ايظاظ شخص عزيز من نومه الحفيف الذي استسلم له . . .

ولم تمض ايام قليلة حتى اخذت والدتي على عاتقها مهمة ثقافتي

«الدينيوية» فانباعت لي بعض الكتب ، كان أحدها «مبادئ القراءة الروسية» الذي تعلمت فيه ؛ خلال بضعة أيام ، حروف الهجاء المستعملة في غير الكتب الدينية . لكن أمي كانت نريدني حفظ الشعر عن ظهر قلب ، فكان ذلك بدء عذاب مشترك لنا نحن الاثنين .

وهذه هي اول المقطوعات الشعرية التي كان علي أن احفظها :

« طريق تهب عليها الرياح ،

تجوز الحقول ودور البشر !

وما كسر الفأس الحجارة فيها

ولكن حوافر خيل تمسر » .

كنت ، كلما تلوتها ، أقول « النباح » عوضا عن «الرياح» ، و «الكأس» عوضاً عن « الفأس » و « حوافر » عوضاً عن « حوافر » . . . فتحتج والدتي بقولها :

— ولكن فكر قليلا ، كيف يمكن ان يهيب « النباح » ، أيها الغبي ؟
قل « الرياح » ، هذا ما يجب ان تقول !

نهمت ذلك ، ولكنني ظللت أقول «النباح» اثناء تلاوة الدروس ، فمتغضب والدتي غضبا شديدا ، وتلقبني بالعنيد الغبي ، فأجد هذه الكلمات قاسية جارحة ، وأروح أحاول جهدي الا أخطيء اللفظ مرة أخرى . . . وكنت ؛ كلما رددتها في قلبي ، لا أنطق فيها أبدا ، ولكن لا أبدا بتلاوتها بصوت عال حتى أخلط بين الكلمات من جديد . وابتدأت أخيرا اكره ذلك الشعر المقيت فشرعت أشوهه عمدا ، بأن اجمع عددا من الكلمات التي لها نفس النغمة الى بعضها البعض ، واغتبط عندما تفقد تلك الأشعار بذلك كل معنى لها .

ولكن تلك التسلية كلفتنني غاليا ، فقد سألتني والدتي ، ذات مرة ، في نهاية احد الدروس ، ان اسمعها تلك الأبيات . فرحمت اغمغم عاليا دون تصد أو وعي مني :

« على الطريق الطويلة ، السهلة ، الهزيلة ،
لا كاس ، ولا طاس ، ولا ناس ، ولا راس . . . »

وما ادركت ما انا فاعل الابدع فوات الوقت : فقد نهضت امي ، وهي
تعتمد يديها على الطاولة . . . سألت . وهي تلفظ كل كلمة على حدة :

— من اين جلبت كل هذا ؟

فاجبت . وقد سيطر علي رعب شديد :

— لست ادري صدقيني : لست ادري .

— اوه ، بل انت تدري . اخبرني !

— لقد قلت ذلك عرضا .

— لماذا ؟

— لمجرد النسلية .

— امض الى الزاوية !

— اية زاوية ؟

لم تجب ، ولكنها رممتني بنظرة افقدتني صوابي تماما ، فلم اعد ادري
ما افعل ، وماذا يريد مني ان افعل . . . كانت في زاوية الايقونات طاولة
مستديرة تحمل اناء يفيض بزهور جميلة واعشاب مجففة ، وفي زاوية اخرى
تقوم دكة عليها سجادة صغيرة ، في حين يشغل الزاوية الثالثة احد الاسرة .
اما الزاوية الرابعة والاخيرة التي يقوم فيها الباب فغير موجودة على الاطلاق
. . . قلت ، وقد بدا البأس على :

— لست ادري ما تريد مني ان افعل !

فغاصت في احد المقاعد وهي تحك ، جفنيها وخديها :

— الم يأمرك جدك ابدا بالوثوق في الزاوية ؟

— متى ؟

فضربت الطاولة بقبضة يدها مرتين ، وصاحت :

— في يوم من الايام !

— كلا ! لا اذكر ذلك مطلقا

— ألا تعلم ان الموقف في الزاوية عقاب ؟

— كلا ! ولماذا يكون عقابا ؟

فصاحت بصوت اشد ارتفاعا :

— تعال السي !

فسالته بعد ان مضيت اليها :

— لماذا تصيحين في وجهي ؟

ولماذا تتعمد تشويه الاشعار التي احفظك اياها ؟

فرحت اشرح لها ، بكل ما اوتيت من قوة ، انني اذكر القصيدة كما مكتوبة عندما اغلق عيني ، حتى اذا جربت القاءها بصوت عسال ، صد مني كلمات اخرى دون ارادتي ، فسالت بهدوء نسبي :

— الست تسخر مني الان ؟

فماقسمت انني صادق . . . ثم رحت ، على الفور ، اتساءل ان صادقا ام لا ! . . وعلى غير انتظار ، اخذت اتلو الابيات بتؤدة ، فاذا لا اخطىء فيها ابدا ، الامر الذي ادهشني وسحقني في وقت واحد . احس بوجهي يتورد ، وباذني تلتهبان وتمتلئان دما ، وبطنين مزعج يدوي ؛ دماغى ، ووقفت هكذا تجاه امى وقد اهلكني الخجل الشديد ، ارى - خلال دموعي - وجهها يسمود اسفا وكمدا ، وحاجبيها ينخفضان وشد تطبيقان . . .

سالت ، في صوت عال مرة اخرى :

— ما معنى ذلك ؟ يبدو انك كنت تتعمد ذلك فعلا !

— لست ادري . . . لم اكن اقصده . .

فقالت ، وهي تهز راسها :

— ما اصعبك ! اخرج من هنا !

وراحت تطلب منسى ان أحفظ كل يوم قطعة جديدة من الشعر ،
فتزداد ذاكرتي تمردا ، بينما تتضاعف الرغبة في تحريف تلك الاسطر
الموزونة ، وينمو الشوق الشرير لاستبدال بعض الكلمات بغيرها وتشويهها .
وكنت اتوصل الى ذلك دون صعوبة ، فتهجم الكلمات الغريبة الى فكري
أسرا ، تأخذ - دون كلفة - مكان الكلمات الاصلية . وكانت حافظتي احيانا
ترفض استيعاب أبيات كاملة مهما بذلت من الجهد العنيد في سبيل ذلك - مثلا:

« منذ الصبح وحتى هبوط الفسق ،

يمر - على الدرب - جمع طريح !

يستعطون شيئا باسم المسيح !...»

فكنت انسى الشطر الثالث منها على الدوام واستبدله بـ :

« ويودون خبزاً يسد الرمق » .

وتفتاظ أمي لهذا الانكفاء في ذاكرتي فتلجأ الى جدي تحدثه بالامر ،
فينوجه إليها هذا قائلاً في غضب :

- خبيث ، شيطان ، يفعل ذلك عمدا . انه بعرف جميع الصلوات
أحسن مني ، وله ذاكرة كالحجر ، اذا انحرف فيها شيء لم يقتلع منها أبدا .
يجب ان تجلديه !

وجاءت جدتي تثني على رأيه :

- انه يتذكر القصص والخرافات جيدا ، وكذلك الاغنيات والاعانسي
الشعرية ، اليس كذلك ؟

كان كل ذلك صحبها لا مرأء فيه . . . شعرت اني الملموم ، ومع ذلك
كنت كلما أبدا في حفظ قصيدة جديدة تأخذ مفردات أخرى تدب كأسراب من
الصرابير ، وتصطف من ذاتها الواحدة تلو الاخرى في أبيات اكثر او اقل
تناسقا :

« يأتي الى بيتنا في الصباح !

اناس كثيرون ينتظرون . . .

بصلون . . . ويتهلون

ويكونون مثل زئير الرياح !

وكنيت اعيد على جدتي ، عندما ارتقد الى جانبها ليلا في السقيفة ،
كل ما علق بذهني من دروس ذلك النهار ، وكل ما نفتقت عنه مخيلتي من
ابداع خاص ، فتضحك احيانا ، وتزجرني احيانا اخرى بقولها :

— ارأيت ، انك تستطيع ان تفعل ما تريد حين تريد ! ولكن ، يجب
عليك الا تهزا بالفقراء لان الله معهم ... ان المسيح نفسه كان فقيرا ،
وكذلك بقية القديسين .

فاجيب متمما :

— « اني ابغض الفقراء ،

وابغض ايضا جدي !

فاغفر لسي يا ربي ! ...

انظر في المهواء ،

لاسر من عنق جدي ،

ام انسوي في جب ؟! ... »

قالت بحدة :

— لبت لسانك يقلع من جذوره ، ايها الوقح الشرير ! ماذا يحدث لو
سمع جدك هذا ؟

— فليسمع ...

فراحت ترجوني بلطف :

— لماذا تظل نضايق امك المسكينة هكذا ؟ يكتفيها ما تعانيه الان حتى
تزيد الطين بلة بخبك ...

— وما نوع همومها ؟

— اخرس ! انك لا تستطيع ان تفهم مثل هذه الامور !

— انا اعرف ان جدي ...

— لقد أمرتك ان تخرس !

كنت تعيسا يطفح قلبي بشعور اقرب ما يكون الى اليأس ، فأريد — لسبب اجهله — كتمان ذلك الشعور وعدم اظهاره ، فلا ازيد الا جراحة ووقاحة وتمردا ! وتكاثرت دروس والدتي واشتدت صعوبة على مر الايام . لم يكن يعسر علي فهم الحساب ، وان كنت بالمقابل لا اطيع الاملاء ولا افقه معنى لقواعد اللغة . والذي كان يغيظني اكثر من كل شيء اخر هو الشعور بشقاء والدتي وادراك بؤسها في دار ابيها . كانت تزداد تجهما يوما بعد يوم ، فتهم عينها وراء شيء غريب ، بعيد ، غير منظور ، او تجلس الى الانفاذة ساعات طويلة تحلق الى الخارج في صمت وسكون ، تتراءى لي حين اشخص لها انها نذبل شيئا فشيئا وتتلاشى . لقد كانت ، في الايام الاولى بعد وصولها ، سريعة الحركة ، تطفح نشاطا واندفاعا ، اما الان فقد تربعت دائرتان سوداوان تحت عينيها ، واصبحت تقتصر من ظهورها بيننا ؛ فتفضي النهار بطوله في قميص طويل اشعث غير مجلل الازرار ، دون ان تشرح شعرها او تصفقه . . . وكان يحز في قلبي ان اراها على هذه الحال من الاهمال ، هي التي كانت بالنسبة لي دوما حسنة جميلة ، بل كنت اشعر انها اجمل انسان في الوجود كله .

وفي اوقات الدروس كانت لا تنظر الي ، بل تثبت نظرها في الجدار ، او تبعث به من خلال النافذة ، وتطرح على الاسئلة في صوت متعب منهوك . بدون مبرر ، الامر الذي كان يحزني ويجرح مشاعري ، فتصيح في وجهي دون انقطاع ، الامر الذي كان يؤلني ويجرح مشاعري . ان من واجب الام ان تكون عادله ، اعدل من بقية الناس ، مثل الامهات في قصص جدتي الخرافية . . . وكنت ، في فترات متتاليات ، اسألها :

— الست سعيدة بيننا ؟

فتجيب بحدة :

— هذا ليس من خصوصياتك . اهتم بشؤونك الخاصة .

وكنت ارى ايضا ان جدي يهسىء امرا تخافه جدتي وامي . وكثرا ما كان يقفل الباب على امي وعلى نفسه في غرفتها ، حيث بنتاهي الى سمعي زعيقه اشبه بصفحات آلة الراعي نيكاتور الخشبية المخوفة . . . وقد صاحت امي ، في احدي هذه المناسبات ، بصوت عال جدا سمعه جميع من في البيت :

— هذا لن يكون ابدا ، أبدا !

واغلقت الباب بشدة ، فشرع جدي يعوي ...

كان الوقت مساء ، وجدتي جالسة في المطبخ تخطط لجدي قميصا ، وهي تغغم بينها وبين نفسها بكلمات مبهمه غير مفهومة . وعندما اغلق الباب بشدة ، ارهفت سمعها وهي تصيح :

— آه ، يا الهي ! ماذا حدث ؟

وفجأة ، اندفع جدي داخل المطبخ ، وتوجه مباشرة الى زوجه يلطمها على رأسها ، ويكز بأسنانه ، ويزعق وهو يحمل يده الجروحة :

— متى تتعلمين ضبط لسانك ، ايتها الساحرة العجوز ؟

فأجابت بهدوء ، وهي تعيد ترتيب شعرها :

— يا لك من احمق ! أنتعتقد انك ستعلمني ضبط لساني عن الكلام ؟

تأكد انني سأطلمعها على كل شيء اعرفه من مشاريعك وخطتك ...

فرمى بنفسه عليها ، وأنهال على رأسها ضربا مبرحا وهي ساكنة ، لا تقاوم ابدا ، ولا تجرب ان تدفعه عنها ، بل تردد بعناد :

— هيا اضربني ، ايها الاحمق ! اضرب ، اضرب ...

ورحت أنا ارميه ، من على السقيفة ، بالوسادات والاحزمة والاحذية ، وكل ما طالته يداي ... ولكنه ، وقد اعماه الغضب ، لم ينتبهه لشيء من ذلك مطلقا . وسقطت جدتي على الارض ، فاستمر يرفسها على رأسها حتى تعثر وسقط على الارض ، راميا معه سطلا من الماء . وسرعان ما نهض وهو يبصق ، ويتلفت يمنة ويسرة قبل ان يندفع خارج المطبخ مسرعا الى غرفته في الطابق العلوي . ونهضت جدتي بدورها وهي تتأوه وتئن ، وجلست على الدكة ، وراحت تعلق الدبابيس في شعرها المشعث ... اما أنا ففتزت عن السقيفة الى الارض ، وما كادت تراني حتى صاحت في غضب :

— اجمع هذه الوسادات والاشياء الأخرى ، وارجعها الى مكانها فوق . جميل والله ان ترمينا بكل هذه الاشياء هكذا ! قلت لك الف مرة لا تهتم بما

لا يعنك . . . وذلك الشيطان الهرم . ما باله قد نقد عقله على هذه الصورة الوحشية ؟

وعلى حين غرة ، نددت عنها صرخة خافنة ، وتغضن وجهها ، ونادتنى وقد أحننت رأسها ودلتنى بأصبعها :

— انظر هنا ، ما الذي يؤلمنى بكل هذه الشدة ؟

فرفعت شعرها الثقيل أفنش فيه حتى عنرت على دبوس غارز في فروة رأسها . سحبته ، فوجدت دبوسا آخر . . . وهنا شعرت بالضعف بجتاح جسدى بكامله ، فقلت :

— يحسن ان انادى أمي ، أنا خائف !

فصاحت ، وهى تلوح بيدها :

— ماذا تقول ؟ تنادى امك ؟! اشكر الله لانها لم تر ذلك او تسمعه ، وانت تريد ان تناديه ! اخرج من هنا !

وراحت نبحث بأصابع مطرزه ماهرة ، عن الدبابيس المدمونة في شعرها الكثيف الرائع . وجمعت شجاعتي وقسواي ، واعنتها في سحب دبوسين آخرين من جلدة رأسها .

— ايؤلك ذلك ؟

— قليلا ! سأستحم غدا وأغسل الالم كله .

ثم راحت تملقنى بحنسان :

— لكن ، اباك ان تخبر امك بما حدث لى : ابها العصفور الصغير . . . يكفى ما هي فيه . انت لن تخبرها ، اليس كذلك ؟

— كلا !

— حذار ان تنسى وعدك ! والان ، فلترتب كل شىء معا . اتسطيع ان ترى شيئا ما على وجهى ؟ كلا ؟ هذا حسن ! ان ما حدث سيبطل سرا بنفنا .

وبدأت تمسح الارض ، فقلت من صميم قلبى :

— انت قديسة . يعذبونك ويضربونك ولا تلقين البهم بالا .

— ما هذا الهراء ؟ قديسة يا له من مكان جميل للبحث فيه عن قديسة !

ظلت تغمغم طويلا وهي تزحف على يديها وركبتيها ، بينما قبعنت انا على عتبة الباب ابحث عن طريقة أنتقم بها من جدي على تصرفه ذلك المساء كانت هذه هي المرة الاولى التي يقسو فيها جدي علي جدتي حتى تلك الدرجة ، في حضوري على الاقل ... فرحمت أتصور ، في ظلمة الليل ، وجهه المنفوح المتأجج ، وشعره الاحمر يتموج حواليه . كان قلبي يحترق غيظا وانا اتالم لعجزتي عن تصور الانتقام اللائق .

وبعد يومين ، دخلت غرفته في الطابق العلوي لسبب ما ، فوجدته متربعا على الارض ، مكبا على صندوق مفتوح يعبث فيه ببعض الاوراق ، وقد وضع على كرسيي بالقرب منه تقويمه الكنائسي الذي يحبه كثيرا ، وهو مؤلف من اثني عشرة ورقة من اللون الباهت السميك قسمت الى مربعات بعدد أيام الشهر ، وفي كل مربع منها صورة لوجه القديس الذي يوافق عيده ذلك النهار . كان جدي يقدر ذلك التقويم ويحرص عليه كثيرا ، فلا يسمح لي بالقاء نظرة عليه الا في حالات استثنائية نادرة ، عندما يكون راضيا عن عملي او سلوكي . وكنت أمعن النظر في تلك الملامح الصغيرة الباهتة الجذابة ، وعاطفة غريبة تتأجج في صدري . كنت أعرف سيرة حياة بعضهم : كريست واوليتا ، والشهيدة فارفارا ، وبنديامون ، وغيرهم ايضا .. . وكنت أحب ، بصورة خاصة ، قصة القديس الكسي ، رجل الله ، وكذلك تلك الاشعار الرائعة التي غالبا ما كانت جدتي تتلوها وتلحنها على مسمعي بنغمة خاصة تهز مشاعري . كنت انظر الى هؤلاء الشهداء أحيانا ، فامتزى حين أفكر ان بعض الناس ، في كل عصر ، قد اضطهدوا من أجل ايمانهم

غير انني قررت ، في تلك اللحظة بالذات ، ان امزق ذلك التقويم . فوقفته اترقب الفرصة ، حتى اذا مضى جدي الى النافذة يقرأ في ورقة زرقاء مزينة برسوم مختلفة ، أسرع فاختطفت ثلاث وريقات من ذلك التقويم ، ثم وليت الادبار حتى المطبخ حيث تناولت المقص من على طاولة جدتي ، وتسلمت السقيفة وشرعت أقص رؤوس القديسين . ولم أكد أطيح بأول صف منهم حتى حز في قلبي اتلافهم على هذه الصورة ، فشرعت أقص الورق على مستوى الخيوط التي تفصلها الى مربعات . ولم أكد انتهني من قص السطر الثاني حتى ظهر الجد على عتبة الباب ، وقال :

— من سمح لك ان تسرق التقويم ؟

وعلى غير انتظار ، لمح المربعات الصغيرة مبعثرة على الارض ،
هاختطفها ورمتها طويلا ، ثم رماها والتقط سواها ، حتى اذا ادرك ما حدث
ارتعش فكه ، وارتجفت لحيته ، واشتد تنفسه بحيث اطاح بالاوراق تطير
في الهواء .

— ماذا فعلت ايها الشقي ؟

وقف اخيرا ، واخذ يجذبي من قدمي عن الموقد ... ولكني افلتت
منه ، وقفزت في الهواء ، فالتقطتني جدتي بين ذراعيها ...

صرخ ، وهو يكيل الضربات لجدتي ولي ايضا :

— سأقتل ... !

وظهرت والدتي فجأة ، فوجدت نفسي في الزاوية وهي تقف امامي
تحميني ...
صاحت ، وهي تجرب ان تصد سيل اللكمات التي تنهال من قبضتي
جسدي :

— ماذا تفعل ؟ عد الى صوابك !

فتهاك جدي على دكة قرب النافذة يقول ، وهو ينتحب :

— لقد قتلتوني ، جميعكم ضدي — كلكم !

فجاء صوت امي الخافت الضعيف :

— الا تخجل من نفسك ؟ انت ابدا تسخر من الجميع بتمثيلك هذا !

فابتدا يصرخ ، ويرفس الدكة بقدميه ، وقد أغلق عينيه بشدة ،
وارتفع رأس لحيته نحو السقف بشكل يبعث على السخرية ، وبدا لي انه خجل
حقا من ذلك الدور الذي مثله بحضور امي ، وان هذا ما جعله يفلق عينيه
... قالت امي تهديء من روعه ، وهي تلتقط الاوراق المبعثرة :

— سألصق لك هذه القطع الى بعضها على شطعة من القماش ...
فيصبح التقويم احسن مما كان عليه واكبر مئانة . انظر اليه ، لقد اهترأ

ونزق هذا البقويم . ولم يعد ينفع مطلقا .

كابت تحدنه بنفس اللهجة التي ننوجه بها الي عندما كا نيعمى علي
نههم شرحها . لكن المجد نهض فجاءه ، واصلح من وضغ قميصه
وصدرينه بترو زائد واحتيال عظيم ، نم سعل ، وقال :

— عليك بالصاق هذه الاشيء اليوم بالذات . سأجيك ببفية الاوراق
الباقية عتدي .

وانجه الي الباب ، ولكنه اسندار على العتبة وقال ، وهو يهز اصبعه
المعوج مشيرا الي :

— أما هو فيسناهل الجلد !

فوافقت أمي بهزه من رأسها وقالت :

— نعم ، لا ريب في ذلك .

ثم سألتني ، بتمهل :

— لماذا فعلت ذلك ؟

— فعلت ذلك عمدا . واذا هو ضرب جدتي ثانية لاقطعن له لحينه

فهزت جدتي رأسها ، وهي تخلع قميصها الممزق . . .

قالت ، وهي تبصق باشمئزاز :

— كان يجب ان تمنع لسانك عن الكلام كما وعدتني . ليت هذا اللسان
ينقطع حتى يكف عن الرثرة بكلام بذيء !

فرنت أمي اليها ، ثم استدارت الي ، وسألت :

— متى ضربها ؟

فمقاطعتها جدتي ممانعة :

— الا تخجلين ، يا غارفارا ، اذ تطرحين على طفل صغير مثل هذه
الاسئلة ؟ ذلك ليس من شأنك !

— اندريه — بابا . . . اندريه — . . .

فادهشني منه ذللك وارعبني في الوشت ذاته دون ان ادري
سبيما . . .

وجاء الخال ياكوف ايضا يحمل فينارته ، يصحبه ساعاتي
الرأس ، أعور ، يرتدي معطفا طويلا أسود اللون يجعلسه على هيئة
الرهبان . وكان يقبع في احدى الزوايا يبتسم ، وقد أمال رأسه واستند
الحليقة المتشققة الى أصبع واحده ، يتطلع بعينه الوحيب
كل شيء حوله بحدة خاصة ، قليل الكلام ، يردد على الدوام هذه الجما

— أرجوك ، لا تتعب نفسك ، فكل شيء سيان . . .

عندما تطلعت فبا ، للمرة الاولى ، تذكرت بغتة ذلك الزمن
(وكنا ما نزال نعيش في شارع نوفيا) عندما سمعت الطبول تقرر
بالشر والمويل في الطريق المعام ، ورأيت عربة سوداء عالية ، يحيط بها
والناس ، تتحرك منحدره من السجن حتى الساحة العامة ، وقد
فيها ، على دكة صغيرة ، رجل يقطي رأسه بقبعة مستديرة ويسداه .
بسلسلة من الحديد تصعد اصواتا غريبة كلما مثنى . . . وكانت لوحة سودا.
من عنقه ، وقد كتب عليها شيء ما بأحرف بيضاء كبيرة ، انحنى رأس
عليها فكانه يقرأ المكتوب فيها . . .

— هوذا ولدي !

قالت أمي ذلك ، وهي تقدمني الى الساعاتي ، ولكنني نفرت الى
مذعورا ، وقد شبكت يدي خلف ظهري . . . فقال هذا ، وقد انسح
حتى أذنه اليمنى بطريقه مرعبة :

— أرجوك ، لا تتعبي نفسك . . .

وامسك بي من حزامي ، وجرني اليه ، وادارني امامه بحركة سر
ماهرة ، ثم قال ، وقد أفلتني :

— انه في صحة جيدة ، انه قوي !

واتخذت مجلسي على مشعد من الجلد يتسع للرقاد فيه — وكان

يفتخر دوما بأن ذلك المقعد قد خص الامير روزينسكي فيما مضى من الايام -
ورحت اراقب من تلك الزاوية كيف يجرب الكبار عبنا ان يمرحوا ، وكيف
تتبدل تعابير وجه الساعاتي دون انقطاع ، الامر الذي اثار استغرابي
وارتياي . . . كان يبدو ان وجهه النحيل ، المكسو بالشحم ، يلين كالشمع
الاصفر ويذوب ، فاذا ابتسم الرجل انحرفت شفناه الغليظتان الى اليمين ،
وانتقل انفه الصغير مثل قطعة صغيرة من اللحم المقدد في قاع صحن وسخ .
وكانت اذناه الكبيرتان المنفرجتان تتحركان بدورهما بشكل مثير للضحك ،
فترتفعان تارة مع حاجب العين السليمة ، وترتميسان تارة على الخديسين
المتعظمين فيخال لي انه يستطيع لو اراد ان يغطي بهما انفه .

وفي بعض الاحايين كان يخرج من فيه ، بعد ان يصعد زفرة عميقة ،
لساننا اسود ، صفيرا ، مدورا كالقرص ، فيرسم به عدة دوائر وهو يرطب
شفثيه الغليظتين المبللتين . . . وجدت ذلك مدهشا اكثر منه مضحكا ، فلم استطع
ان ارفع عيني عنه ابدا .

تناول الضيوف الشاي ممزوجا بالروم الذي كانت تفوح منه رائحة
البصل المحروق ، واحتسوا ، فيما احتسوا ، الاثرية التي تهيؤها جدتي
والتي كانت ذهبية اللون ، او خضراء ، او سوداء معتمة كالحة كالزفت . . .
واكلوا من معجناتها المشوية المغطاة بالقشطة ، كذلك بعض الكمك المزوج
بالعسل حتى انتفخوا ، وتصيبوا عرفا ، وراحوا يزفرون بشدة وهم يشكرون
جدتي على كرمها . وبعدها شبعوا ، جلسوا بتراخ في مقاعدهم ، وقد توردت
وجوههم وزهت ألوانها ، وراحوا يسألون الخال ياكوف في تكاسل ان يعزف
شيئا على فيثارته ، فانحنى هذا عليها ، وشد من أوتارها ، ثم شرع يغني
بصوت يشبه عويل الثكلى :

« لقد لهونا هنا لنملاً الارض غناء . .
وجاعت من « كازان » يا لها من حناء
جاءت تفتش عن صاحب لهو وهناء ! »

وجدتها أغنية حزينة جدا ، وكذلك وجدتها جدتي من دون ريب ، اذ
تأملت :

— عن شيئا اخر ، يا ياكوف — أغنية حقيقية لطيفة . اذكركم تلك
الاغاني التي كان الناس يغنونها في الماضي ، يا موتريا ؟

فلاجابت العسالة في لهجة طروب ، وهي تمسك طرف توبها :

— ان اسلوبا جديدا طرا على الاغاني في هذه الايام ، يا عزيزتي .

فحجج خالي جدتي بعينين نصف مغلقتين وكأنها بعيدة عنه جدا ، تم نابع الانشاد بنغمته الحزينه وكلماته البشعة ...

كان جدي منهمكا في مناقشة سرية مع الساعاتي ، وهو يبرهن شيئا ما على أصابعه . وكان الساعاتي يرفع حاجبه ، ويرنو ناحيصة والدتي ، ويهز راسه ، بينما تأخذ قسمات وجهه المائع بالارتجاف في خبث كثير . . أما أمي فكانت جالسة بين الاخوين سيرجيبك كالعادة ، تتحدث بهدوء وتؤدة ووقار الى ماسيلي الذي كان ينهد ، ويقول :

— هه ! يجب ان أفكر في ذلك !

فبيتسم فيكتور ابتسامة مأكرة ، ويسحب قدميه على ارض الغرفة ، ثم يروح ينشد نجاة في صوت حاد رفيع :

— اندريه — بابا . . . اندريه — . . .

فيتوقف الجميع عن الحديث . . . ويرمون بأبصارهم اليه . .

قالت والدته بانفة :

— لقد أخذ ذلك عن المسرح . انهم يغنون هكذا هناك .

قضينا أمسيتين أو ثلاثا فقط من هذه الامسيات . . . لشد ما أرهقني فيها — وأنا أذكر جيدا — ملل لا يطاق . ثم جاعنا ذلك الساعاتي ، ذات يوم احد ، عند الظهر ، بعد خدمة القداس الاخيرة مباشرة . وكنت جالسا في غرفة والدتي أساعدها في استخراج اللالي عن ثوب مطرز عتيق ، حين فتح الباب بفتة على مصراعيه ، وظهر وجه جدتي الذعور لحظة قصيرة كانت كافية لان تتمم فيها :

— فارغارا ، لقد جاء !

فلم تجفل والدتي ، ولم يتقلص في جسدها طرف واحد . . . ثم فتح

الباب نائيه ، بمد اقل من دقيقه واحده ، وظهر وجه جدي على المعتبة وهو يقول في وقار عظيم :

— ارتدي نيايك ونمالي ، يا مارفارا !

فءالته والذني ، دون ان تقف أو بدير نظرها اليه :

— ولكن الى أين ؟

— تعالي يباركك الله ، وكفاك نقاتسا . انه رجل مسنقيم ، يفسن عمله ، وسيكون ابا طيبا لالگسي . .

كان جدي يتحدث باهنمام غير معهود ، وهو يضرب وركيه بيديه دون انقطاع . . . بينبا طفق مرفقاه يرتعشان وگان يديه نرغبسان في الامنداد الى الامام ، وهو يجاهد ليمنعها من ذلك . . . قالت امي بهدوء :

— لقد سبقي وقلت لك ان ما تخطط له لن يكون .

فأسرع جدي اليها ، وقد مد ذراعيه الى الامام منه كرجل ضيرير ، وصاح بصوت جاف ، وهو يرتعش من ام رأسه حتى اخمص قدميه :

— تعالي ، والا جررتك جرا — من شعرك ا

— ستجرني ؟

سألت والذني وهي تنهض ، مربدة الوجه ، وقد ضاقت فتحة عينيها وشع فيهما تهديد مرعب . . . وأسرعت تنضو عنها معطفها ، ثم تنورتها .

قالت حين اضحت عارية وليس ما يستر جسدها سوى قميصها :

— حسنا ، جرنني !

فكثرت عن أسنانه ، وهز قبضتيه ، وصاح :

— ارتدي ثيابك ، يا فارفارا !

فدفعته والذني ، ومضت الى الباب ، وزعقت :

— حسنا ، هيا بنا . . . !

همس من أطراف شفتيه :

— سألعنك !

— لا أخافك ولا أخاف لعنتك

وفتحت الباب ، ولكن جدي أمسك بها من طرف قميصها وسقط على ركبتيه . . . وانخرط باكيا ، وهو يقول بصوت لا يكاد يسمع :

— ستهلكين ، يا غارفاراً ! أيتها الشيطانة الماكرة ! لا تجلبي العار علينا . .

وأرسل أينا مفاجعا ، فكان الما مرهقا يعنصر فؤاده :

— أماه ! تعالي وانظري !

كانت جدتي ، في ذلك الحين ، قد سدت الطريق على أمي وراحت تدفعها الى الغرفة بحركات من ذراعيها كما تفعل لفراخ الدجاج الصغيرة ، وهي تهمس من بين أسناتها :

— أيتها الحمقاء فاربيا ! ارجعي ، يا قليلة الحياء !

عندما أصبحت أمي في وسط الغرفة ، أسرعت جدتي تفلق الباب بالمزلاج ، ثم استدارت نحو جدي ورفعته عن الأرض بيدها الواحدة ، بينما هزت اليد الأخرى في وجهه متوعدة :

— اف منك ، انت ، ايها الابليس العجوز ، ايها المخلوق الغبي ؟

وأجلسته على الأريكة كلفته من الخرق ، منحني الرأس ، فاغر الفم ، وهي تهتف بوالدتي :

— البسي ثيابك ، أنت !

فقالت والدتي ، وهي تلتقط ثيابها عن الأرض :

— اني لن اذهب اليه ، هل تسمعان ؟

ودفعتني جدتي عن اللاكة :

— أسرع وهات وعاء من الماء . . . هيا ، انطلق !

كانت تتحدث همسا . لكن بهدوء وبلهجة الامر . . اسرعت عبر المر لانفذ طلبها ، ومن هناك استطعت ان اسمع خطوات تسير جيئة ورواحا ببطء وخطوات ثقيلة في الغرفة المواجهة ، بينما بلغني صوت امي تصيح في غرفتها :

— سارحل غدا !

مضيت الى المطبخ ، وجلست الى النافذة كالمشهوده . كان جدي يئن ويتأوه ، وجدتي تغمغم بشيء ما في سرها ، واصطفق احد الابواب في عنف . ثم خيم السكون والرغبة على كل شيء من جديد . . . وفجأة ، تذكرت الغاية التي جئت من أجلها ، فمألت طاسة بالماء وخرجت الى المر حيث التقيت بالساعاتي يسير متدلى الرأس وهو بدعك تبعته المصنوعة من الفرو ، ويطلق اهواتا جافة فارغة . . . وكانت جدتي تتبعه ، وقد صلبت ذراعها على صدرها ، وهي تنحني له دون ان يراها ، وتقول في صوت خفيض :

— انت تعرف ذلك جيدا — فالحب ليس بالامر الذي يجبر الانسان عليه جيرا! . . .

وتعثر الساعاتي على عتبة الباب ، ثم دلف منه الى الساحة ، بينما رسمت جدتي اشارة الصليب ، ووقفت هناك لحظات يسيرة ترتجف فيها كل ذرة . . . ترى ، هل كانت رجفتها ناشئة عن الضحك ام البكاء ؟ . . . لسن ادري ! لاني لم استطع ، في ذلك الحين ، ان اسر غور نفسها . . .

ركضت اليها اسألها :

— ما بالك ؟

فاختطفت الطاسة من بين يسدي بعنف حتى اراقت بعض الماء على جوربي ، وقالت :

— من اين رحمت تستقي هذا الماء ؟ ائفل الباب !

واستدارت راجعة الى غرفة والدتي ، بينما دلفت انا الى المطبخ ورحمت استمع ، من هناك ، الى تاوهاتهما وتنهدياتهما المستمرة فكانهما تدفعان : من مكان الى اخر ، حملا ثميلا بفوق قواهما . . .

كان النهار بديعا رائعا ، واشعة شمس الشتاء المائلة تحترق زجاج

النافذنين المتجلد . وكانت المائدة مهياة للفداء ، تلتمع عليها الصحون النحاسية ، وزجاجتان تحتوي احدهما شراب الكفاس الذهبي ، والثانية فودكا جدي المخضرة من كثرة الجعة غير المخترة فيها ، ومن زهر الربيع المضاف اليها لتعطير رائحتها . وكانت كوة صغيرة تبعث وميضا من الثلج يبهر النظر من خلال مساحات ضيقة من الجليد الذائب على زجاج احدى النافذتين كان ذلك الوميض يتللا على الاسطحة ، ويتالق على المقبعات الفضية البراقة التي تكال عواميد السياج واعشاش العصافير . وكانت طيوري الاسيرة ترح في افاصها الفياضة بأشعة الشمس ، والمعلقة على اطراف النافذة : فالبلبل الاليف يزقزق بجذلان مرحا ، يصهر ، بينما شرع الحسون يردد أغنية من أغانيه الجميلة . . . لكن هذه الموسيقى الحلوة ، وذلك التالق الذي يبعثه النهار الفضي ، لم يحملها الي شيئا من الغبطة على الاطلاق . كان الغم يملأ نفسي فأرغب عن التمتع بجمال ذلك النهار الرائع وعن كل شيء آخر في الوجود وأردت أن اطلق سراح الطيور للتمتع بالحرية والسلام ، ولم اكدا اتناول الاتفاص حتى ظهرت جدتي في المطبخ تزمر ، وتلطم خديها ، وتصيح وهي تركض الى الموقد :

— لعنكم الله جميعا ، واخذتكم العفاريت ! آه ، يا لك من عجوز حمقاء ، يا اكولينا !

وأخرجت من الفرن فطيرة كبيرة ، وضربت بأصابعها على قشرتها المحترقة ، ثم بصقت على الارض :

— لقد احترقت حتى صارت رمادا ! وانا التي أردت ان أسخنها فقط ! تفو ، يا اينها الشياطين ، هلا تحطمتم جميعا وذهبتم هباء ! وانت أيها اليوم ، لماذا تقعد محمقا بعينين كبيرتين ؟ اود لو أهشمكم قطعا كأنية الفخار . . .
وشرعت تبكي وهي تقلب الفطيرة من جهة الى جهة ، وتلمس القشر الجفاف ، وتسقيه بدموعها الغزيرة . . .

ودخل جدي وامي الى المطبخ ، فرمت جدتي ذلك التلف على الطاولة

بشدة فتراقصت الصحون وصدر عنها ضجيج صاخب . .

— انظرا ما حدث ، وكل ذلك بسببكما ، حملكما الشيطان !
فارتمت والدتي عليها ، وقد استقرت هدوءها ومرحها ، تعانقتها
وتواسيها وترجوها ان تنسى كل ما حدث . . . بينما راح جدي يرنو حواليه ،
تعبا ، متغضن الوجه ، وهو يأخذ مجلسه الى المائدة ، ويعتمد حول عنقه ،
وينظر شزرا بعينيه المنفختين ، ويغمغم :

— حسنا ، فلننسى ذلك ! لقد اكلنا فطائر لذيذة من قبل . ان الله
بخيل بعض الشيء ، يأخذ منك مقابل دقائق من السعادة سنوات من الشقاء ،
وهو لا يؤمن بالفائدة . . اجلسي ، يا فاريا . . وانسي ما حدث !

كان يبدو وكأن مسا من الجنون أصابه . . . ظل يتحدث ، طوال
الغداء ، عن الله ، وعن « آهاب » الملحد ، وعن البلايا والشدائد التي تقع
على عاتق رب البيت ، فقاطعته جدتي بشدة تقول :

— هيا تناول غداءك ، ولا تتحدث كثيرا !

وذحكت أمي ، وبرقت عيناها الصانيتان . . .

سألتنى ، وهى تربت على كتفى :

— حسنا ، هل جزعت كثيرا مما حدث ؟

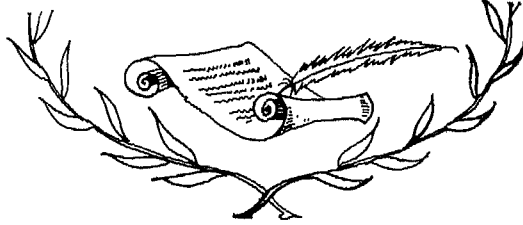
كلا ! لم اخف كثيرا ! ولكنني اشعر الان بالقلق والضيق ، ولا استطيع
ان افهم ماذا حدث . . .

ظلوا يأكلون طويلا وكثيرا ، كما هى العادة أيام الاحاد والاعباد ، حتى
ابتدا المال ينال منى . . وصعب على ان اصدق ان هؤلاء هم انفسهم الذبن
كانوا ، لنصف ساعة مضت ، يصحون في وجوه بعضهم ، يهيجون نقمة ،
ويغفلون غضبا ، وهم على أهبة القتال في كل لحظة . . وكذلك لم أستطع ان
اصدق انهم كانوا جادين فيما ذهبوا اليه ، وان ذلك كلفهم بعض العناء . .
لقد اعدت صراخهم ، وبكاءهم ، وذلك النزاع الذي لا يفتأ يتكرر ، كى يعود
فيخهد بسرعة غريبة ، حتى لم اعد القى الاهتمام كما كنت افعل من قبل .

ولكنني أدركت ، بعد زمن طويل ، ان الروسيين المجبرين على حيا
فقيرة فارغة كانوا يفتشون عن نسلية لهم حتى في الحزن نفسه ، فيلعبون به
كالاطفال ، ولا يحسون الخجل من مصائبهم الا في القليل النادر . . .

وعندما تكون الحياة رتيبة ، يمسي الحزن نفسه عيداً وحدثاً مرحباً
بهما . وحتى الحريق يصير تسلية لذيدة . . . وكذلك الجرح البسيط ، في وجد
خال من كل معنى ، يمسي زينة جميلة رائعة . .

• • •



اضحت والدتي ، بعد ذلك الحادث ، قوبة ، منصبسة ، ورأسا للبيت كله ، بينما استسلم الجد الى الصمت ، والتواضع ، فكانه لم يعد هو ، وفقد شيئاً مهماً من نفسه . . .

ولم يعد يبرح البيت ابداً ، بل يجلس في الطابق العلوي يقرأ في كتاب غريب مبهم يدعى « مذكرات والدي » . . كان يحفظ ذلك الكتاب في صندوقه الضخم تحت « القفل والمفتاح » ، وكثيراً ما لاحظت انه يغسل يديه قبل ان يأخذه من مكانه . . كان الكتاب صغير الحجم ، جلدي الغلاف أصفره ، قد كتب على صفحته الاولى الزرقاء هذه العبارة بحبر باهت اللون : « الى النبيل فاسيلي كاشرين ، مع أخلص التحيات واجزل الشكر . . . » . وكانت هذه الكلمات مذيلة باسم غريب ينتهي بصورة منمقة حلوة تمثل عصفورا يطير . . . وكان جدي يفتح الغلاف الجلدي الثقيل بعناية فائقة ، ويضع نظارته المفضيتين ويرنو طويلاً الى تلك العبارة وهو يتلمس أنفه ليصلح من وضع نظارته . ولقد سألته ، اكثر من مرة ، عن ماهية ذلك الكتاب ، فكان يجيب بصورة مثرة وقد قطب ما بين حاجبيه :

— ليس لك من حاجة الى معرفته الآن . تربث قليلاً — وعندما اموت ، سأتركه لك مع معطى السنورى أيضا .

أصبح يقتصد من كلامه مع والدتي ، واذا خاطبها فنصوت حلو لطيف ، اما أن تحدثت هى ، فهو بصفتى اليها بانتباه ، وبتمتم بصوت غير مفهوم ، رومىء بيد ، وبطرف بعينه كما كان يفعل الخال بوتتر تماماً . . .

كائن الصناديق تعج بكثير من الثياب الغريبة الملونة ، قصان حريرية

مزرکشة ، وصدار من الساتان والفرو ، وأثواب من البروکار طویلة لا اکمالها ، مطرزة بالفضة ، وقبعات مزینة باللؤلؤ ، ومنادیل ، وأریطة عنق براق الالوان ، وعتود من أحجار مختلفة الالوان .وكان یحمل ذلك كله الى غرفه والدتي ، ويرمي به على الطاولة والمقاعد ویقول ، عندما یرى الى والدتي تعجب بالحلی وتدهش :

— في ايام صباي كانت الثياب اثن منها اليوم واجمل ! كانت الثياب اثن ، أما الناس فكأنوا يعيشون ببساطة ومحبة وود اكثر منهم في هذ الایام . ولكنی اعتقد ان ذلك الزمن لن یرجع ثانية ، فحبري هذه الاشياء واختاري ما یعجبك منها . . .

وذات يوم ، نزلت امي عند رغبته ، ومضت الى الغرفة المجاور وارتمت ثوبا طویلا یضرب الى السواد ، مزخرفا بخيوط من الذهب ووضعت على رأسها قبعة جميلة مزرکشة . . . قالت ، وهي تنحني لجدي

— ابروئك هذا ، يا صاحب السعادة ؟

فلهث جدي ، واشرق وجهه ، وراح یدور حولها وهو یحرك ذراعيه کمن بمشي سكرانا ویهمهم :

— آه ، فارفارا ! آه لو كنت ثرية فقط ، وكان هنك اناس وجهاء فيه حولنا !

وقد شغلت والدتي غرفین امامیتین في المنزل ، حیث كانت تستقبل كثيرا من المضيوف . وكان الاخوان مكسيموف اكثر الزوار ترددا علينا . کار احدهما یدعی بیوتر ، وهو ضابط طویل القامة ، جميل الطلعة ، ذو احیة عربیة شقراء ، وعینین زرقاوین ، جلدي جدي في حضوره يوم بصقت علم رأس ذلك الشریف الاصلع ، وكان الاخر یدعی یفجینی ، شاب مديد الجسد ایضا ، ولكنه نحاب الوجه ، ذو ساقین طویلتین ، ولحیة سوداء مدببة وعینین کبیرتین تشبهان الخوخ البري ، یرتدي دوما بزة خضراء ذهبیة الازرار ویضع شارات مذهبة على كتفيه الضیقتین . وكان من عادته ان یدلم بشمره الطویل المتوج من فوق جبهته المالیة الى الخلف ، وهو یبتد بتواضع ظاهر ، ثم یروح یروي في صوت ابح حدیثا ما یفتتحه ابدأ بهذ العبارة الني لا تتغير :

— أنت ترين ، يخيل الي لن ...

فتهه والدتي كل سمعها ، وعيناها نصف مغلقتين ، وتقاطعها في اغلب الاحيان ضاحكة :

— أنت ما تزال طفلا ، يا يهجينى فاسيليفيتش ! واني أرجو ان تغفر لي قولي هذا ...

فيوافي الضابط الكبير ، وهو بضرب براحة يده على ركبته زيادة في التاكيد :

— نعم ! طفل ! انه لكذلك تماما !

مرت عطلة عيد الميلاد في حبور صاخب ، فكان الضيوف يجتمعون عندنا كل مساء وقد ارتدوا نيايا زاهية جميلة ، كانت ثياب أمي دائما ازهاها رابهاها ، ثم يخرجون جميعا من الدار ليقوموا ببعض الزيارات ...

كان البيت ، في كل مرة يخرج فيها ذلك الجمع المرح من الباب - يبدو وكأنه بغوص في الارض ، ويفرق في اجبة من الكابة والسامة ، ويسبح في صمت خائق ثقيل ... وعندئذ كانت جدتي تجوس خلال الغرف كأوزة هرمة ترتب كل شيء ، وتعيد النظام الى نصابه ، بينما يقف جدي وظهره الى قرميد الموقد يتدفأ ، وهو يهمهم بينه وبين نفسه :

— حسنا ، حسنا ، ستري الى اين ستتوردها هذه الطريق التي تسير عليها الان بدون وعي ..

ولم تكد فترة عيد الميلاد تنقضي حتى اخذتني أمي مع ساشا ، ابن الخال ميخائيل ، الى المدرسة ... وكان هذا الاخير قد تزوج للمرة الثانية ، فلم يكد يمضي على زواجه بضعة ايام حتى أخذ ساشا ينال مر العذاب والضرب من خالته التي ابغضته بسرعة عجيبة ، فاقترح جدي — نزولا عند الحاج جدتي — ان يتكفل به . وواظبنا على المدرسة مدة شهر واحد فقط . ولست اذكر ، من كل ماتعلمته طوال تلك المدة ، الا شيئا واحدا ، وهو انه لا يكفي عندما اسال عن اسمي ان اجيب : « بشكوف » ... بل يجب ان اقول : « اسمي بشكوف » ... وكذلك ظاني لا اتمكن من ان اخطب المعلم

هكذا : « لا تصرخ في وجهي على هذا الشكل . يا اسناذ ، فليست أخاف منك !... » .

وسرعان ما حدثت على المدرسة ... بينما هام بها ابن خالي شغفا ، وماحب عددا من الطلاب لا بأس به .. ولكنه غفا ، ذات يوم ، أثناء الدرس وانطلق يصيح في نومه : « كلا ! لا أر ... يد ! » .. وعندما استيقظ ، استأذن في مفادرة الصف ، ولكن الطلاب سخروا منه بقسوة .. وفي صباح اليوم التالي توقفت عن المسير ونحن في طريقنا الى المدرسة ، بعد ان تجاوزنا خندق ساحة سينابا ، وقال لي كمن يفشي سرا :

— ستتابع الطريق من دوني ، فأنا لن اذهب الى المدرسة هذا النهار .
انى افضل الانطلاق في نزهة ...

وجلس القرفصاء ، ودفن كتبه في الثلج ، ومضى ... كما في كانون الثاني والنهار مشرق ، والارض تلتمع بما اسبغت عليها أشعة الشمس من نور وضياء .. وداخلني احساس بالفيرة من ابن خالي ولكني صررت على اسناني وتابعت الطريق في اتجاه المدرسة محبة بأمرى ... وطبيعي ان كتب سائسا المدفونة في الثلج سرقت ، فاصبحت له بذلك ذريعة حقيقية للامتناع عن الذهاب الى المدرسة في اليوم التالي ... وفي اليوم الثالث ، اكتشف جدى تصرفات سائسا وسلوكه الغريب .

وقدم كلانا للمحاكمة : جلس جدى وجدتي وأمرى وراء الطاولة ملى المطبخ ، يقومون بالتحقيق . وانى لأذكر ، حتى الان ، احوبة سائسا السخيفة على اسئلة جدى .

— لماذا لم تذهب الى المدرسة ؟

— لقد نسيت موقعها .

— نسيت ؟

— نعم ، وقد فتشت عنها طويلا ...

— كان يجب ان تتبع الكسي ، فهو يعرف الطريق .

— لقد اضعفت الكسي

— أضعفت الكسي ؟

— نعم .

— وكيف يمكن ذلك ؟

فكر ساشا لحظة ، ثم قال متنهدا :

— كانت هناك عاصفة ثلجية فلم أستطع رؤية اي شيء على الاطلاق .

فضحك الجميع . . . لان الطقس كان رائعا صافيا مشمسا ذلك النهار . .

ولم يستطع ساشا نفسه ان يمتنع عن الابتسام قليلا ، ولكن جدي كثر عن اسنائه ، وقال في خبث كمن يوقع بعدو :

— الم تستطع ان تمسك بيده او بحزامه ؟

— لقد فعلت ، ولكن الريح عصفت بي وابعدتني عنه . . .

كان يتحدث ببطء بلهجة من فقد الامل كله ، فاثقلت علي تلك الاقوال الخرفاء وذلك الكذب الذي لا فائدة ترجى منه ، ولم أستطع ان أفهم لعناده معنى او سببا . . .

لنا نصيبنا من الجلد ، ثم استأجروا لنا احد عمال المطاسيء ، وهو شيخ متقاعد ذو ساعدين ملتويتين ، ليصحبنا الى المدرسة ، كانت مهمته ان يحتاط كيلا يضل ساشا الطريق الى المدرسة او يحيد عنه . ولكن عبثا فلم نكد نحاذي الخندق في اليوم التالي حتى خلع ابن خالي احد حذائيه ورمى به عن يساره ، ثم خلع الحذاء الثاني ورمى به عن يمينه ، وشرع يدب في الساحة بجوربيه . . . وأسرع الشيخ يسمى وراء الحذائين وهو يزمجر . . وعندما التقطهما ، عاد بي الى الدار مرتجف الاوصال ، بادي الرعب . . .

ظلت امي وجدتي ، طوال ذلك اليوم ، تفتشان في البلدة عن الهارب حتى وجدناه ، عند المساء ، في حانة شيركوف بالقرب من الدبر يسلي الجمهور برقصاته . . . عادتا به الى البيت ، ولكنهما لم تنزلا به عقابا لشدة الاضطراب والقلق اللذين اثارهما فيهما صمته العنيد . واستلقى بجانبني في المسقفة ، يضرب الفضاء بقدمه ، ويقول بهدوء وانسجام :

— ان امرأة ابي لا تحبني ، وجدي لا يخبني ، فلم ابقى بينهم ؟ ساءرف
من جدتي اين يعيش اللصوص ، واهرب اليهم ... وعندئذ ستعلمون كل
شيء .. فلتفر معا ، ما رأيك ؟

كان المهرب مستحيلا بالنسبة الي ، فقد كنت اهدف ، في ذلك الحين ،
الى غاية اخرى في الحياة ، وهي ان اصير ضابطا ذا لحيه كبيرة شقراء ،
الامر الذي يضطرنني الى متابعة التحصيل ، والمواظبة على المدرسة .
وعندما اوضحت لابن خالي مشروعني ، غرق في التفكير برهة ، ثم اجاب وقد
استصوب رأيي قائلا :

— هذا حسن ايضا ! فعندما تصبح ضابطا اكون انا زعيما للصوص ،
فيجب عليك اذن ان تقبض علي ... وسيقتل احدنا الاخر ، او يأخذه اسيرا .
وانا لن اقتلك مهما كلف الامر ...

— ولا انا ايضا .

وقد تم قرارنا على ذلك ...

دخلت جدتي ، وتريعت على الموقد ، وطبقت تحدثنا :

— حسنا ، ايها الفاران الصغيران ! آه ، يا يتيمي الصغيرين ، يا فرخي
اللطيفين !

وراحت تكيل الانهام ، في عطفها العميق علينا ، لامرأة اب سائسا ،
والعمة ناديجدا السمينه ، ابنة صاحب الخان .. وادى بها ذلك الى فضح
جميع الخالات ، سائر ازواج الامهات دون تفريق ، ومن ثم روت لنا قصة
الراهب الحكيم ايون الذي قاد خالته امام كرسي دينونة الله ، وهو لم يزل
صبيبا بعد ، قالت :

— « لقد كان ابوه صياد اسماك في البحيرة البيضاء ، ومرتما لفساد
امراته الخبيثة الثعلبية التي افوته بشرب الخمره حتى سكر ، وسقته المخدر
حتى استغرق في النوم ، ثم القت به وهو نائم في قارب من خشب السنديان ،
قارب ضيق جدا حتى ليمائل تابوت الميت ، وبعد ذلك تناولت بيديها المجانيه
المصنوعة من خشب الحور ، وجذفت به في عرض البحيرة حيث كانت الامواج
تتلاحق هادئة باهتة ، تنتظر فعل تلك المرأة العاهرة ... وهناك ماليت عن
القارب ، وهزته بعنف ، وقلبتة دون من يشهد على ما تقتربه يداها ، فغرق

زوجها كالحجر عميقا في الماء ، بينما سبحت زوجته سريعا حتى شاطيء الغابة ، وهناك ارتمت على الارض تعول وتنوح بمرارة ، وتظاهر بالحزن على فقدانها ، هو الذي قتلته بكل تلك الوحشية .

« وسمعا اناس ، واشفقوا عليها ، وبكوا محنتها ونصيب الارملة الذي حل بديارها ، وقالوا لها : « وأأسفاه ! أنت صبية بعد حتى تترلمي ، وشقاؤك سيكون مريرا مضنيا ، ولكن يد الله تسير حياتنا جميعا ، وهو الذي يأمر بموتنا او حياتنا » ...

« كان ابن زوجها اينوشكا الشخص الوحيد الذي لم يصدق دموع خالته ، فراح يشتبهها هامسا بصوت منخفض ، وقد وضع يده على قلبها : « ايه، أنت يا امرأة الخبث والمكر والدهاء ! يا طائر الليل الطافح احتيالا وخديعة ، لمست اؤمن ، أنا ، بدموعك هذه التي تسببينيها باسراف ، فالقلب في صدرك ينبض بفرح عظيم . فلنتجه اذن نحو مقعد الدينونة السماوي ، نحو الرب الاله ، وقوى السماء ، وليأخذ احدنا سكيناً مسنونة يلقي بها ، بقوة وعزم ، في اتجاه السماء ، فان كمت انا ملوما فلاذبح بها ، وان كنت أنت ملومة فلتذبحي بها » .

« فاستدارت اليه خالته ببطء ، وتفرست فيه بعينين تلمعن حثدا وكراهية ثم هبت واقفة باعتزاز وشموخ ، وردت عليه في لهجة انتقام وتشفق : « يا لك من مجنون ، قد ولدت قبل ان يحين اوانك ! أنت يا من قاعك بطسن الانسانية المفترة ، ما هذا الكلام الذي تقول : والذي يسطره عليك خيالك المريض ؟ ما هذه الاكاذيب التي يثرثر بها لسانك وينشرها !؟ » .

« وسمع الناس الذين تجمهروا هناك كل تلك الاتسوال ، وادركوا ان وراء الاكمة ما وراءها ، فراحوا ينظلمون في صمت ، مثقلي القلوب ، ويأتربون بصوت خافت حول ذلك الحادث القريب ، ثم تقدم منهم صياد عجوز وانحنى الى كل الجهات احتراما للبشر اصدقائه واقربائه ، ومن ثم تفوه بهذه الكلمات المثقلة جميعا بالتعظيم والتكبير : « آتونسي ايها الناس الطيبون بالشفرة الحادة . . وانظروا الي هنا ، أمسك بها بكلتا يدي ، والر السماء لتذبح بها ، وسوف تقتل ذلك الذي تصرف ثرا !... » .

« وحملوا السكين الى الرجل الطامن ، ملوح بالنصل فوق رأسه الكثيف

الشعر ، فاذا تنطلق في القبة الزرقاء الصافية كالصفر الطائر ،
وتختفي . . وانتظر القوم طويلا عودتها ، انتظروا وشخصوا الى المرتفعات
البلورية ، رغبوا تبعاتهم عن رؤوسهم وقد تراحموا بعضهم فوق بعض ،
ووقفوا هناك في صمت وسكون . . . كذلك كان الليل ساكنا هادئا . . وما
لبث احمرار الفجر المشرق ان سيطر على البحيرة ، وكذلك احمرت الخالة
وهي تمد بصرها في الفضاء ما استطاعت . . . ولكن السكين ، على حين غرة:
انزلت من العلاء في مثل سرعة السنونو واندمعت في قلبها عميقا . . عندئذ،
سقط الناس الاتقياء على ركبهم جاثين يصلون الى الله في تواضع وانسحاق:
« فليكن الرب مباركا من أجل عدالته ! » . . . ثم اقترب الصياد من ايون ،
واقترابه بعيدا الى أحد الادييرة ، بعيدا جدا على ضفاف نهر يدعى كيرجنت ،
قرب مدينة كيتيج العظيمة .

. . .

استيقظت في الصباح وقد امتلأ جسدي بقعا حمراء صغيرة . . . انه
الجدري ! . .

نقلوني الى غرفة خلفية في الطابق العلوي ، حيث بقيت زمنا طويلا
مستلقيا في سرير تيدوا لي ذراعي وساقاي بمصابات عريضة ، عاميا عن كل
ما يحيط بي ، احلاما مزعجة ، كاد يقضي علي في نهاية أحدها .
وكانت جدتي الشخص الوحيد الذي يزورني ، تطعمني بالملعقة فكانني طفل
صغير ، وتقص علي خرافات واساطير لا تنتهي . . . وذات مساء — بعد ان
تحسنت حالي قليلا وسرت في طريق الابلال ، بحيث فكت اللغائف والرباطات
عن ساقاي وذراعي ، وان ظلت اكمام سترتي مربوطة بحيث تمنعني من حك
وجهي بأصابعي — تأخرت جدتي عن زيارتي كما تفعل دوما ، فإزعجني ذلك
وانذرتني بالويل والثبور . . . وعلى حين بغتة ، خيل الي انني اراها مستلقية
على أرض الغرفة المغبرة ، ووجهها الى التراب ، وقد تباعد ذراعاها ، وذبح
عنقها من الوريد الى الوريد مثل عنق الخبال بيوتر تماما بينما دلفت
من بين الظلال المعتمة قطة كبيرة راحت تزحف في اتجاهها ، وعيناها
الشهتان الكبيرتان الخضراوان تدوران في محجريهما دون انقطاع .

تفزت من السرير ، وحطمت النافذة المزدوجة بقدمي وكتفي ، والقيت
بنفسي على تلة من الثلج تحت النافذة . . . كانت والدتي تستقبل بعض

الزوار ذلك المساء ، بحيث لم يسمع اي انسان صوت الزجاج وهو يتحطم . . .
وبقيت فترة طويلة مضطجعا على الثلج دون ان يدري احد بي . سليم العظام .
وان ألمني كتهني بشدة ، في حين جرحنى الزجاج في مواضع عديدة من جسدي ،
كما فقدت القدرة على استعمال ساقي ، وبقيت ثلاثة اشهر مضطجعا في
غرفتي عاجزا عن الحركة ، اصغى الى الفوضى التي شملت حياة الدار ،
والى صوت صفق الابواب غير المنقطع ، ومجيء الناس ورواحهم الدائمين .

كانت عواصف الثلج تهب خارج المنزل عنيفة عاتية ، والريح تثور خلف
باب الطابق العلوي وتسفر ، ثم تخترق المدخنة وهي تولول باكتئاب ، او
تلطم مصاريع النوافذ وهي تزجر بقسوة . كنت ارهف السمع في النهار الى
نعيب الغربان ، أما في الليالي الساكنة فالى عواء الذئب المرعب يصلنا من
الحقول البعيدة ، ونفسي ننضج مع تلك الموسيقى المتوحشة ونمو . . . ومن
ثم هل الربيع ، خجولا هادئا ، يلح بالوصول يوما بعد يوم ، واطل من
النافذة بعينيه المتألفتين الفرحتين ، فبدأت القطط تموء على السور وتلعب ،
واصوات هادئة حلوة تخترق الجدران وتبلغني : من قرعمة قطع الجليد ،
ودرجة الثلج عن الاسطحة ، الى رنين اجراس العربات التي كان طنينها
بتخذ تلك الصلابة التي اعوزته في الشتاء . . .

ولم تنقطع جدتي عن زيارتي لحظة واحدة . . . أمست تشرب بكثرة في المدة
الاخيرة ، تشتم من كلماتها رائحة الفودكا اكثر فأكثر . لا بل شرعت تحمل
معها ابريقا كبيرا من الشاي ، ابيض اللون ، تخفيه تحت سريري محذرة
اياي وهي تطرف بعينها :

— اياك ان تخبر جدك العفريت بهذا ، ايها العصفور الصغير !

— لم تشربين الخمر ؟

— اصمت ! ستعرف ذلك عندما تكبر . . .

وعندها تأخذ جرعة من هم الابريق ، وتمسح فمها بكم قميصها ، تستدير
نحوي وهي تبتسم بغبطة :

— حسنا ، ايها الصبي اللطيف ، عمن كنت أحدثك بالأمس ؟

— عن والدي .

— وأين توقفت عن الحديث ؟

فأذا أخبرتها ، شرع الحديث الموزون يتدفق طوال ساعات عديدة
كانت هي التي بدأتني ، دون سؤال مني ، الحديث عن والدي ، ذات
يوم كانت فيه منهوكة القوى ، رزينة ، تعيسة :

— لقد رايت اباك في حلم ليلة البارحة — كان يرسل من فمه صغير
لطيفا . وهو يخب وسط الحقول ، حاملا في يده عصا من شجر الجوز ، يعبه
وراءه كلب منقط الجسم تدلى لسانه الاحمر حتى يبلغ الارض
مكسيم سافاتييفيتش ما برح يزورني كثيرا في احلامي في هذه الايام الاخيرة
وانا اجهل سبب ذلك . . . يبدو ان روحه تهيم متألة ..

ظلت طوال اسابيع متتالية تحدثني عن والدي فتروي لي عنه قصص
تضاهي ، في اهميتها ، سائر قصصها الاخرى . كان والدي ابنا لاحد الجنو
الذين رقا الى رتبة ضابط بعد خدمة طويلة ، ولكنه نفي بعد ذلك الم
سييريا لتعسفه في معاملة مرؤوسيه . وهنساك ، في بعض اصقاع سيبيريا
المجهولة ، ولد والدي ، فعاش حياة شاقة عسيرة . . . وطفق ، وهو لما يز
طفلا بعد ، يدبر المحاولة تلو المحاولة كي يدشر من المنزل . . . وقد اخذ والمد
ذات يوم ، كلبا من كلاب الصيد ، عدا يفتش عنه في الغابات فكانه ارته
بري هارب . . . وقد ضربه ، مرة اخرى ، بعد ما عثر عليه ، ضربا مبره
حتى انقذه الجيران منه وخبأوه في دارهم . . . سألت :

— ايضربون الصغار دوما ؟

نأجابت بهدوء :

— اجل ، دوما !

توفت والدة ابي وهو طفل صغير بعد ، ولم يكذ يتجاوز التاسعة حين
لحق بها ابوه ايضا ، فبتناه عرابه الذي كان نجارا ، وضمه الى معمله في
مدينة « برم » وطفق بعلمه مهنة النجارة . ولكن والدي سرعان ما و
الادبار هاربا . . اخذ ، في اول امره ، يقود العميان في الاسواق ، حتى تم
اخيرا الى نيجنوي نوفجورود ، عندما جاوز السادسة عشرة من العمر ، و
يشتغل نجارا عند متعهد للمراكب يدعى كولشين . ولما بلغ العشرين ص
مشهورا في صنع الغرف الخشبية وتنجيد المفروشات . . . وكان الحك
الذي يعمل فيه يجاور منزل جدي في شارع كوفالكا . . .

ضحكت جدتي ، وقالت :

جسم نحيف ، وساقان رشيقتان . . وهكذا فقد كنا ، فاريا وأنا ، نلنقط توت العليق في الحديقة . . وغجاة تطلعت الى السور ، يا لطيف ! هذا والدك يقتر من فوقه فبكد ان يفقدني صوابي . وجاء يعدو في اتجاهنا بين شجر التفاح ، ماردا فتيا يرتدي قهيصا ابيض اللون ، وسروالا مخططا ، عاري القدمين والرأس ، يحزم شعره الطويل الى الخلف بقطعة من الجلد . وماذا تظنه جاء يفعل ؟ لقد جاء يطلب يد امك ! وكنت قد شاهدته عدة مرات من قبل يتجول تحت النافذة ، فأشعر افكر في نفسي كل مرة اراه فيها : « ما اروع هذا الفتى ؟ » . وهكذا قد اتجهت اليه ، عندما اتاني ، وقلت : « لم اخطأت الصراط المستقيم ، يا قلبي ؟ » فيقول ، وقد ركع على ركبتيه : « اكلولنا ايفانوفنا ، هانذا ، وها هي ذي روحي بكليتها ترتمي عند قدديك . وها هي ذي فاريا ، فساعدينا على الزواج ، حبا بيسوع ! » . حقا ، ان هذا ليس بالامر البسيط ! بهت ، ولم اعد استطيع للكلام سبيلا .

« تطلعت ، فرأيت امك الخبيثة مخنفة وراء شجرة تفاح ، محمرة الوجه كالقوتة ، وهي تشير له بيديها ، وعيناها طامحتان بالدموع . قلت : الوجه كثيرة التوت ، وهي تشير له بيديها ، وما هذا الذي اخترعته ؟ هل فقدت شعورك ، يا فارارا ؟ وانت ، انت ايها الشاب ، هلا فكرت فيما تفعل ؟ افلسيت تتطلع الى اكثر مما تستطيع ان تبلغ ؟ » . كان جدك عظيم الثراء في تلك الايام — ولم يكن قد قسم شيئا من التركة بين اولاده بعد — يملك اربعة منازل ، وما لا يحصى من المال ، واتباعه يحترمونه كل الاحترام بالاضافة الى ذلك . وقد منحوه ، منذ عهد تريب ، بدلة وقبعة مزخرفتين بالقصب احتفالا بالعام التاسع لتراسه المعبل . آه ، ولكنه كان متعجرا عظيما الكبرياء في تلك الفترة ! وهكذا ، فقد قلت ما يجب ان اتقول ، واوصالي ترتعش طوال الوقت خوفا وفرقا ، وقلبي يتمزق حسرة عليها ، اذ كان الميأس باديا على محياهما ، يكاد ان يقتلها . وعندئذ نهض والدك ، وقال : « انا اعرف من ان فاسيلي فاسيليفيتش لن يعطيني فاريا بمحض ارادته ، ولذلك فلا بد لي من ان اخطفها اذن . وههنا نحن في أمس الحاجة الى مساعدتك » مساعدتي ، تصور ذلك ! طردته ، ورفعت يدي أهم بضربه ، ولكنه لم يتحرك قيد انملة . قال : « تستطيعين رجومي بالحجارة اذا شئت ، ولكن يجب ان تساعديني ! اني لن ارجع عن رأبي ! » . وهنا تقدمت فارارا نحوها ،

وربنت بيدها على كتفه ، وقالت : « لقد أصبحنا زوجين منذ زمن طويل ، منذ شهر ايار . . . وكل ما نحتاج اليه هو الاكليل فقط » . . . وعندئذ تهالكت على الارض فكأني تلقيت منهما ضربة قاضية ! آه ، يا الهي ! . . .

واهتز جسد جدتي بالضحك . . . ثم تنشقت قبضة من السموط . مسحت الدموع من عينيها ، وتابعت وهي تنهد :

— ما زلت صغيرا بعد لتدرك بين العشرة البسيطة بين رجل وامراة ، وبين الزواج . انما فأعلم فقط انه أمر فطبيع ان تلد الفتاة بدون زواج . يجب ان تتذكر ذلك عندما تشب فلا تلقى بالفتيات في مثل هذه المتاعب . تلك خطيئة عظيمة تسال عنها ، لانك ستجعل الفتاة تعيسة شقية ، والطفل دون اب شرعي . يجب الاتنسى ذلك ابدا ! يجب ان تشفق على تلك المرأة ، وان تحبها بكل جوارح قلبك ، وليس لمجرد المتعة فقط . وهذا درس عظيم اعلمك اياه عليك الاتسأه .

وغرقت في التأمل لحظة قبل ان تتمالك نفسها ، وتتابع قصتها من جديد:

— اذن ، ماذا عليك ان تفعل في مثل هذه الحال ؟ ضربت مكسيم على رأسه ، وجررت فاريا من جدائلها ، ولكن والدك قال لي عندئذ شيئا على جانب عظيم من الحس السليم : « ان الضرب لا يصلح المسألة ! » . واضأفت امك : « يحسن ان تجدي لنا مخرجا من هذا المأزق ، تم تضربيننا » . وهنا قلت له : « الديك شيء من المال ؟ » . فأجاب : « لدي منه القليل ، ولكني ابتعت به خاتما لفاريا » . فسألته : « ايساوي ثلاثة روبلات ؟ » . فأجاب : « كلا ، بل مائة من الروبلات تقريبا » . . . وقد كانت الاشياء ، في تلك الايام رخيصة جدا ، والمال يكلف كثيرا . نظرت الى والدك ووالدتك وهما يقفان هناك امامي — انهما صبيان صغيران لا اكثر ! وأحمقان ايضا ! قالبت والدتك : « لقد أخفيت الخاتم تحت احد السواح الارض حتى لا يقع نظرك عليه . نستطيع ان نبيعه » . انهما لطفلان حقا ، اليس كذلك ؟ حسنا ، لقد قررنا ان يتم الزواج خلال اسبوع ، وكان علي ان اتفاهم مع الكاهن على ذلك . لكن أواه ، لكم بكيت آنذاك ، وارتعش قلبي واقشعر خوفا من جدك ، ولكنه كان يحب فاريا ويحنو عليها . . . حسنا ، لقد رتبنا اذن كل شيء . . .

« غير انه كان هناك عدو لابيک — وهو رجل حقود شرير من رؤساء

العمال، ظل مدة طويلة يراقبهما فاستطاع ان يعرف عنهما كل شيء . حسنا، لقد البست ابنتي الوحيدة اجمل ما عندي من تياب وابهاها ، وخرجت بها من البوابة . . . وهناك ، خلف احد المنعطفات ، كانت تروىكا تنظر ، فركبتها . وأرسل مكسيم صفيرا خافيا من بين ثفتيه . . . وها هما يمضيان . . . عدت ادراجي الى الدار ، ودموعي تسح على خدي . . . واذا ذلك الموجد اللئيم يقترب مني بمكر وخبث ، قائلا : « انني رجس طيب القلب ، ولست أريد تحطيم سعادتهما . انما سأسألك ان تعطيني خمسين روبلا فقط ، يا اقولينا ايفانوفنا ! » كتت لا املك شيئا ، فأتنا. أبغض المال ولا اوفر منه شيئا قط ؛ وهكذا فقد اجبته في حمق : « انني لا املك مالا ، ولئن اعطيتك شيئا ! » . فأجاب : « اذن عدبني بأن تدفعي لي » . فصحت : « اعدك ؟ ومن اين اجيء بالمال ان وعدتك ؟ » . فأجاب : « ايعسر عليك ان تسرقه من زوج ثري مملؤ به ؟ » . يا لي من بلهاء ! كان علي ان اجره الى نقاش طويل ، واحتمل عليه ، ولكنني بدلا من ذلك بصقت في وجهه ، ومضت في سبيلى ، فنبعنى حتى الساحة ، ويا للفضيحة التي اثارها !

واغلقت عيناها ، بينما ارتسمت على شفرتها ابتسامة جوفاء :

— انني ، حتى هذا اليوم ، ارتجف فرقة كلما تذكرت ما تلا ذلك من أوم وحماسة . لقد راح جدك يزجر مثل وحش مفترس كاسر — تلك صفة شديدة محزنة بالنسبة اليه . كان من عادته ان بشخص الى فارفارا وبينهاى بانه سيزوجها من نبيل ، من سيد عظيم . والبك النبيل — اليك السيد الذي اختارته ! ولكن مريم العذراء تعرف اكثر منا من هم الاشخاص الذين بلائمون بعضهم بعضا . . . وراح جدك بعدو عبر الساحة وكان النيران تلتهم جسده ، ينادي ياكوف ، وميخائيل ، والمسائس كليم ، ورئيس العمال صاحب الوجه الذي يعج بالنمش، ورايته بحمل هراوة ضخمة ورباطا من الجلد، في حين تناول ميخائيل بندقته . . . كانت خبولنا قوية طويلة النفس ، اما عربتنا فكانت خفيفة سريعة ، فقلت في نفسي : « سوف يلحقون بهما من دون ريب ! » .

« ولكن بلاك فارفارا الحارس الهنئى فى الوقت نفسه ، فتناولت سكيننا وقطعت بها الحبل عند العريش ، وفي اعتقادي انه سينقطع في الطريق . وهكذا كان . . . فقد انهارت مقاومة الحبل ، وكاد يقضي على جدك وميخائيل وكليم . واضطروا الى الوثوق بعض الوقت ، كى يصلحوا الحال ، حتى

إذا بلغوا الكنيسة أخيراً كانت فاريا ومكسيم وأقننين أمام بابها ، وقد تم زواجهما ... شكرا لله !

« حسنا ، عندئذ رمى رجالنا بأنفسهم على مكسيم ، ولكنه كان شجاعا متين المبنية ، وقليلون هم الذين يتمتعون بالقوة التي كان يتمتع بها مكسيم . . . وهكذا فقد طوح بميخائيل والقي به أرضا مرضوض الذراع ، واتبعه بكليم سريعا ، بحيث ارتجف جدك ويكوف ورئيس العمال ، ولم يجسروا على الاقتراب منه . . . ولم يفقد مكسيم زمام أعصابه ، بالرغم من غضبه الشديد . . . وهكذا ، فقد توجه الى جدك قائلا : « أرم هذه الأهرامه هناك ! فأنا فتى محب للسلام ، وماأخذته صار لي بئمة من الله ، وليس لاي انسان الحق في ان يسترده مني . وهذا هو كل ماأسالكم ايهاه ! »

« وعاد رجالنا أدراجهم . . . جلس جدك على العريش ، وصاح . « وداعا ، يا فارمارا ! فأنت لست ابنتى بعد الان ، ولست أرغب في رؤيتك مرة اخرى ، وسواء عندي ان أراك حية او ميتة من الجوع! » ورجع الى الدار حيث انهال علي سبابا وضربا ، ولكنني لذت بالصمت ولم اتفوه بكلمة البتة .

« كنت أعرف ان ذلك سيمر سريعا ، وان ما يجب ان يكون سيكون . قال لي : « انظري يا اكولينا ، اياك ان تنسى ان ابنتك قد ذهبت الى الابد — وهكذا لم يعد لك ابنة على الاطلاق ، لا هنا ولا في اي مكان اخر ، اتفهمن؟ » . أما أنا فكنت أفكر في نفسي دونما انقطاع : « استمر في المكذب والمهراء ، ايها الأحمر الرأس ! لا بأس عليك ! ان غضبك الان يغلي ، ولكن ذلك لن يطول . . . فبالغضب كالجليد ، لا تمسه الشمس الا ويذوب ! . . . »

كنت استمع اليها ضيق الانفاس . . كان ، في قصتها امور عديدة تدهشني — فقد روى لي جدي زواج أمي بصورة تختلف كل الاختلاف عن رواية جدتي له . . لقد عارض في الزواج حقا حسب ادعائه ، ولم يسمح لامي ان تدخل منزله بعد ذلك ، ولكن الزواج — كما يقول — لم يكن سريا أبدا ، بل كان هو نفسه حاضرا فيه . وترددت في الاستفسار من جدتي عن الحقيقة لانني فضلت ان استمع الى روايتها التي كانت اكثر خيالا وبهجة . . .

وراحت تتارجح الى الامام والخلف في مقعدها ، وهي تتكلم ، وتبالغ في حركاتها كلما بلغت مقطعا مؤلما او مخيفها من قصتها ، وترفع احدى ذراعيها

فكانها تنقي صفحة من يد خفية . وكثيرا ما كانت تغلق عينها فبرتجف حاجباها الغليظان ، بينما تلعب ابتسامة دافئة فوق غضون وجنتيها . وكنت أحيانا ، اتأثر من تلك الطريقة العمياء التي تسامح بها كل شيء ، ولكنني كنت أتوق ، في أحيان أخرى ، الى ان استمع اليها تصيح بكلمات احتجاج بذينة قاسية .

— حسنا ، لقد بقيت طوال أسبوعين او اكثر أجهل كل شيء عن مكان فاريا ومكسيم ، ومن ثم ارسلنا الي طفلا يخبرني عنه . . . وفي يوم السبت التالي خرجت من الدار وكأنتني في طريقي الى الكنيسة لحضور صلاة الغروب ، ولكنني لم أمض اليها ، بل أسرعت اليها . . . كأننا يعيشان بعيدا جدا في جناح صغير في أحد منازل ناحية سيوتيسكي . وكان يعيش في باحة الدار عدد كبير من العمال . . . كانت الدار قذرة ، لا تنقطع الفوضى فيها أبدا ، ولكنهما لم يابها لذلك ، بل كانا يلعبان ويمرحان مثل طفلين سعيدتين: وقد حملت اليها بعض الهدايا — شبتا من الشاي ، والسكر ، والتمح ، والبريبى ، والطحين ، والفواكه المجففة ، وقليل من المال أيضا — ولست أذكر مقدارها — كل ما استطعت ان أسرق من جدك — ولا جنحة في السرقة ان كانت في سبيل الغير ! ولكن والدك رفض ان يأخذه ، بل قال متأثرا : « وهل نحن سحاذان ؟ » . بينما راحت فاريا تضرب على الوتيرة نفسها: « لماذا حملت كل هذه الاشياء ، يا اماه ؟ » . اعطيتهما كل ذلك ، وقلبت موبخة حائقة : « انتى ام ارسلها الله المبك ، ابها الغنى ! اما انت ، ايتها المحبونة الصغيرة ، فانى امك الحقيقية ، أين كتب ان المرء يستطيع اهانة امه ؟ فاذا ما اهان امه مرة ههنا ، على الارض ، جعل العذراء تبكى هناك في السماء . . . » . وعندئذ حملني مكسيم بين ذراعيه وشرع يدور بي في الغرفة — حتى راح يقفز بي ويركض — فقد كان كالدب قوة ! وراحت فاريا تتبختر في الغرفة منتفخة كالطاووس معجبة بزوجها مزهوة بقوته . . . وطفقت تتحدث في اعتزاز عن « بيتها » ، وكأنها مرببة عجوز . لقد كدت انفجر ضحكا ! أما الفطائر التي قدمتها مع الشاي ؟ ان ذنبا يحطم اسنانه دون ان يستطيع قضمها . . . والجنين البيتى ؟ انه اشبه بالحصى . . .

« وهكذا سارت الامور زما طويلا . . . وكنت انت على وشك ان تطل على الوجود ، ومع ذلك فجدك ما يزال بالصمت معتصما — انه مخلوق شرس ، ذلك المارد العجوز ! ولم انقطع عن زيارتهما ، الامر الذي لم يخف عنه ، وان كان يتظاهر بانه لم يلحظ شيئا . . . وكان اسم فاريا نارا ممنوعا في

الدار ، فلم يأت أحد قط على ذكرها ، حتى ولا أنا أيضا . . . ولكنني كنت أعرف، تماما ان قلب الاب لن يظل قاسيا . . . وسرعان ما جاء الوقت المناسب . . . كان ذلك في أمسية عاصفة ، والريح تجلد النواهد بوحشية وهي تعوي مثل قطيع من الذئاب ، والمدخنة تتأجج ، وجميع شياطين الجحيم قد افلتت من محابسها ، وقد اضطجعت وجدك جنبا الى جنب لا نستطيع الى النوم سبيلا . . . نهضت ، على حين غرة ، وقلت له : « ما أتعب الثغراء في مثل هذه الليالي ! لكن اولئك الذين تثقل الخطيئة وجدانهم لاكثر تعاسة ايضا ! » . فقلت جدك على غير انتظار : « كيف حالهما ؟ » . فقلت : لا بأس بها ، ليست سيئة أبدا ! . . . فسأل : « عمن تظنني أسأل ؟ » . قلت : « عن ابنتنا غارمارا » وصهرنا مكسيم ! . . . فضاح : « وكيف خمنت ذلك ؟ » . قلت : « كف عن هذه المهزلة ، يا ابتاه ! لقد حان ان نترك هذه اللعبة — فهي لا تسعد احدا ! » فصعد زمرة طويلة ، وقال : « آه ، انتم ايها الشياطين ! ايها الشياطين الحمراء النارية ! » . ثم سأل : « وماذا عن ذلك المجنون الفشيم ؟ » — يعني والدك — « لقد اقتربت بأحمق ، اليس كذلك ؟ » . قلت : « احمق ! ان الاحمق هو ذلك الذي لا يشتغل ، بل الذي يعيش على نفقة الاخرين ! هلا القيت نظرة على ولدك ياكوف وميخائيل — لو فعلت رأيت انهما ودهما الاحمقان الجنونا ! من ذا الذي يعمل ويكسب المال لهذه الدار ؟ انت ! وهما ، اتظن انهما يساعدانك حقا ؟ » . وهنا شرع يكيل الشتائم لى ووصفني بالحمقاء ، والبهيمة ، والكلبة ، والشمطاء ، والمخرقة ، والله وحده يدري ماذا ايضا . ولكنني لم أنبس ببنت شفة أبدا ، حتى قال أخرا : « كيف خدمت برجل شاب لا يعرفه احد ، لا يدري انسان من أين جاء ؟ » . ولكنني اعتصمت بالصمت حتى تعب من الحديث ، وعندئذ قلت « يحسن ان تذهب وترى بنفسك كيف يعيشان ، فان حياتهما لظلمة بديعة ! » . فقلت : « ذلك شرف لا يستحقانه . فليأتيا همبا الى هنا ! » . حسنا ، لقد رجعت ابكى فرحا عندما قال ذلك ، بينما طفق هو يحل جدائل شعري — وكان بحب ان يلهو به على الدوام — وهو يتمتم : « حسنا ، كطاك بكاء ، أيتها الأبله المعجوز ! اتظن انني بدون ثلب ؟ » . . . كانت روحه طيبة ، جدك هذا ، قبل ان يملك عليه مشاعره الظن بأنه اذكى من الجبوع واحصف — لقد أصبح منذ ذلك الحين غيبا ابله . . .

« وهكذا قدما لزيارتنا — أمك وأبوك — في يوم الفصح ، أحد التسامح

العظيم .. كانا كبيرين جدا ، نظيفين ، جميلين ! ووقف مكسيم قبالة جدك فلم يبلغ هذا الاخير اكثر من كتفه . قال مكسيم : « لا تظن يا فاسيلي فاسيليفيش ، اني جئت لاطالبك بالمهر . كلا ، أبدا ! بل جئت لاقدم احتراماتي الخالصة لوالد زوجتي فقط » . فسر جدك لذلك ، وضحك ، وقال : آه ، ايها الوغد الكبير ! حسنا ، كفانا هراء ! لقد حان الوقت لتعيشا في دارنا » . فقطب مكسيم حاجبيه ، وقال : « ان ذلك يتعلق بفناريا ، وسأفعل ما ترغب هي فيه ، انه سواء عندي » وعندئذ شرعا في الجدل ثانية - ولم تكن هناك اية قوة تستطيع ان تمنعهما عن ذلك . . . رحلت أشير لوالدك هذا بطرف عيني ، واضرب على قدمه من تحت الطاولة ، ولكنه لم يكف عن النقاش لحظة واحدة ! كانت له عينان ساحرتان ، صافيتان ، مشعتان ، وحاجبان أسودان فوقهما . أحباننا بعقد حاجبيه فوق عينيه ، فترى على وجهه تعبيرا قاسيا ، كالصخر ، وفي مثل هذه الاحوال لم يكن يعبر أذنا صاغية لاحد غيري . كنت احبه كثيرا ، احبه اكثر من اولادي ، وهو يعرف ذلك ، فيرد الى العاطفة بنفسها . وقد اعتاد ان يحتضني ، او يحملني بين ذراعيه ، ويدور بي في الغرفة قائلا : « انت الام الوحيدة التي لى ، مثل امنا الارض . وانا احبك اكثر مما احب فناريا ! » . وكانت امك في ماضي الزمان الغابر ، شيطانة خبيثة ، صغيرة جميلة ، وكانت ترمى عليه وتصبح : « كيف تتجاسر وتقول هذا ، يا . . . يا صاحب الاذنين الشبيهتين بالملفوف ؟ » . ثم نركض ثلاثنا بعضنا في اثر البعض ، في ارجاء الغرفة . . ونمضى وقتا طيبا جبلا ! . . كانت تلك اياما سعيدة ، يا صغرى ! وكان يرقص كما لا يستطيع انسان ان يرقص ويجيد عددا من الاغاني الحلوة التي تعلمها من العميان الذين ستعطون .

« اجل ، لقد انتقلا الى الشقة المطلة على الحديقة الكبيرة ، وهناك ولدت أنت - عند الظهيرة . . . لقد رجع والدك ليتناول غداءه ، واذ أنت هنا في هذا المعام ! لقد كاد يجن سعادة وهناء ! اما والدتك - فقد كاد ان يقتلها بمداعباته فكان مجيء طفيل الى العالم اصعب ما في الوجود على الاطلاق . ولقد حملني على كتفه ، ومضى بسى عبر الساحة لانبيء جدك بولادة حفيد آخر له . . . وقد غرق جدك في الضحك . »

« وانغض خالك مكسيم كثيرا - كان لا يقرب الخمرة ابدا ، حاد اللسان ذكيا ، ماهرا في استنباط جميع انواع الحبل والالاعيب ، تلك الحيل التي كلفته غالبا فيما بعد ! وذات مرة ، خلال فترة الصوم الكبير ، هبت

ريح صرصر عاصفة ، وانطلق فجأة صغير رهيب ونباح شديد في المنزل ، حتى ذعر الجميع وفقدوا صوابهم ... وأسرع جدك يعدو في الدار مهرولا يحاول اضاءة مصابيح الايقونات ، ثم جثا يصلي .. وفجأة ، سكن كل شيء ، الامر الذي كان اكثر رهبة وهولا ... وقد خمن خالك ياكوف الحقيقة ، فقال : « هذا من صنع مكسيم ! » . وكانت تلك الحقيقة بعينها ، فقد اخبرنا مكسيم فيما بعد كيف صف مجموعة من زجاجات مختلفة الانواع والاحجام على نافذة الطابق العلوي ، بحيث راحت الريح تصرصر في داخلها . وهدده جدك قائلا : يحسن ان تأخذ حذرك ، يا مكسيم ! والا رجعت الى سيبيريا اذا لم تكف عن الاعيبك هذه . »

« وهجم علينا شتاء بارد قارس ، اتت معه الينا الذئباب من السهول المجاورة ! فهذا كلب يفقد اليوم ، وهذا حصان يعدو خائفا مذعورا ، وهذا حارس ثمل في يوم ثان قد نالته الذئباب بالعض حتى أشرف على الهلاك . وكان أبوك يتناول بندقيته ، ويملأها خرطوشا ، ثم يخرج في ظلمة الليل كي يعود بذئب أو ذئبين ، فيسلخهما ، ويضع زجاجا في محاجرهما حتى ليخال لك انهما ذئبان حقيقيان ... وفي ذات ليلة ، خرج خالك ميخائيل الى الشرفة اقضاء حاجة ما ، فاذا به يعود ادراجه عدوا على حين غفلة ، وقد جحظت عيناه ، ووقف شعر رأسه ، وتدلى لسانه حتى أصبح عاجزا عن اصدار اي صوت . كان سرواله الذي فكنت ازراه متدليا فوق قدميه وهو يتعثر به ويغمغم : « الذئب ، الذئب ! »

« وهروا كل من الحاضرين يتناول اي سلاح يقع تحت يده ، وخرجوا مسرعين الى الرواق ، كان هناك ذئب يمد رأسه من تحت درجات السلم . انهالوا عليه ضربا وأطلقوا النار ، ولكنه ظل ثابتا في مكانه لا يتحرك ... وتقدموا منه كي يجدوا انه حيوان فارغ بستره جلد ذئب قد صنعت اطرافه في درجات السلم . وقد ثار جدك عندئذ ولم يعد يعي ما يقول . وسرعان ما طمأنق ياكوف يشارك أبك حيله ، فكان مكسيم يقص صورة رأس من الورق المقوى ويرسم فيها عينين وأنفا وفما ويلصق فيها بعض خيوط الكتان بدلا من الشعر . ومن ثم كان يذهب وياكوف عبر الشوارع بلوح بلعبته امام نوافذ المنازل المجاورة . وكان الجيران يذعرون وتعلوا اصواتهم بالصياح والمويل ...

« وفي احضان اخرى ، كانا يلتفتان بالشرائف البيض ويتنزهان في الساحة الكبيرة .

« وفي يوم من الايام التقينا الرعب في قلب الكاهن الذي هرول الى الحارس يطلب النجدة منه ، غير أن الحارس ذعر بدوره ، ولم يعد يعي كيف يصفر بصفارتة الضخمة طالبا النجدة . وهكذا كانا لا ينتطعمان عن الاعيبيهما هذه قط ، دون ان ينفع فيهما نصيح ولا تأنيب . وقد اشرت عليهما مرارا ان يكما عن هذا السلوك ، وكذلك فعلت فاريا ، ولكنهما لم يعيرا اقوالنا اذنا صاغبه . . . كان مكسيم يسخر بنا ويقول : « انه لن المضحك جدا ان يتطلع المرء الى الناس وقد فقدوا صوابهم وولوا الادباء راكضين لسبب تافسه سخيف ! » ولم يكن هناك من سبيل الى تبديل رايه وجعله يكف عن صيانيات كهذه . . .

« ولكن بسوء سلوكه هذا كاد ان يقضى عليه . لقد كان الخال ميخائيل وضيع النفس حقيرا حقودا مثل ابيه تماما . . . وهكذا جعل جل عمله الخلاص من ابيك . .

« وفي يوم من ايام الشتاء ، في اوائله بالضبط ، بينما كانوا راجعين من بعض الزيارات — وكانوا اربعة : مكسيم وخاليك ، والشماس الذي خسر وظيفته فيما بعد لانه ضرب سائق احدى العربات حتى الموت — وفيما يهبطون شارع يامسكايا ، اثنعوا والدك بمرافقتهم الى بحيرة دوكوف مدعين انهم يريدون ان يتزحلقوا هناك ، ولكنهم عندما بلغوا البحيرة القوا به من خلال حفرة في الجليد — اعتقد اني تصصت عليك ذلك فيما مضى ! . . »

— ما الذي يجعل خالي شربرين هكذا ؟

فاجابت جدتي وهي تتناول شمة من السعوط ، وفي صوتها بحة :

— انهما لبسا بشربرين ، بل هما ابلهان . . ان ميشكا خبيث ولكنه احمق في نفس الوقت ، أما باكوف فلا يزيد عن كونه انسانا بسيطا ابله ، بكل ما في الكلمة من معنى . . . حسنا ، لقد دفعا به الى الحفرة ، ولكنه عندما طفا على سطح الماء من جديد ، وتعلق بحافة الجليد ، اخذا بدوسان على اصابعه بأحذيتيها ، ومن حسن الحظ انه كان صاحبا وهما ثملان . . فدر الامر بطريقة ما ، كي يبقى في وسط الحفرة ، لا بظهر راسه الا لتنفس ، وهما يرمانه بالجلد دون ان يصيباه ، حتى تركاه اخرا واتعدا ، وهما سخلان انه سيفرق من دون مساعدتهما ، بيد انه نحج في الخروج من الماء، وركض مباشرة الى مركز الشرطة الذي يقوم في الزاوية ، كما تعلم . . .

وكان رئيس الشرطة يعرفه كما يعرف سائر افراد العائلة ، فساله عما حل به ..

ورسمت جدتي اشارة الصليب على وجهها ، وهمست بامتنان وشكر :

خليهب الله السلام لروحه ... ارح يا رب نفس مكسيم سافاتييفيتش مع قديسيك فهو يساهل ذلك ! انه لم يخبر الشرطة بشيء مما حدث ، قال: « ان الذنب ذنبي ، فقد ذهبت ثملا الى البحيرة وسقطت من خلال الحفرة » . ولكن رئيس المركز لم يصدقه لانه ، باعتقاده ، كما يعلم ، لا يسكر أبدا ... وفركوا جسمه بالفودكا ، في المخفر ، والبسوه ثيابا جافة ، ودثروه بمعطف من اللّرو وجاؤوا به الى الدار ، رئيس المركز وشرطيان اخران . ولم يكن ياكوف وميخائيل قد رجعا الى الدار بعد ، كانا يتنقلان من حانة الى حانة طوال الوقت ... ولم نتمكن ، امك وانا ، ان نعرف مكسيم الا بصعوبة ..

« كان أزرق اللون ، محطم الاصابع ، والدم يسيل منها ، وقد ظهر على فؤديه شيء يشبه الثلج وان لم يذب فيما بعد . كان شعره قد شاب وامسى ابيض اللون ... وشرعت فارفارا تصيح :

« — ما الذي فعلاه بك ، يا مكسيم ؟ .. »

« واخذ رئيس المركز بطرح عليه الاسئلة دون انقطاع ، فأحس في صميم قلبي ان الامور لا تسير على ما ترام . وتركت امر رئيس المخفر لارفارارا ، بينما رحلت احاول ان استخلص الحقيقة من مكسيم ، الذي همس : « اذهبي وابحثي عن ميخائيل وياكوف واخبريهما ان يقولوا اننا خرجنا معا من شارع بامسكايا ، فذهبا هما من طريق بوكروفكا ، بينما سلكت انا درب بريادبلني واخبريهما بحذر من ان يجعلوا الامر يلتبس عليهما ، والا وقعنا في متاعب مع رجال الشرطة » .

« فذهبت الى جدك ، وجعلته يهتم برئيس المركز بينما انتظر انا عند البوابة » . ورويت له الحادث كما وقع تماما ... ارتدى ثيابه ، وهو يرتجف رعا ، ويغمغم : « كنت اعرف ان مثل هذا الامر سيحدث » . ولكنها كذبة ظاهرة ، فهو لم يكن يدري شيئا .

« أما ياكوف فكان شديد السكر ، وقد سرع يتمتم : « انسى لا اعرف شيئا . انه ميشكا الذي يكبرني سنا ! انا لا اعرف شيئا » . واستطعنا

أخيرا ان نهديء من نائرة رئيس المركز الذي كان رجلا شجاعا في الحقيقة ،
توجه اليينا محذرا وهو يغادرنا : « احذروا جيدا ، فان حدث شيء ما فانسى
اعرف على من سأضع اللوم بعد الان ! »

« وعندئذ انجه جدك الى مكسيم ، وقال له : « شكرا لك ، يا بني .
أي انسان آخر يتصرف بطريقة اخرى . اني اعرف ذلك حق المعرفة . وشكرا
لك ، يا بنييتي . لآنك جئت مع هذا الرجل الى داري ! » .

« ان جدك يستطيع عندما يشاء ان يقول اشياء حلوة كهذه — وهو لم
يعد أحمق ولم يعلق قلبه الا مؤخرا فقط . وعندما انفردنا نحن الثلاثة شرع
مكسيم ينتحب ، بل بهذي فيها يبدو قائلا :

« — كيف يصنعان بي مثل هذه الامور ؟ .. ماذا فعلت لهما ؟ لماذا
يفعلان ذلك ، يا امهاه ؟

« فكانه طفل صغير ، والحقيقة ان بعضا من ذكريانه وطفولته كان
متأصلا في طبيعته ...

« وعاد يسأل : « لماذا ؟ » وكان كل ما استطعت ان افعله هو الجلوس
الى جانبه والمويل معه . . . لقد كانا ولدي بالرغم من كل شيء ، فلا امكن
الا ان ارثي لهما . . . اما أمك فقد انتزعت كل الازرار من قميصها وجلست
هناك مشعثة الشعر ، فكانها قد خرجت من قتال حامي الوطيس ، تلطم
خديها وراحت تصيح : « فلنذهب ، يا مكسيم ! ان أخوي عدوان لنا ، وأنا
أخاف منهما ، فلنهرب ! » . ولم اهتمل منها مثل هذه الأقوال . قلت : « لا
ترمي زيتا على النار ! ينكهي ما يملأ الدار من الدخان ! » . وهنا ارسل جدك
هذين المجنونين كي يطلبوا الصفح والغفران ، ولكنها لطمت ميشكا على وجهه ،
وقالت : « اليك الغفران الذي تستحقه ! » . أما أبوك فلم يفتأ يسأل :
« كيف يمكن ان ترتكبا مثل هذا العمل ؟ كان يمكن ان تقعاني عن العمل دوما!
وماذا يستطيع ان افعل دون اصابعي ؟ » . . . واخيرا تم الصلح بطريقة ما ،
وظل أبوك بعد ذلك طوال سبعة أسابيع تقريبا مريضا ملتزما الفراش ، يردد
دون انقطاع وهو قابع في فراشه : « فلنذهب الى مدينة اخرى ، يا ماما !
اني اكاد ان أختنق ههنا ! » . وسرعان ما ارسل بعد ذلك الى استراخان حيث
طلب الى أبيك ان يبني قوس النصر . وأبحر على ظهر أول مركب بخاري مر
بنا في الربيع . وكان الفراق محزنا جدا بالنسبة الي ، مثل فراق الروح ،

وكذلك كان أبوك كئيبا يحاول ان يقنعني بمراغبتهم دون جدوى . . . اما
نارغارا فكانت سعادتها تتجاوز كل حدود وهي لا تحاول اخفاءها ابدا . . .
يا لها من امرأة قليلة الحياء . . . وهكذا كان . . . » .

وارتشفت جرعة من الفودكا انبعثها بقليل من السعوط ، ثم قالت
وهي تشخص من النافذة الى الفضاء الواسع :

— بابى ! لم نكن ، والدك وأنا ، تربيين بالدم . . ولكن قراسة الروح
كانت نجمعنا بل كانت متأصلة فينا منذ نعومة الاظفار . . .

وكان جدي يدخل الى الغرفة، على غير انتظار غالب الاحبان، ويفاجئها
اثناء الحديث ، فلا يلبث ان يرمع وجهه ويستنشق الهواء ، ويرنو برتبة الى
جدتي ، ويصغي لحظة ويتمتم :

— الكذبي ، الكذبي ! . . .

وكان يسألني ، احيانا ، فجأة :

— لقد كانت تحتسي الخمرة هنا ، يا الكسي ؟

— كلا !

— أنت تكذب ! اني ارى ذلك من عينيك !

ويغادر الغرفة مشككا مرتابا . . . فتغمر جدتي بنظرة حادة قامته
المتعدة ، وتردد بهمس :

— امض مع السلامة ، ولا تخفنا !

وفي ذات يوم ، انتصب في وسط الغرفة ، وقد ثبت عينيه في الارض ،
وقال بتؤدة وتردد :

— ماما ! . . .

— ماذا ؟

— اتعرفين كيف تسير الامور ؟

— اجل اعرف .

— وماذا نزلنسين ؟

— انه القضاء ، يا أبناه ! الا نذكر ما اعتدت ان تقول عن ذلك الانسان
الكامل الرائع ؟

— اه .. ه .. آه !

— حسنا ، يبدو انك على حق .

— ولكنه صعلوك .

— ذلك يعنيتها وحدها .

ويخرج جدي ، فسألت وفد أحسست بمصيبة عاتية :

— عم تتكلمان ؟

فناقمفت وراحت تهز برأسها ثم قالت :

— انك تريد ان تعرف كل شيء ، اليس كذلك ؟ فاذا احطت بكل شيء

انت صغير ، ماذا يبقى كي تعرفه عندما تكبر ؟

ضحكت .. وهزت رأسها ...

— آه ، ايها الجد ، ايها الجد ! انما أنت ذرة من الغبار تافهة ! لا تقل

شيئاما يا الكسي ! ولكن الحقيقة ان جدك قد فقد كل شيء — حتى اخر غطس

يملكه . لقد استدان منه أحد النبلاء مبلغا كبيرا من المال يزيد على الالاف ،

ثم غدر الدهر بذلك النبيل فأفلس ...

وغرقت في تفكير عميق ، معتصمة بالصمت مدة طويلة ، بينما علت

كأبة قاتمة الابتسامة المشرقة المرتسمة على وجهها ... سألتها :

— فيم تهديسين ؟

فأجابت ، وهي تشد راحتيها :

— أفكر فيما أقص عليك . حسنا ، ما رايك في قصة يفزتيجينا ؟

هاك هي :

« في ذلك الزمان كان بعبش بفرتبجنا السماس ، وكان يعتقد انه أكبر اشيعا من منارة البحر ، واكثر بوقد فكر حسي من الكاهن او التيصر واشد ادراكا . . وأما من ناحية التجار — فلانسل عن تجاوزه لهم في الذكاء وقوة الاراده . . . كان يتمخطر كالتاوس ، وعيناه جاحظتان مثل بوم عجوز . . . وكان يعلم الجيران ، من الصباح الباكر حتى حلول الظلام . . ولا يجد شبنا في الوجود صالحا ابدا !

— اذا تطلع الى برج ما . . . فهو كثير الانخفاض !

وإذا ركب عربة . . . فهي شديدة الإبطاء !

وإذا أكل بفاحة . . . غنى فجة غير لذيدة !

وإذا جلدت في اشعة الشمس . . . فهي كثيرة الحرارة ! . .

واتسعت عينا جدي في محجريهما . وانفخ خداهما . فلانخذ وجهها اللطيف طلعة من الغباء مضحكة ، بينما راحت تتشقق قائلة :

— . . . وهو يقول دوما : « كنت أستطيع ان اصنع هذا . لو أردت . بطريقة أفضل بما لا يقاس . . . ولكني ، كما تعلمون ، لا أستطيع ان اضيع وقتي جدا بدون فائدة . » . .

وتوقفت لحظة عن الكلام ، ثم استطرقت في صوت منخفض :

— وذات ليلة زارته بعض الشياطين ، لعقول له : « انت نسرى ان الاشياء هنا كلها فاسدة ! فما رأيك لو أضفتنا في الجحيم — فالنيران هناك تحترق بلهب غريب ! » . ولم يكذ الشمس يلبس طاقية حتى ركب انان من الشياطين ، بينما أمسك به اخرون بمخالبهم ، وراحوا يقرصونه ويدغدغونه بأظافرهم : ويدفعون به في اللهب المتأجج قائلين : « حسنا ، يا يفرتيجنا ، انت مسرور من الجيء الينا ؟ . . . » . وشرع يدور عينيه وهو يحترق أمارات الحكمة ظلت بادية على وجهه ، بينما انقلبت شفته بازراء ، وهو يقول : « ان نيران جهنم تثير كثيرا من الدخان ! » . . .

وختمت قصتها بشهقة طويلة ، ثم ضحكت ، واستدارت نحوي وقد تبدلت تعابير محياها :

— انه لم يسلم ذلك الاخرى ، فقد كانت له صفات غير طبيعيه ، مثله
مثل حدك تماما ! اجل ! . لقد حان وقت النوم الان . . .

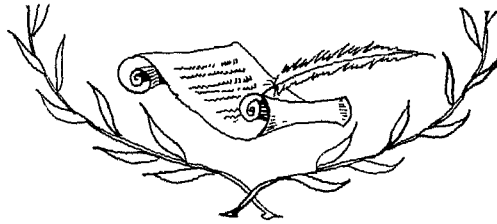
وبادرا ما كانت تاتي اُمي لرؤيتي في الطابق العلوي ، نادا فاعلمت فلكي
تنفوه ببعض كلمات مضطربه متلاحفة ، ثم بعجل بالرحيل دون تأخير . . .
كانت بزاد بهاء وتزبد من عنايتها بلباسها . . . وكنت أجدها محاطه
بالمفموض مثل جدتي تماما . هذا المفموض الذي كنت احذره واشعر به . . .
وبنائص اهتمامي بالاتفاصيص التي نسردها علي جدتي — لا بل ان الاتفاصيص
عن والدي أيضا لم نسنطع ان نشمت ذلك الذعر المبهم الذي طفق ينبو كل
يوم في تفكري ويزداد شدة . سألت جدتي :

— ما الذي يقلق روح والدي ويزعجها ؟

فأجابت ، وقد رفعت يدها على عينيها :

كيف لي ان اعرف ؟ هذا من شان الله ، وليس لنا ان نفهمه نحن
الذين على هذه المغاية ! . .

وفي اللبالي التي كنت أحسها طويله ، حين اضطجع عاجزا عن الرقاد .
أروح أراقب نقدم موكب النجوم البطيء في السماء الزرقاء الضاربة الى
السواد ، كنت ابتكر قصصها كئيبة أجعل من والدي بطالا لها . . . وكان والدي
فيها وحيدا على الدوام ، يحمل هراوة في يده ، بينما بتراكض في اثره كلب
صغير ذو وبر طويل مشعث .



لفتت ذات مساء بعد غفوة قصيرة فشعرت ان ساقي قد انماقتما بدورهما . . . الثيت بهما عن حافة السرير ، فاذا هما تعودان الى خدرهما وجهه ودهما مرة اخرى . ولكن الثقة بان ساقي سالمتان وانني ساستطيع السير عليهما من جديد ، قد ولدت في نفسي قوة غير عادية حتى لفني فرح شديد ودفعني الى النداء عاليا . . . وضعت قدمي على الارض وشدت عليهما بكل قوتي ، ولكنني تعثرت وسقطت ، فرحت اجر نفسي جرا حتى بلغت الباب ، ومن هناك هبطت السلم زحفا ، وانا اتصور المفاجأة التي ستعرو الجميع حين يبصرون بي . . .

ولست اعرف كيف وجدت نفسي في حجر جدتي في غرفة والدتي، ولكنني كنت هناك وقد احاط بي اناس غرباء في عدادهم امرأة مسنة ، نحيلة القوام ، مخضرة اللون . . . قالت هذه المرأة بصوت مهيب ، أغرق في لجته سائر الاصوات الاخرى :

.. اعطيه شيئا من مربى التوت في الشاي ، ولفيه جيدا بالاحرمة ، من راسه حتى اخمص قدميه . . .

كان كل شيء فيها أخضر اللون — ثوبها ، وقبعتها ، ووجهها ، وتلك الدملة النامية تحت عينها اليسرى ، لابل ان الشعيرات القليلة التي نبتت منها كانت تشبه العشب الاخضر كل الشبه . . . أرخت ثفتها السفلى ، ورفعت الشفة العليا ، وشخصت الي ولاح لي ان اسنانها خضراء ايضا ، وقد ظالت عينيها بيد اختفت في قفاز أسود ، فسألت متلجلجا مرتبكا :

— من هي هذه الخضرة ؟

فأجاب جدي في صموت مقيت :

— سوف تكون جدة اخرى لك !

صحكت امي ، ودفعت يفجيني مكسيموف الى جانبي وهي تقول :

— وهذا أب لك !

واضافت بضع كلمات سريعة غامضة ، بينما ضيق مكسيموف عينيه ،
وانحنى ليقول :

— سأهديك شيئاً من الدهان للرسم .

كان النور قويا في الغرفة ، وعلى طاولة تقوم في احدى الزوايا ينصب
نسمعدان فضي تحترق فيه خمس شمعات ، استقرت بينها ايقونة جدي
المفضلة : « لا تبكي ، يا ماما ! » ، وكانت اللاليء التي تزين ثوب العذراء في
طياته ومضات من النار تطلقها احجار الياقوت الاحمر المصفوفة باعتناء وسط
التاج الذهبي الذي يغطي رأس العذراء . وكانت وجوه مدورة تطل من خلال
النوافذ السوداء ، وأنوف مسطحة تضغط على الزجاج بصورة غريبة ، وشرع
كل ما يحيط بي يسبح ويموج ، بينما انحنى المرأة الخضراء فوقتي كي تجس
ما وراء أذني بأصابعها الباردة ، وهي تدمدم :

— على اية حال ، فهو لن ...

وقالت جدتي :

— لقد غفا ...

ومن ثم حملتني واتجهت بي الى الباب ...

والحقيقة اني لم اغف ، بل اغضت عيني بكل بساطة ...

قلت لها ، وهي تصعد بي السلم :

— لم لم تخبريني ؟

— لا تتكلم الان ، اتسمع؟ لا تقل شيئاً .

— خداعون جميعكم! ..

عندما انسجعتني في سربري . دفنت راسها تحت الوساده ، وعرقت في بحر من الدموع . بينما طفق جسدها يرتجف ويتارجح بفعل نسيجها ، وهي لا تفنأ بقول لسي :

— لماذا لا تبكي ؟ ابك قليلا !

ولكن لم تكن بي رعبا في البكاء .. كان الطابق العلوي باردا مظلما . والفراش يهز ويضطرب لسدده ارسعاش ، وبلك المرآة الخضراء تابهى ان نختفي من امام ناظري . وبطاهرت بالنوم ، فركنتني جدتي وحيدا ..

مرت الايام القليلة، التالية على ببط واحد . رتيبة مضجرة .. أما والدني فقد رحلت عنا بعد ان اعلنت خطبتها . فطوق المنزل جو من المسكون المرهق الثقيل الموطاة .

وفي صباح يوم من الايام ، جاء جدي حاملا ازبيلا في يده ، وراح يقتلع . المغجون من حول النافذة ، ومن ثم تبعته جدتي وهي تحمل حوضا من الماء ، وبعض الاسمال البالية .. . سأل في صوت خفيض :

— أجل ، ايه ، ايتها المعجوز !

— ماذا ؟

— أنت مسرورة ؟

فأجابته مثلما اجابتنني على السلم :

— لا تتكلم الان ، اتسمع ؟ لا تقل شيئا .

كان لهذه الكلمات مغزى خاص — انها تخفي شيئا غريبا بغيضا يعرفه الجميع ، ولكنهم يرفضون البوح به .. ورفع جدي ، بعناية فائقة ، النافذة الداخلية وذهب بها أما جدتي ففتحت النافذة الاخرى على مصراعيها . امتلأت الغرفة برائحة مسكرة تتصاعد من التربة التي ذاب الجليد عنها حديثا ، وشحب لون قرميد الموقد الازرق ارتعشت اوصالي عندما تطلعت

الى هذا القرميد ، ننازلقت من فراشي حتى الارض ، لكن جدني حذرتني
بتولسا :

— اياك والسبر حافى القدمين !

— سأذهب الى الحديقة .

— انتظر حتى نزول الرطوبة .

لم أرغب في اطاعتها .. ان رؤية الكار قد غدت نكدرنى الان ...

كانت خصيلات شاحبة من العشب تنمو تشق طريقها من باطن التربة،
وبراعم الزهر تزهر في اغصان الاشجار ، والعشب الاخضر الجميل بفرش
سطح منزل بتروفنا ، والعصافير تملأ كل فسحة ، والرائحة الذكية المنطلقة
في جو تملؤه اصداء خافتة عذبة تسكرني وتبعث في اوصالى نشوة لذيدة ...
وكان حشيش بني اللون ، يحيطه الملح من كل جانب ، يزرکش أرض الحفرة
التي ذبح العم بيوتر نفسه فيها . ان النظر الى تلك الحشائش مزعج مؤلم
— فلا هي ، ولا تلك الكتل الخشبية المحترقة كأنها ترنو الى في اسى واكتئاب،
لتنسجم مع الربيع الوليد المزدهر ... لا بل ان الحفرة بأسرها ، كانت زائدة
في ذلك المكان ، عديمة النفع ، مزعجة نرهق الاعصاب .. واخذتني ، على
حين غرة ، رغبة هائجة في ان اقتلع تلك الحشائش ، والقي بها بعيدا
وانظف تلك البقعة من الحديقة من كل ما يدنسها ، ثم ابني لنفسى هناك زاوية
هادئة نظيفة استطيع ان اقضى فيها فصل الصيف وحيدا ، بعيدا عن سائر
من يدعون انهم كبار ... وسرعان ما شرعت في تحقيق هذه الرغبة ، الامر
الذي ساعدنى على نسيان تلك الحوادث التي جرت في دارنا .. وطبعمى ان
حب الاذى لم يبارحنى بعد ، لكن حدته كانت تخف يوما بعد يوم .

كانت جدتي وأمي تسألانني باستمرار :

ب ما بالك تبدو عابسا على غير عاداتك ؟

هذا السؤال بزعجني ويضايقنى — فانا لست نائما عليهما .. كل
ما في الامر ان كل ما يتعلق بالبيت قد أصبح غريبا على ، وكثيرا ما كانت
تلك المرأة الخضراء تنضم النسا على الغداء ، او الشاي ، او العشاء ،
فتجلس هناك أشبه بقعة عفنة من سور عتبق ، وقد الصقت عيناها الى

وجهها بخيوط غير منظورة ، فهما تتدحرجان بسهولة في محجريهما العظيمين العميقين تتطلعان الى كل شيء ، وتتفحصان كل شيء ، ترتفعان الى السقف ، عندما تتحدث عن الله ، وتهبطان الى جوف الارض عندما تتحدث عن الامور الارضية . وكان يبدو ان حاجبيها مصنوعان من خيوط دقيقة خيطت هناك ، فوق عينيها بطريقة عجيبة ، واسنانها العارضة العريضة تلتهم كل شيء يدخل الى فمها دون ادنى صوت على الاطلاق . كانت تمسك بشوكة الطعام بطريقة مضحكة ، وقد برز اصبعها الصغير جانبا بصورة تبعث على السخرية ، فاذا اكلت تحركت اذناها بدورها عندئذ ، بينما شعرات دملتها الخضراء تهتز وتتأرجح أيضا وهي تزحف كالديدان على جلدتها الذي تبعث نظافته على الثفور والاشمزاز . . . كانت ، هي وابنها ، نظيفين للغاية حتى لا يجسر انسان على الاقتراب منها . . . ولقد حاولت ، عدة مرات ، خلال الايام الاولى من تعارفنا ، ان تحملني على تقبيل يدها الميتة ، التي تافح منها رائحة الصابون والبخور ، لكنني كنت اولي الادبار . . . كانت لا تفتأ نقول لابنها :

— ان هذا الصبي يحتاج ، بكل تأكيد ، الى تربية حقيقية لمدة طويلة . . . اتفهم با يفجيني ؟

فلا بفعل يفجيني الا الاطراق براسه خضوعا ، وقد قطب وجهه ، دون ان يقول شيئا . . . وفي الحقيقة ، كان الجميع يقطبون وجوههم في حضور تلك المرأة الخضراء . . . ابغضت تلك المعجوز — وكذلك ولدها — بغضا شديدا مركزا كلفني كثيرا من الجلد . . . وفي ظهر احد الايام ، بينما نحن نتناول طعام الغداء ، راحت تحملق بعينيها في وهي تقول :

— يا عزيزي الكسي ، لماذا تأكل بمثل هذه السرعة ؟ ولماذا تبالغ في تكبير حجم اللقمة هكذا ؟ لسوف تختنق ، يا حبيبي !

فأخرجت اللقمة من فمي ، وغرزت شوكتي فيها ، ومددت يدي بها اليها
تائلا :

— هاكها ، خذها اذا كنت متأسفة عليها :

فانتزعني أمي عن الطاولة انتزاعا ، ونفنتني الى الطابق العلوي .
ولحقت بي جدي بعد ذلك ، وانفجرت ضاحكة وهي تشد على فمها باحدى

يحبها وتمد الثانية مؤنبة :

— يا الهي ، يا الهي ! يا لك من شيطان صغير !

لم ترق لي طريقها فيوضع يدها على فيها ، فأفلتت منها ، وتسلمت
سطح المنزل ، وجلست هناك خلف المدخنة . . . بلى ، ان بي رغبة لا تقاوم
في اهانتهم جميعا ، بصعب علي جدا ان اقاومها . ولكنني كنت مكرها على
ذلك . . ففى ذات يوم ، طلبت مقعدي زوج امي وجدتي الجديدة بالفراء
القاسي ، فالتصق كل منهما بمقعده بطريقة تبعث على الضحك ، ولكن امي
لحقت بي الى الطابق العلوي ، بعدما جلدني جدي ، وجرتني اليها ، وامكت
بي بقوة بين ركبتيها ، وقالت :

— لو كنت تعرف كم تحز شيطانك في نفسي !

وقاضت عنهاها بدموع ملتمة ، وقد ضمت رأسي الى خدها الناعم . .
لو انها جلدتنى ، لكان ذلك اخف وطأة علي ! أقسمت الا اضايق آل مكسيموف
ابدا بعدئذ ، بشرط ان تكف عن البكاء فقط . كنت اكره امي باكية . قالت
بلطف :

— حسنا ، يجب الا تكون خبيثا ! سوف نتزوج عن قريب ، ثم نذهب
في رحلة قصيرة الى موسكو ، وعندما نعود ستعيش معى . . . ان يفجيني
رجل حنون لطيف ، وأنا اعرف انك ستسر بصحبته . . . سيرسلك الى
المدرسة ، وعندها تصبح طالبا مثله الان ، وبعد ذلك ستسمى طببا او اي
شيء اخر تحب . . . ان الرجل المثقف يستطيع ان يفعل ما يريد . . حسنا ،
اخرج الان . . .

وكان بدو لى ان عباراتها التي تكررهما دون انقطاع ، هي سلم منحدر
يقودني بعيدا عنها الى الاسفل ، الى الظلمة والوحدة والانعزال وهذا السلم
لم يكن ليعت الغبطة في نفسى طبعاً ، فأتمنى ان أقول لأمي :

— لا تتزوجي . . سأجعلك تعيشين متراف ، انا وحدي . . .

ولكننى لم اقل ذلك . . كانت امي تشعرنى ، على الدوام ، بعواطف
رقنقة ، ولكنى لم اجد قط الشجاعة الكافية للتعبير عنها . . .

كان عملي في الحديقة يتطور من نجاح الى آخر .. فقد نبشت الحشيش واقتلعتة ، ومهدت الاطراف المنحرفة للحفر بقطع من القرميد وصنعت نسي مكان اخر مقعدا مريحا عريضا استطيع ان اضطجع فيه على هوائي ، وجمعت قطعاً من الزجاج الملون والصحون المكسورة وصففتها في الطين بين القرميد ، فكانت تبرق مثل الايقونات في الكنية كلما اشرقت الشمس عليها .

قال جدي ذات يوم ، وهو يتفحص عملي :

— رائع منك ان تفعل ذلك ! لكن الحشيش سينمو ثانية ويحتاج كل شيء — فقد ابقيت جذوره في جوف الارض . هيا ، اتنى بالمعول وسأبدي لك هذا العشب اللعين .

وعندما جثته بالمعول بصق في يديه ثم ضرب المعول بعمق في الارض
قائلاً :

— ارم الجذور بعيداً ، وسأوزع لك الزهور بمعرفتي وسيكون ذلك رائعا حقاً ، رائعا جداً ...
وفجأة انحني على المعول دون حراك ، وظل فترة دون ان ينبس بحرف واحد ... اقتربت منه ، فرأيت بعض الدموع تنهمر من عينيه الصغيرتين كعيني كلب صغير .. سألته :

— ما بالك ؟

فارتجف ، ومسح وجهه بيده ، وقال :

— ان العرق يبيلني .. انظر فقط الى هذا الدود ما اكثره ! وشرع ، مرة ثانية ، بنبش الارض ، ثم قال فجأة :

— كل هذا العمل عبث ! فانا سأبيع البيت لاول مشتري ، في الخريف على الارجح ... اني في حاجة الى المال مهرا لامك كي تعيش ، على الاقل ، بصورة لائقة ..

ورمي بالمعول ثم مضى الى زاوية من الحديقة خلف الحمام حيث كان يحتفظ ببعض ادواته ... فرحبت أنبش الارض ، وما اسرع ما قطعت اصبعاً من اصابعي بحد المعول .. ومنعتني هذه الاصابة عن حضور عرس أمي ، فلم أستطع اكثر من مرافقتها حتى البوابة ، ومن هناك رحلت اراقبها وهى

تعبر الشارع مع مكسيوف الذي تثبت بذراعها . كان رأسها مطرقا ،
وقدمها تتحسس طريقها بعناية بين العشب الطري وكأنها تسير على
مسامير مدببة ...

العرس كان هادئا .. تناولنا الشاي بعد الاحتفال بصمت ، دون أية
بهجة أو أقل سرور ... ومن ثم أسرع أمي الى غرفة نومها ، وشرعت في
حزم متاعها ، بينما جلس زوجها الى جانبي وقال :

— لقد وعدت ان أهديك شيئا من الدهان ، ولكن الانواع التي توجد
منه هنا رديئة . وأنا لا أقدر ان أمنحك دهاناتي الشخصية . سوف ارسل لك
هديتي من موسكو ...

— وماذا أفعل بها ؟

— الا تحب الرسم ؟

— أنا لا أعرف كيف أرسم !

— اذن سأرسل لك شيئا اخر .

ودخلت أمي ... لتقول :

— سنعود سريعا ... بعد انتهاء والدك من امتحانه ودراساته سنكر
راجعين ..

كان يطربني ان يتحدثنا الى وكأنني واحد من الكبار ، ولكني استغربت
ان يكون رجل ملتح في طور الدراسة بعد . سألت :

— ماذا تتعلم ؟

— تخطيط الاراضي .

لم أسأل معنى ذلك مع انني لم اكن ادري ماذا معنى .. كان البيت
محاطا بسكون خائق ، فكانت أتلهف لحيء الليل .. ووقف جدي مستندا
بظهره الى الموقد ، ينظر من النافذة بعينين نصف مغلقتين . والمرأة الخضراء
تساعد أمي في حزم المتاع ، وهي تتشهد وتندم طول الوقت . أما جدتي ،

التي كانت ثملة منذ الظهر ، فقد أقتل عليها في الطابق العلوي كيلا تشين
العائلة بما لا طائل تحته . . .

تركتنا امي باكرا ، عانقتني مودعة ، وقد رفعتني بسهولة عن الارض
وحدقت في عيني بنظرة لم ار لها عندها شبيها من قبل . .

قالت ، وهي تقبلني :

— الوداع ! الوداع !

فقال جدي باكتئاب ، وهو ينظر نحو السماء :

— اطلبى اليه ان يسمع ما اقله له .

— فتوجهت امي ، وهي ترسم اثارة الصليب على رأسي :

— بجب ان تطيسع جدك .

كنت انتظر ان تقول شيئا اخر ، فقمت على جدي لمقاطعته اياها
ومنعها عن الاستمرار في حديثها . . . صعدت ومكسيوف الى العربية ، لكن
ثوبها علق بشيء ما ، فظلت مدة طويلة تعمل منزعة على تحريره . .

قال جدي :

— ساعدها ، أما رأيت ما حصل .

ولكنني كنت غارقا في اليأس لا استطيع ان افعل شيئا . . . ومد
مكسيوف ، بعناية فائقة ، ساقيه الطويلتين بسروله الازرق ، بينما ناولتا
جدتي بعض الرزم التي كادسها على ركبتيه ، ثم رفع حاجبه الشاحب اللور
باضطراب ، وقال :

— كفى !

وركبت المرأة الخضراء وابنها البكر الذي كان ضابطا عربية أخرى . .
جلست منتصبه القائمة كعمود ، في حين حك ولدها لحيته بقبضة سيفه وه
يتشاعب بين الفينة والاخرى . . . ساله جدي :

— هل انت ذاهب الى الحرب ؟

— بدون شك .

— هذا رائع ! فلا بد من قهر هؤلاء الأتراك .

ومضت العربيتان . . . استدارت أمي عدة مرات تلوح بمنديلها ، بينما راحت جدتي تكيك بالقرب من الحائط وهي تلوح بمنديلها أيضا ، أما جدي فقد ترققت الدموع في مآقيه ، وهو يغمغم بصوت متقطع كلمات غير مفهومه ابدا .

جلست على مقعد صغير لا مسند له أراقب العربيتين تقفزان فوق اخايد الشارع — وما عتمة أن انعطفتا في إحدى الزوايا ، فبخيل الي أن هناك شيئا في صدري قد ارتعش ، وأن الدموع ستتهر من عيني .

كان الوقت باكرا ، والشوارع فارغة بعد ، ومصاريح النواخذ ما برحت مغلقة ، لم أر من قبل مثل هذا الفراغ المطبق . . . ومن بعيد ، مسن بعض الأماكن النائية ، تلاحقت أنغام أحد الرعبان يرسلها من مزماره . . . قال جدي ، وقد أمسكني من كتفي :

— تعال تناول فطورك ، يبدو أن من المقدر لك أن تعيش معي الى الأبد مثل عود الثقاب يحك بمشعله . . .

كنا ، جدي وأنا ، نعمل في الحديقة منذ الصباح الباكر صامتين حتى حلول الظلام ، وهو بحفر التربة ، ويقتلع الأشواك عن أشجار التفاح ، ويسحق الدود الذي يعثر عليه هنا وهناك ، وأنا أرتب زاويتي دون انقطاع . . . بتر جدي أطراف الكتل الخشبية المحترقة ، وفرز عصا جديدة في الأرض علقت بها أفضاص طيورتي . وفرشت مظلات مسن الحشيش الجاف لأحمي ماوأي من الشمس والندى . وهكذا اضحت تلك الزاوية نظيفة معدة للسكن . . . قال جدي :

— حلو منك أن تتعلم كيف تنظم أمور حياتك من تلقاء نفسك .

كنت أقدر كثيرا ملاحظاته القيمة عن الحياة . . . كان يرتد أحيانا على المقعد الذي غطيته بالعشب ، يحدثني على مهل ، فخال لي أنه يخرج كل كلمة من فمه بصعوبة فائقة :

— أنك الآن فصلت عن أمك ! ولسوف تلد والدتك اولادا آخرين يكونون

أقرب الى قلبها منك . اما جدتك فقد أخذت ، كما تعلم ، تدمن شرب الخمرة !
ثم يفرق في صمت طويل ، فكأنه يرهف السمع الى شيء ما ، كي يعود
فبتابع الحديث وهو يدحرج كلماته الثقيلة ، وبرزو الى البعيد كأنه يستجمع
افكاره او كأنه يستلهم شيئا غير منظور :

— هذه هي المرة الثانية التي تعاقر الخمرة فيها — كانت المسرة الاولى
عندما دعني ميخائيل الى الجندية . لقد اتنعتني يومذاك كي أفنديه . يا لها
من مجنونة ! لعله كان يكون شيئا اخر لو خدم في الجيش . . . اما انا !
فلسوف أموت سريعا . وهذا يعني انك ستبقى وحيدا ، تظل وحيدا تدبر
أمور نفسك بنفسك . تعلم ان تعني بنفسك ، واياك ان تنحني للغير . عش
مسالما ، ولكن كن عنيدا ، وامض في طريقك الخاصة دون خوف او هلع . . .
واستشر ، ولكن افعل ما تعتقد أنت انه الافضل . . .

قضيت في الحديقة الصيف كله ، عدا ايامه الماطرة طبعاً . وكذلك كنت
أمضي فيه الليالي الدافئة — فقد اعطتني جدتي قطعة من اللباد جعلت منها
سريرا لي . وكانت هي أيضا تنضي العديد من الليالي تروي لسي الحكايات
التي كنت اقاطعها بهتافات تأييد تارة ودهشة طورا ، فتصيح مثلا :

— انظر ! نجم يسقط ! هذه روح اشتاقت الى أمها الارض . ان
انسانا صالحا قد ولد في مكان ما من هذه الارض . . .

او كانت تقاطع نفسها بنفسها فتقول :

— ها هي دي نجمة جديدة بعثت . . . انظر ! كلها عيون ! السماء ،
انها ثوب الله المزركش بالدرر الملامعة .

فيتأفف جدي ، ويقول :

— التتطا انناسكما ، أيها الابلهان ! سوف تصيبكما بلية ، او ينقض
عليكما بعض اللصوص . . .

وتنحدر الشمس ، تغمر السماء بلون احمر كأنه من النيران ثم تسمى
رمادا ذهبيا محمرا فوق رداء الحدائق الخضراء . وعندئذ يظلم الكون تدريجيا ،
وهو يتسع ، بمقدار ما يبتلع الغسق ، ويفنى ، وتذبل الاوراق المشبعة
بحرارة الشمس على اغصانها ، ويطاطيء العشب رؤوسه العديدة ناحية

الأرض ، ويسمي كل نسيء أكثر طراوه ونعمومه ، يبعث أريحا لطيفا كالوسمي
السي تطوف ساعيه من الحقول البعيده توقعها مخيمات الجيتس ، ويحمل
الليل معه احساسا قويا منعنسا مثل حب الام الرؤوم لاولادها ، ومثل
مداعبات الام يكون المسكون ايضا ، يمسح القلب باطراف مخمليه ، يكس
بعيدا كل ما يجب ان يضيع في عتالم النسيان — كل ذلك الفبار الدثيق المحرق
الذي تراكم خلال النهار . خان من الروعه بمكان عظيم ان يضطجع المرء
ويربو الى السماء طويلا ، يراقب مولد النجوم ، وكل واحدة منها تفتح ابعادا
جديده في السماوات . ان هذه الأبعاد المتقهقرة تبدو وكأنها ترفع بخفة عن
الأرض ، فلا تعود تعرف ان كانت الأرض قد تقلصت وأضحت بقدر حجمه ،
ام انه هو الذي تمدد بشكل عجيب حتى أصبح واحدا مع كل ما يحيط به .
ويزداد المسكون وتتكاثر الظلمة .

أنغام اكورديون بعيد ، وضحك امرأة عابثة ، وضربات المهاميز على
الرصيف ، وعويل كلب ما هي سوى الاوراق الاخيرة التي تتساقط من النهار
الذي يموت ويذوب !

وفي بعض الاحايين ، ترتفع اصوات سكرى تتشاجر في الشوارع او في
بعض السناحات هنا وهناك ، ثم تتردد ضربات خطوات تعدو سريعة متلاحقة
... ان مثل هذه الاصوات المألوفة جدا ، لا تسترعي أدنى انتباه على
الاطلاق ، بيد انني كنت أسمعها لانسي لم اكس اعرف بماذا الهو سوى
بالانصات الحاد الى كل ما يطرا من اصوات غريبة .

وتستلقي جدتي مستيقظة لساعات لا نهاية لها ، وقد أراحت رأسها
على ذراعها ، وانطلقت تروي شيئا باندفاع لذيذ ، لا مبالية فيما يبدو ان
كنت أصغي لها أم لا ... وكانت تعرف دوما كيف تختار أسطورة تضيف على
الليل سحرا وتزيده جمالا وروعة ...

كنت أغرق في النوم وانا اسمع الى كلامها الموزون ، ثم استيقظ وقد
غمرت الشمس وجهي ، وملأت أذني أغاني العصفير وتغاريدها ... أن
نسيم الصباح يتحرك بلطف تغمره حرارة الشمس بدفئتها ، وأشجار التفاح
تنفض الندى عنها ، والعشب يسترد بهاء لونه الأخضر ، وسائر اصوات
الوليد الجديد والوانه تتدفق في روجي كتدفق قطرات الندى ، تحيطني بسعادة
هادئة وتغمرني رغبة في النهوض والسير ، والعيش بانسجام مع المخلوقات
... جميعا

كانت تلك أكبر مراحل حياتي سكنيه وأملا . ممى ذلك الصيف ثم
عندي شعور النفضة بفواي الخاصه . وبدأت انحاشى الناس ، فلا حدود
المرغبة ، حين اسمع صراخ أولاد شارع أوفزيبايكوف وهتافهم ، في الانضمام
اليهم ، وبدلا من أن ابتهج عندما يأتون الى زيارتي ، أصبحت أخاف من أن
يعيشوا فسادا في حديقتي في منزلي . في ماواي ، وهو اول ما صنعه يداي
في حياتي كلها . . .

لم نعد أحاديث جدي سير بي ادنى اهتمام ، خصوصا وقد أضحت أكثر
تطويلا وجفافا ونسكوى . . . ونضاعفت مشاجراته مع جدتي ، ومار يطرده
من البيت ، فتمخبي حينئذ الى دار الخال باكوف او الخال ميخائيل . وفي بعض
الاحيان ، كانت تغيب عن الدار اما عديده ، فيضطر جدي الى اعداد الطعاه
لنا بنفسه . وهو يلعن ويسب ، وبحرق اصابعه ، ويكسر الصحون ، ويزداد
شراسة يوما بعد يوم .

كان يتخذ مجلسا مريحا في بقعة معشوشبة هناك ، عندما كان يأتي لزيارتي
في زاويتي الخاصة في الحديقة ويروح يراقبني طويلا دون ان ينبس بكلمة
واحدة . . . ويسأل فجأة :

— لماذا لا تقول شيئا ؟

— لست أدري .

فيبدأ هو الحديث عندئذ ، وكأنه الاستاذ الذي يلقي درسا :

— نحن لسنا نبلاء كما تعهد . . . ما كان هناك من علمنا شيئا على
الاطلاق ، فيجب إذن أن نتعلم لوحدها . أن الكتب قد وجدت لغيرنا
والمدارس قد بنيت لسوانا . . . فواجبنا أن نحصل كل شيء من تلقا
انفسنا .

ثم يستغرق في تأملاته — صامتا دون حراك — حتى ليبعث الرعشة في
تلب من ينظر اليه . . .

باع جدي الدار في ذلك الخريف . .

وقال ، ونحن جلوس الى مائدة الامطار ذات صباح قبل الربيع ، في
صوت كثيب :

— حسنا ، يا ماما ! لقد اطعمتك مدة طويلة فيما مضى : اما الان فقد انتهى كل شيء — يحلو لي ان تكسبي خبزك بنفسك من الان فصاعدا .

أعارته جدتي أذنيها بهدوء تام ، وكأنها تتوقع منه مثل هذا الحديث .. وناولت علبة سموطها ، ودفعت قبضة منها في انفها ، وأجابت :

— حسنا ، فليكن كما تريد ، فلا بد ان نتدبر أمرنا على خير وجه .

واستاجر جدي غرفتين مظلمتين صغيرتين في قبو منزل عتيق يقع في درب جد ضيقة ... وبينما نحن ننقل أمتعتنا ، تناولت جدتي حذاء عتيقا ذا أشرطة طويلة وألقت به تحت الموقد ، ومن ثم جلست المقرنصاء وراحت تغفم قائللة :

— نعال أيها العفريت ، تعال أيها العفريت ! أركب في هذا الحذاء وسر معنا الى الدار الجديدة حاملنا لنا حظا سعيدا ...

واطل جدي ، وكان في الساحة الخارجية ، من خلال النافذة وزعق :

— انك تأخذينه معك ، اليس كذلك ؟ فلسوف أدق عنقك ، أيتها الكافرة كيف تجعلين مني مدعاة للسخرية في أعين الناس ؟

نحذرتة بقولها :

— ايه ، يا ابتاه ! انتبه ، ذلك يعني حظا سيئا لنا ..

ولكن غضب جدي كان يفوق حدود التصور ، فمنعها من اصطحاب العفريت الى الدار الجديدة ...

وظل ، طوال أيام ثلاثة ، يبيع الاثاث لبعض التجار ، وهو يساوم زاعقا صارخا ويكيل الشتائم دون حساب ... وكانت جدتي تراقبهم من النافذة ، وتأثر تارة ، وتضحك تارة اخرى ، وهي تنادي في صوت منخفض :

— هيا خذوا كل شيء ، حطمو كل شيء ، لا تبغوا على شيء ...

وكنت بدوري اغص بالمعبرات ، كلما فكرت في زاويتي في الحقيقة ..

لقد عشت ، يرافقتني الاحساس بأن شيئا يحاول انتزاعي والقذف بي

بعيدا طوال السنتين التاليتين — حتى وفاة أمي . . . وسرعان ما جاءت هذه لزيارتنا بعد انتقالنا الى القبو . كانت شاحبة اللون ، ضامرة القوام ، وعيناها الكبيرتان نحترقان ببريق من الدهشة . . . كانت تتفحص كل شيء بانتباه مركز ، وكأنها ترى أباهما وأماها وترانسي للمرة الاولى في حياتها . . . راحت ننظر اليها صامتة ، بينما ظل زوجها يسير في الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يصفر ، وقد شبك أصابعه وراء ظهره .

تالت والدني ، وقد أخذت وجهي في راحتها الدافئتين :

— يا للسموات ، لكم نضجت !

وكانت ترتدي ثوبا عريضا ، بني اللون ، بدا لي بشعا وهو يفتح فوق

معدتها . . . قال زوجها ، وهو يمد لي يده :

— مرحبا ! كيف حالك ؟

ونفخ بهنخريه ، وغمغم :

— ان الرطوبة شديدة ههنا !

كانا يبدوان متعبين ، وسخين ، فكأنهما يركضان منذ فترة طويلة ، وكل امنيتهما ان يستلقيا ويستريحا . . . وتناولنا الشاي في وجوم ، وجدي يراقب المطر طوال الوقت وهو ينهمر ويدلف الى الداخل من خلال شقوق المصاريع ، ثم سأل أخيرا :

— وهكذا . فقد خسرتما كل شيء بسبب النار ؟

فأجاب زوج أمي بلهجة من يروي مغامرة حدثت له على حين بغتة :

— كل شيء ! وما انقذنا أنفسنا الا بصعوبة قاسية .

— ان النار لا تمزح في الحقيقة .

واقتربت أمي من جدتي وهمست شيئا في أذنها ، ضيقت له هذه فتحة عينيهما وكان نورا برافا قد أنحسب عليهما بغتة وازداد وجومهما . . .

قال جدي فجأة بصوت هاديء مرتفع :

— لقد سمعت ، يا يهيجيني فاسيليفيتش ، بعض الاتساعات التي تقول
انه لم يكن هناك نار على الاطلاق ، بل انك خسرت كل شيء في القطار .

فران صمت قائل ، لا يعكره سوى قطرات المطر تفرغ النافذة . . .

تالت امي :

— ابي . . . لماذا ؟ . . .

فزمجر جدي :

— ابناه ! ماذا ايضا ؟ ألم اخبرك ان من الجنون ان يتزوج الجيل
الثالث من الجيل الثاني ؟ حسنا ، اليك ما انتهيت اليه — انه نموذج رائع ،
اليس كذلك ؟ ولقد جعل منك نبيلة ، اليس كذلك ؟ حسنا ، كيف تجددين
ذلك الان ؟

اندفع الجميع الى الكلام ، وكان صوت زوج امي يرتفع فوق جميع
الاصوات ، خرجت الى المشى ، وجلست على كومة من الحطب مصعوقا
. . هذه الامعى لا يمكن ان تكون امي — انها تختلف عنها الاختلاف كله . .
ادركت ذلك عندما كنت في الغرفة ، أما الان وقد جلست في الظلمة ههنا ،
فاني استطيع ان اتذكر بوضوح كيف كانت من قبل . . . وانسي لاجدني بعد
هذا — دون ان اذكر كيف تم ذلك ، في سورموفو ، في بيت جديد ، وكانت
الشقوق بين قطع الاخشاب محشوة بنبات اخضر يسكنها عددا لا يستهان به
من الصراصير . وكانت امي وزوجها يعيشان في غرفتين تواجهان الشارع ،
بينما اعيش وجدتي في المطبخ الذي تطل نافذته الوحيدة على السطح . وفيما
وراء هذا السطح ، كانت المداخن السوداء تنتصب بشموخ نحو السماء ،
تنفث دخانا كثيفا مجعدا تنثره ريح الشتاء فوق الحي بأسره . . وكانت غرفنا
غير المدفأة تعج ابدا برائحة ذلك الدخان بينما صفارة المعمل تعوي في كل
صباح مثل دثب مفترس .

كنت استطيع ، اذا ما وقفت على دكة صغيرة وتطلعت من خلال زجاج
النافذة العلوي ، ان الملح بوابات المعمل المضاءة وقد فتحت على مصاريعها
لقلتهم العمال اللثاما . وعند الظهر ، كان صوت الصفارة يعلو مرة اخرى ،
فتفتحت البوابات السود على مصاريعها ، تكشف عن ثغرة عميقة يلفظ المعمل

منها نفس أولئك الناس الصغار ، فيندفون في جداول سود على طول الشوارع ، تطردهم ريح بيضاء عن الدور المبعثرة ..

وفي الامسيات كان دخان أحمر اللون قائمه يتوهج مرفرفا فوق المعمل، مضبئاً رؤوس المداخن ، باعثاً في النفس شعورا فريدا من الرهبة . كانت رؤية ذلك المشهد يوما بعد يوم أثقل من أن نطاق ، فيفيض قلبي بكَراهية وحقد مؤلمين ..

كانت جدتي تقوم بسائر اعمال البيت ، فنتهمك منذ الصباح حتى المساء في تحضير الطعام ، ومسح الارض ، وتقطيع الحطب ، حتى اذا هبط المساء سقطت متعبة أعياء وارهاقا . وفي بعض الاحيان بعد تهيئة طعام الغداء ، كانت تلبس معطفا قصيرا ثم تخرج الى البلدة وهي تقول :

— سأذهب لارى كيف يدبر ذلك الشيخ اموره اليومية .

٤ خذيني معك .

— لسوف تبرد حتى الجمود ، الاتحس بهذه الريح المريعة !

وتقطع مسافة سبعة اميال الى البلدة على طرق ضيقة في حقول من الثلج ، بينما تجلس امي الحامل في الدار صفراء منتفخة ، ملتفة بشال رمادي مزركش من على طرفيه .. كنت اكره ذلك الشال الذي يشوه جسدها الجميل المتين البنيان ، وكره تلك الزركشة أيضا ، فأود ان أمزقها أربا أربا، كما كدت اكره البيت ، والمعمل ، والمنطقة بأسرها . وكانت والدتي تتجول في حذاء عالي الكعبين ، يهتز بطنها المنتفخ كلما سعلت ، وعيناها الزرقاوان تلتمعان بفضب قاس ، أو تشخصان باكتئاب الى الجدران العارية ... وفي بعض الاحيان كانت تتطلع الى الشارع ساعة كاملة ... كان هذا الشارع يشبه فكاً سودت السنون بعض اسنانه وشوحتها ، بينما سقط القسم الاخر فاستبدلت بأخرى جديدة لكنها كبيرة جداً بالنسبة الى الفك .

قلت أسأل :

— لماذا نعيش في هذا المكان ؟

فأجابت :

— او اه ، لا تسأل !

أصبحت نقتصر في حديثها معي ، فلا يخاطبني الا كي تصدر امرأ ، او
تطلب الي عملا ما :

— اجلب لي هذا . خذ ذلك . اسرع الى المخزن ...

ونادرا ما كانت تسمح لي بالخروج للعب ، لانني كنت أعود دوما وقد
اعتدى علي رفاقي واشبعوني ضربا ... كان القتال اللذه الوحيدة التي بقيت
لي ، فكنت استسلم اليه بكل اندفاع . وكانت أمي تضربني ضربا مبرحا عقابا
لي ، فلا يؤثر في العقاب الا كي اضاعف من سخطي ، فأروح اقاتل في اليوم
الثاني بوحشية اكثر مني في اليوم الاول ، فتضاعف امي بدورها من قسوة
عقابي ... وأذرنها مرة اني سأعض يدها وأهرب اضرب في الحقول ان
عادت الي ضربي ، فدفعني عنها في دهشة ، وراحت تذرع أرض الغرفة
بخطواتها ...

قالت ، وهي تلهث :

— يا لك من متوحش صغير !

وكان زوج والدتي قاسبا جدا علي . قليل الكلام مع أمي . كان أبدا
يصفر ويسعل ويقف مقابل المرأة ينقر على أسنانه المعوجة . ولقد أصبح
بتشاجر مع أمي أكثر فأكثر ، ينعتها بعبارات ثائنة قاسية تثير نقمة في أعماق
قلبي . وفي كل مرة يتشاجر واياها ، كان يغلق الباب المؤدي الي المطبخ حتى
لا أسمع اقواله ، ولكن أصداء صوته الجاف كانت تبلفني وتصنع آذاني
بالرغم من كل احتياطاته ...

ضرب الارض بقدمه مرة ، وصاح مزمجرا :

— انا لا أستطيع ان ادعو أحدا الى الدار بسبب انتفاخ بطنك ، أيتها
البقرة الشمطاء !

طغعت علي دهشة عظيمة وغضب لا مثل له ، فقفزت بعنف حتى
اصطدم رأسي بالسقف بقوة ، وعضضت لساني حتى أذيته ...

وفي أيام السبت ، كان عدد كبير من العمال يأتون اليه يبيعونه بطاقات

الطعام الذي يمكنهم من شراء الحاجيات من مخزن الشركة . . . كان المجلد يوزع هذه البطاقات عوضا عن الاجور فيبئناها زوج امي بنصف تمنها . وكان يستقبل العمال في المطبخ ، فيجلس الى الطاولة وعلى وجهه سيماء التكبر ، ويروح يتطلع في كل بطاقة مقطب الحاجبين :

— روبل ونصف الروبل .

ولم نطل هذه الحياة السوداء المضطربة ، فقد ارسلوني قبل ان تلد امي لاعيش مع جدي . . .

كان يقطن منزلا جديدا مؤلفا من طابقين في شارع بيششنانانيسا في كونايفينو فوق مقبرة كنيسة نابولنايا . وكانت الغرفة التي يشغلها تطل على الساحة بنافذتين عريضتين .

ضحك حين رأني ، راح يرسل كلاما عاليا حادا متقطعا :

— حسنا ! ان المثل يقول : « خير رفيق لك هو امك . . . » . ولكن في هذه الحال يبدو ان افضل رفاقك هو جدك ، الشيخ ! يا لهم من قوم !

وما كدت استقر في المنزل الجديد حتى اتت اليه امي وجدتي بالوليد الجديد . اما زوج امي فقد خسر عمله في المعمل لاحتياله على العمال ، ولكنه استفاد بأصدقائه ، وسرعان ما استلم عملا جديدا بوظيفة محاسب في محطة للسكك الحديدية . . .

ومرت ايام طويلة قبل ان ارسل ، مرة اخرى ، لاعيش مع امي في قيو ضيق يقع تحت منزل حجري . . . ارسلتني امي فورا الى المدرسة ، ولكني بغضتهما هي والمدرسة منذ اليوم الاول . . . ظهرت فيها ، للمرة الاولى ، لابسا حذاء من احدى امي ، ومرنديا معظفا فصل من احد قمصان جدتي ، وقمصا اصفر اللون ، وبنطالا طويلا . . . وطبيعي ان اكون مدعاة للسخرية بمثل هذا اللباس ، لكنني تفاهمت بسرعة مع زملائي ولكن الكاهن والاستاذ نفرا منسي .

كان الاستاذ اصلح الراس ، اصفر الوجه ، يدخل قاعة الدرس وقد حشا منخريه بالقطن ويتخذ مكانه الى الطاولة ، وي طرح علينا الاسئلة في صوت أجش ، ثم يقف في منتصف الكلمة ليسحب القطن من أنفه ويتفحصه

وهو بهز رأسه . . كان له وجه مسطح . نحاسي اللون ، يبدو أن انعكاسات زرقاء مخضرة تتلاعب على صفحته . أما عيناه الصغيرتان ، وهما أكثر ما في وجهه شناعة ، فكان يخيل الي انهما محتسورتان حشرا في رأسه حيث لا مكان لهما على الاطلاق .

جلست طوال الايام الاولى في المقعد الامامي ، تماما تحت أنف الاستاذ ، حتى لاخال انه لا يرى احدا سواي ، وانه لا بفناً يرسل السى الملاحظة بلو الاخرى كأن يقول من خلال اسنانه :

— بشكو . . و . ف ! كفى هذرا ! بشكو . . و . ف ! كفى مراوغة !
بشكو . . و . ف ! لقد ترك حذاؤك ، مرة أخرى ، بعض الوحل على الارض !

كان ذلك اكثر من ان أستطيع احتماله ، ولكني كنت انتقم لنفسى باستنباط اكثر الالاعيب تطرفسا . . وفي ذات يوم ، حئت بنصف بطيخة متجادة ، وأمرغت محتوياتها ، ومن ثم علقتها في مقبض الباب في الممر المظلم . وعندما فتح الباب ، طارت البطيخة في الهواء ، وعندما أغلقه الاستاذ سقطت القسمة على رأسه الاصلع . . وقادني الحارس الليلي الى الدار مع ورقة تائب من الاستاذ ، وكان نصيبي الجلد عقابا على تلك الاساءة . . .

و في مرة اخرى ، نثرت السعوط في جواره ، فأخذته نوبة من النعطيس أجبرته على مغادرة قاعة الدرس التي بعث اليها بصهره الضابط كي ينوب عنه . . وطلب منا الضابط ان ننشد « يا الله أنقذ القيصر » و « آه يا حريتي المباركة » مرات عديدة . . وكلما اخطأ أحدنا في اللحن ضربه على رأسه بمسطرة معدنية كانت تحدث ضجة جوفاء تنعث على الضحك ، وان لم تكن تؤلم ابدا .

أما استاذ الدين فكان كاهنا أنيقا في شرح الشبَاب ، كث الشعر اجمعه ، أبغضني لاني لا املك نسخة من « المعهدن القديم والجديد » ولاني اقلد طريقتة في الحديث ابضا . . .

كان يقول ، عند دخوله قاعة الدرس مباشرة :

— بشكوف ، هل اشتريت الكتاب ام لا ؟

— كلا ، لم أفعل . نعم ! . .

— وماذا تعني بنعم ؟

— كلا !

— هيا الى البيت ! نعم ، الى البيت ! فلست ارجب في تعليمك . نعم ، لا ارجب ابدا !

وما كنت اعترض ابدا على مغادرة المدرسة . فكننت اركض في طرقات الضاحبة القذرة اتأمل الحياة الصاخبة من حولي حتى يحين موعد الانصراف من المدرسة .

كان للكاهن وجه رائع كوجه المسيح ، وعينان جميلتان كأعين النساء . . . وكأنت له يدان صغيرتان ، يخال الى انهما تلافان كل شيء تلمسانه ، اكان ذلك الشيء كتابا ، أم مسطرة ، أم ريشة . كان يبدو وكأنه يحب كل شيء تقع عليه عيناه ، فينظر اليه على اعتباره شيئا حيا يمكن ان يؤذيه كل احتكاك عنيف . وكان الاطفال مولعين به بالرغم من انه لم كن يعطف عليهم بشكل ظاهر . . . ومع ان علاماتي كانت مرضية للغاية ، فما أسرع ما انذرت بانني ساطرد من المدرسة بسبب سلوكي . اتلقنى ذلك جدا ، فمما لا ريب فيه ان نتائج صرامة قاسية ما دامت امي تزداد عنفا يوما بعد يوم ، وتضاعف من جلدي أكثر فأكثر .

ولكن خلاصي من تلك الكارثة تحقق على غير انتظار ، فقد زار مدرستنا ، بغتة ، الاسقف . وكان ، على ما اذكر ، احذب الظهر . . . وامتلات قاعة الدرس بجو غير معهود من الحركة والانطلاق عندما دخل ذلك الرجل الصغير مرتديا ثوبا فضفاضا أسود اللون ، وأخذ مجلسه الى الطاولة . .

قال ، وهو يخرج يديه من كميته الواسعين :

— حسنا ! هلا تحدثنا قليلا ، يا أطفالي ؟

وجاء دوري للمثول امام طاولته . . . سألني :

— كم سنة لك من العمر ؟ حقا ؟ يا الله ! يا لك من فتى طويل بالنسب

الى سنك ! لا ريب انك وقفت كثيرا تحت الأمطار !

والتي احدى يديه الصغيرتين الطويلة الاظافر على الطاولة ، بينما
امسك باليد الاخرى لحيته الصغيرة ، وهو يحملق في بلطف :

— حسنا ، ارو لي اية قصة نحبها من التاريخ الديني .

وعندما اجبته باننى لا املك كتابا ، ومن ثم لا أستطيع حفظ دروس
الدين ، أصلح من وضع ثلنسونته وقال :

— كيف ذلك ؟ يجب عليك ان تدرس دروس الدين . ألم تسمع بعض
القصص في مكان ما ؟ هل تعرف المزامير ؟ حسنا ! والصلوات ؟ والان ، لعلك
تعرف حياة بعض القديسين ؟ حسنا ، يبدو انك فتى مثقف اذن !

ودخل كاهننا ، محمر اللون ، وهو يلهث ... وبعد ان باركه الاسقف
طفق بحدثه عني .. فقال الاسقف ، وهو يقاطعه باشارة من يده :

— انتظر لحظة !

ثم استدار الي ثانية :

— حسنا ، لفرض انك اخبرتنا عن المكسي ، رجل الله ...

وعندما توقفت عن تلاوة الشعر لنسياني بعضه ، قال :

— شعر رائع ، اليس كذلك يا بنى ؟ عساك تعرف شيئا اخر — عن
الملك داوود ؟ رائع ! لسوف اكون سعيدا جدا بالاصغاء اليك ...

واستطعت ان الحظ، بنهسى انه سعيد جدا بالاصفاء ، وانه مولع
بالشعر .. وتركني اتلو الكثير منه قبل ان يقاطعني :

— هل تعلمت حرف الهجاء من المزامير ؟ من علمك ؟ جدك الطيب ؟
جدك « الشريير » ؟ حسنا ، انك لا تعني ذلك . ولكنهم اخبروني انك ابدا
تسبب بعض الشغب ...

فتضرجت وجنتاي ، ولكني اعترفت بخطيئتي .. واثبت الكاهن
والاستاذ هذه الحقيقة الى حد بعيد . فاستمع الاسقف اليهما مطرقا بعض
الوقت وقال اخيرا :

— أسمع ما يقولان عنك؟ تعال الى هنا !

ووضع يدا تفوح منها رائحة البخور على رأسي ، وقال :

— ما الذي يجعلك بمثل هذه الشقاوة ؟

— ان المدرسة تبعث على الملل .

— تبعث على الملل ؟ في هذا بعض الخطأ ، يا ابني ! فأنت اذا وجدت المدرسة باعثة على الملل ستكون تلميذا كسولا ، ولكن علاماتك تشهد ضد ذلك . يجب ان يكون هناك شيء اخر بضايقتك .

وأخرج من جيبه كتابا صغيرا وكتب :

— بشكوف ، الكسي . يحسن جدا لو عدلت عن شيطنتك ، قليل من الشغب لا بأس به ، ولكن الناس لا يتحملون كثيرا منه ، كما تعلم ! ألسنت على حق ، أيها الصغار ؟

فردت عليه جوقة من الاصوات بصوت عال :

— بلى ، انك على حق !

— وماذا عنكم ؟ اظن انكم لا تسببون الا قليلا جدا من الشغب ، اليس كذلك ؟

فضحك الاولاد :

— اوه ، كلا ، بل كثيرا !

وقال في نغمة تعجب ودهشة ، اطلقت عاصفة من الضحك اشترك فيها حتى الكاهن والاسناذ أيضا :

— ما اغرب ذلك ! لقد كنت بدوري مشاغبا كبيرا عندما كنت في مثل عمركم ! ما الذي يجعلنا هكذا في رأيكم ؟

ضحك الاولاد ، وهو يتابع اسئلته ، الامر الذي زادني مرحا وابتهاجا . ولكنه نهض اخيرا ، وقال :

— من المؤسف ان اغادرکم ، ايها الخبثاء ، ولكن ساعة زحيلي قد دنت .
ورفع ذراعه ، ودفع الى المراء كبه العريض ، ورسم اشارة الصليب
قائلا :

— فليهد الله في حياتكم ، ويهدكم سواء السبيل ، باسم الاب والابن
والروح القدس . وداعا !
فصاح الاولاد :

— وداعا ، يا صاحب القداسة ! عد الينا سريعا !
— سأعود ، سأعود سريعا ! وسأحمل لكم بعض الكتب .
ثم استدار الى الاستاذ :

— فليمضوا الان الى منازلهم .

واعترض سبيلي في المشى ، وقال لي صوت خفيض :

— عدني الا تسبب اية متاعب في المستقبل ، اتمعد ؟ انا افهم لماذا
تفعل ذلك طبعاً ! حسناً ، الى اللقاء !

كنت شديد الانفعال ، يشتعل في صدري احساس غريب ، حتى انى
أصغيت بانتباه وطيبة خاطر الى الاستاذ الذي استبقاني بعد انتهاء الدرس
وظفق يكرر لي ان من واجبي بعد الان ان اكون كالحمل وداعة ولطفا .

وخاطبني الكاهن ، وهو يرتدي معطفه :

— ومن الان فصاعدا يجب ان تواظب على دروسي . نعم ، هذا ما
يجب ان تفعل . . . ولكن ، اهلاً ! نعم ، ابق هادئاً !

تحسنت الامور في المدرسة ، ولكن حادثاً وقع لى في البيت بعث في الجو
نفورا واشمئزاً . . . فقد سرقت روبلا من أمى ، نون ان اتصد هذه الجريمة
او اتعمدها . . .

خرجت أمى ذات مساء الى مكان ما ، وتركتني وحيداً مع الطفل
الرضيع ، فتناولت كتاباً ، احد كتب زوج أمى — « ملاحظات طبيب » لاني

لم أجد شيئا افعله افضل من ذلك . وقد وجدت بين صفحات ذلك الكتاب ورقة من فئة الروبل الواحد ، واخرى من فئة العشر روبلات . واغلق علي فهم الكتاب ، ولكنني عندما اطبقته راودتني فكرة السرقة فجأة بانني أستطيع بذلك الروبل ان اشترى ليس « تاريخ الدين » فحسب ، بل و « روبنسون كروزو » ايضا .

كان عدد اخر من الطلاب قد قرأوا روبنسون كروزو ، فراحوا جميعا يمتدحون ذلك الكتاب . وعزمت أن احصل على روبنسون كروزو حتى أستطيع أن اتول ، بعد قراءته ، انه رديء لا ينفع شيئا .

وجئت المدرسة في الغداة أحمل « تاريخ الدين » ومجلدين صغيرين من قصص اندرسون الخرافية ، وقليلاً من الخبز الابيض ، وأوقية واحدة من اللحم المقدد . ولقد عثرت ، في المكتبة الصغيرة المظلمة القائمة في الزاوية القريبة من كنيسة فلاديمير ، على نسخة من روبنسون كروزو — كان كتاباً صغيراً أصفر الغلاف ، ووجدت في الصفحة التي تحمل العنوان صورة رجل ملتصق قد وضع قبعة من الفرو على رأسه ، والمقنعة معطفاً من جلد المنمر على كتفيه . لم يستهونى ذلك ، بل فضلت عليه أقاصيص الجنيات التي فتنتني .

واقترسيت ، اثناء الفرصة ، الخبز واللحم مع الاولاد ، ورحنا نقرأ معا قصة « العنديل » التي ادهشتنا واستحوذت على قلوبنا منذ بدء الصفحة الاولى :

« ان سائر الناس في الصين صينيون ، وحتى الامبراطور نفسه صيني ايضا . . . »

وما برحت اذكر كيف ابهجتني هذه الجملة ببساطتها ، وموسبتهاها الباسمة ، ولست أدري أي شيء اخر فيها كان رائعا .

ولم أجد الوقت الكافي كي أنتهي من قراءة « العنديل » في المدرسة ، وعندما عدت الى البيت سألتني أمي في صوت مغتصب ، وهى ثقلي بعض السمك :

— هل أخذت روبلا ؟

— نعم ، وها هي ذي الكتب . . .

فضربتني بعنف بالمقلاة ، واغتصبت مني القصص ، وأخفتها عني للابد
... كان هذا العقاب اشد ايلاما من الجلد بما لا يقاس .

وانقطعت عن المدرسة اياما عديدة ... ومما لا ريب فيه ان زوج امي
اطلع الناس في المعمل على فعلتي ، فزوها بدورهم لاولادهم الذين حملوا
القصة الى المدرسة التي استقبلتني - عندما عدت اليها - بلقب جديد ، الا
وهو « الحرامي » ... كان اللقب وجيزا ، واضحا ، ولكنه خاطيء .. ولم
أجرب ان اخفي حقيقة سرقتي للروبل . ولكنني ، عندما حاولت ايضاح ذلك ،
لم يصدقني احد ... وهكذا رجعت الى البيت واخبرت امي انني لن اعود الى
المدرسة ثانية ..

كانت حاملا ، مرة اخرى ، تجلس الى النافذة تعلم اخي ساشا ،
نادارت وجهها نحوي ونظرت الى بعينين مذعورتين وقد فتحت فمها
دهشة ...

تالت في صوت اجوف :

— انت تكذب ، اذلا يمكن ان يعرف انسان انك سرقت الروبل .

— ما عليك اذن الا ان تستفهمي .

— لا ريب انك انت الذي اخبرتهم بالامر اذن ؟ اصدقني الحقيقة — الم
تخبرهم ؟ ولكن ، لا تكذب ، — سأذهب غدا الى المدرسة لاتحقق من الامر .

فأخبرتها ، باسم التلميذ ، واذأوجهها ينقبض الما ، والدموع تسيل
عليه بغزارة ...

ذهبت الى المطبخ ، وتمددت خلف الموقد على الفراش الذي صنع لي
من بعض اخشاب الصناديق . وكنت استطيع ان اسمع امي تبكي في
الغرفة المجاورة وهي تتأوه ، وتتفوه ببعض كلمات غير منهيمة .

لم اعد استطيع ان اطبق الرائحة التي تبعثها الاسماك القذرة ، فخرجت
الى الساحة .

نادتني امي :

الى اين ؟ تعال السي !

جلسنا معا على الارض ، وساشا يقتعد ركبتيها بشد أزرار ثوبها ، وينحني عليها .. والتممت بأمي ، فلففتني بذراعها . قالت :

— اننا فقراء معدمون . فكل كوبيك — كل كوبيك واحد ...

وضغطت علي بذراعيها الدافئتين عاجزة فيما يبدو عن التصريح بما تريد أن تقول ...

وزمجرت فجأة ، وهي تراجع كلمة كانت تتفوه بها كثيرا من قبل :

— اواه ، يا للوحش ، يا للوحش !

كان ساشا طفلا غريبا — ضخم الرأس ، هادئ الطباع ، ذا عينين زرقاوين ساحرتين تضحكان دوما ، بدأ يتكلم في سن مبكرة غير عادية . ولم يكن يبكي أبدا ، بل يعيش على الدوام في حال من الفرح المستمر . وكان أضعف بنية من أن يقبل على الزحف بيسر ، ولكنه كان يبتهج كثيرا عندما يراني ، فيمد ذراعيه الصغيرين ، ويروح يلعب بأذني. بإصابعه الناعمة التي تفوح منها رائحة البنفسج . ولقد مات على غير انتظار ، دون ان يمرض أبدا . كان سعيدا كل السعادة في الصباح كمعهده ... ولكنه ، عندما يهبط المساء ، واصوات اجراس الكنيسة تدعو الناس الى صلاة الغروب ، كان يضطجع على الطاولة دون حراك ، ولقد حدث ذلك بعد ولادة الطفل الثاني نيقولا في بفترة قصيرة .

وقد دبرت امي الامور في المدرسة ، فعدت اتابع الدروس كالمعتاد . ولكني عدت أعبس ، مرة أخرى ، مع جدي للسبب التالي ...

ذات يوم ، بينما كنت ادخل الى المطبخ ، سمعت امي تصيح بيأس :

— يفجيني ، يفجيني ، لا تذهب ، اتوسل اليك !

فأجاب زوجها :

— هراء !

— ولكني اعرف انك ذاهب اليها !

— حسنا ، وماذا في ذلك ؟

صهت كلاهما عدة لحظات ، ثم قالت امي بين نوبتين من السعال .

— يا لك من نذل خسيس !

وبمعتة يصربها ، فعدوت داخل الغرفة كي أراها جانبية على ركبتيها ،
تسند الى احد الماعد بطهرها ، ورأسها يندلسى الى الحلف ، وعيناها
ببرقان بصوره غير معهوده بينما اسصب مكسيموف امامها ، مرتديا سترة
جديده ، يرفسها بساقته الطويل على صدرها ... والتقطت سكتينا حادة
مصيه المبيض — الشيء الوحيد الذي بقي لوالدي من مخلفات أبي —
وصوبها الى خاصره بكل ما بي من قوه .

ومن حسن الحظ ان والدني استطاعت ان تدغمه عنها في الوقت
المناسب ، فتقتت السكين المعطف وحده ، وجرحت الجلد جرحا طفيفا .
مأطلق أنينا مزمجرا وخرج من الغرفة راكضا وقد أمسك خاصرته .

اختطفنتي أمي وفد نددت عنها صيحة حادة ، ثم طوحت بسي على
الارض ، ولكن زوج امي انزعني منها عندما قفل عائدا .

في ساعة متأخرة من مساء ذلك النهار ، عندما خرج بالرغم من كل
شيء ، جاءتني امي الى خلف الموقد ، وعانقتني بلطف وقبلتني :

— سامحتني ، يا عزيزي . لقد اسأت اليك ! ولكن ، كيف يمكن ان
يفعل مثل ذلك ؟ بسكين !

فأقنست ، وانا ادرك تماما معنى كلماتي ، اني سأقتل زوج امي ثم
اقتل نفسي ايضا . واخال انني كنت فعلت ذلك — او حاولته على الاقل .
وانا ما برحت ارى حتى اليوم تلك القدم المقيتة تتأرجح في الفضاء ، لترفس
صدر امرأة ضعيفة ...

وعندما اذكر ، في بعض الاحيان ، تلك الحياة الروسية الهمجية
اتساءل ان كانت تستحق ان يتحدث المرء عنها ... ولكني اقتنع بعد التفكير
ان من الواجب ان عرضها ، لانها تشكل الحقيقة الدنيئة التي لم تستأصل
شأفتها حتى اليوم الحاضر . . انها تمثل حقيقة يجب معرفتها حتى أعرق
جذورها ، كي ننتزعها بعد ذلك من حياتنا الملتخة بالعمار . . ننتزعها من
صميم نفس الانسان وذاكرته ... اجل ننتزعها من ذاكرة الجيل الطالع .

هأنذا مرة أخرى مع جدي . . .

حياتي ، وهو ينقر على الطاولة بعصبية :

— حسنا ، انا لن اغذيك بعد اليوم . فلتتكفل جدتك بذلك .

فقالتي جدتي :

— سأدبر ذلك ، لكأن هذا الامر عمل شاق !

— حسنا ، خذيه في عهدتك اذن .

ولكنه اوضح لي الامور بعد ذلك بهدوء اعظم :

— ان كل شيء ينقصنا — كل يعني بنفسه وحدها . . .

جلست جدتي الى المائدة تطرز ، فراحت بكرات خيطانها تتدحرج على
الموادة الملاى بالدبابيس النحاسية التي تلمع في اشعة شمس الربيع .
كانت جدتي نفسها تلوح وكأنها اثناء من البرونز ، لم يتبدل فيها شيء ما على
الاطلاق . لكن جدي اصبح اشد هزالا واكثر تفضضا تناقص شعره ،
واستحالت رزانة حركاته اضطرابا مرتعشا ، واضحت عيناه الخضراوان ترنو
الى كل شيء في ارتياب وتشكك . راحت جدتي تخبرني ، وهي تضحك ، عن
اقتسام الاملاك بينها وبين جدي . لقد اعطاها جميع العلب ، والصحون ،
الاحواض ، وقال :

— كل هذا لك ، واباك ان تسأليني شيئا اخر !

نم جمع سائر تبايها القديمة وممتلكاتها ، بما فيها تبعة من جلد الثعلب ، وباعها لقاء سعمائة روبل ، اقترضها بالفائدة ليهودي اعتنق المسيحية يتاجر بالفواكه . لقد أصبح مريضا ، اهلكه الطمع — أصبح طماعا بصورة مشينة ، فهو يزور معارفه القديمين — من تجار اغنياء ، ومهنيين ، يعامل واياهم فيما مضى — ويسألهم بعض المال ، قائلا ان ابيه تاداه الى الخراب والتهلكة . ولتند قدموا له منحا سخية احتراما لركره السابق ، فكان يرجع الى البيت ويلوح ببعض اوراق النقد تحت انف جدتي وهو يسخر منها كظنل صفير :

— هل ترين هذه ، ايها المعجوز الحمقاء ؟ انك لن تجدي من تدفع لك عشر هذا المبلغ فقط ا

ثم اقترض جدى هذا المبلغ الجديد بالفائدة لشخص تعرف عليه حديثا ، تاجر فراء عملاق : اصلع الراس ، ، ولاخفه ، وهي صاحبة دكان سمينة ، حمراء الخدين ، سوداء العينين ، حلوة ورخوه في وقت واحد معا .

كان اهل الدار يقنسمون كل تساء بصورة دقيقة : فاليوم تهيء جدتي الغذاء من مالها الخاص ، وفي الغد يشتري جدى الخبز والطعام ، وفي هذه الحال يكون الغذاء رديا على الاطلاق . كانت جدتي تبتاع لحما جيدا ، اما هو فيبتاع رئة الخروف او امعاء . وكان كل منهما يحتفظ بشايسه وسكره الخاصين ، ولكنهما يغليانه في الابريق نفسه . ويقول جدى مذعورا :

— مهلا ! كم وضعت فيه ؟

ويرجع اوراق الشاي ، ويعدها بعناية فائقة ثم يقول :

— ان الشاي الذي تبتاعينه ارق من الذي ابتاعه انا — ولكن اوراقى اكثر كثافة ، فهي تختمر بصورة افضل . وهكذا فعليك ان تضعي عددا اكبر من اوراقك .

ويراقب جدتي ، وهي تصب له الشاي ، كي يبرى ان كانت حصته تساوي حصتها في الكثافة . كانا يشربان دوما عددا متساويا من الاقتاح .

وكانت جدتي تسأله :

— أنتشرب القدح الاخير ؟

فيوافق جدي بعد ان يلقي نظره الى الابريق :

— حسنا ! انه القدح الاحمر حقا !

لا بل ان كلا منهما كان يبناع الزيت الضروري لتقنديل الايقونة .

كنت اجد أعمال جدي مسلية ولكنها مقرفة — اما جدتي فتراها مسلية فقط . . . كانت تقول لسي :

— لا تفكر في كل ذلك ! لقد كبر ، شاخ كثيرا ، فاصبح شاذ الطباع . لقد ناهز النمانين — فكر فقط في هذا العدد الكبير من السنين ! فليصبح شاذ الطباع اذن — ذلك لن يؤدي احدا . اما انا وانت — فكن على ثقة من انني ساكسب دوما ما يدفع عنا غائلة الموت جوعا .

وأصبحت اكسب ، بدوري ، بعض المال ، فما ان يشرق يوم الاحد حتى احمّل كيسا على ظهري واتجول في الشوارع والمساحات اجمع العظام، والخرق ، والمسامر ، والاوراق . كانوا يدفعون لنا عشرين كوبيكا مقابل كل حزمة من الخرق والاوراق وقطع المعن ، وثمانتي او عشر كوبيكات مقابل كل حزمة من العظام . ثم اصبحت اجمع هذه الاشياء من الطرقات بعد خروجي من المدرسة ، فأربح كل يوم سبت من ثلاثين حتى خمسين كوبيكا .

وكانت جدتي تأخذ المال مني : وتودعه جيب قميصها : وتطرف بعينها وهي تكافئني بكلمات المديح :

— شكرا ، أيها العصفور الصغير ! فلن نجوع ، لا انا ولا انت ، ابدا . . . اليس كذلك ؟

وفي ذات يوم ، فاجئتها وهي تشخص الى قطع الخبث كوبيكات التي املكها وتبكي وقد علقت دمة براقة عند نهاية انفا . .

ولكني وجدت ان ارباح المتاجرة بالخرق اقل مما استطيع كسبه من سرقة الواح الخشب من منجرة تقع على ضفاف نهر الاوكا ، حيث تجري التجارة بالمعادن خلال السوق السنوي تحت خيمات مصنوعة من الخشب . وعندما كان ينتهي السوق كانت تلك الخيمات تفكك وتكدس الواحها فوق بعضها البعض وتبقى على ارض الجزيرة حتى صعود مياه النهر في الربيع . وكانوا يدفعون لنا عشر كوبيكات لقاء كل لوح جيد ، ونحن كنا نستطيع ان

نسرق لوحين او ثلاثة يرميا . ولكن عملية السرقة يجب ان تجري على اية حال في الايام الماطرة حتى يحتمي الحراس داخل الابواب .

كنت اعمل مع عصابة لطيفة من زملائي ، في عدادها سانكافيا الملقب بالحماية ، وهو صبي في العاشرة من العمر ، كان ابنها لامرأة متسولة من مردانيا ، هادىء الحركة أبدا ، مرح الطبيعة دائما . وكان هناك ايضا اليتيم كوستروما ، وهو صبي شديد التحول كثير العصبية ، واسع العينين السوداوين . . . ولقد شئق نفسه فيما بعد ، عندما كان في الثالثة عشرة ، في اصلاحية للاحداث ارسل اليها لسرقته زوجا من الحمام . وكان هناك التتري خابي ، وهو شمشنو في الثانية عشرة من العمر يجمع الى القوة الخارقة نفسا طيبة ساذجة . وكان هناك ياز ذو الالف الافطس ، وهو صبي يبلغ الثامنة من العمر ، صامتا أبدا ومصابا بـ « الداء الاسود » كان أبوه حفارا للقبور وحارسا للمشيرة في وقت واحد . وأخيرا كان هناك أكبر أفراد عصابتنا ، وهو شخص اختصاصه في توجيه الاوامر يدعى ريشكا شوركا ، كانت امه ارملة تشتغل بالخياطة . وكنا جميعا نعيش في الشارع نفسه .

ولم تكن السرقة تعتبر جريمة في حيننا ، بل كانت الوسيلة العادية ، والوحيدة تقريبا ، التي يستطيع بها أكثر البورجوازيين الصفار المتضورين جوعا ان يحصلوا على القوت . كانت الايام الخبسة والاربعون التي تقام خلالها السوق السنوية لا تكفي لتطعمهم طوال السنة بحيث كان عدد كبير بصطادون الواح الخشب وقطع الحطب التي يحملها المد معه ، او ينقلون البضائع الخفيفة على عوامات صغيرة . . . ولكنهم كانوا يعمدون الى السرقة في المحل الاول . . . يسبلون الارصفة والقوارب وضاف النهر وكل ما تناله أيديهم . وفي أيام الاحاد كان الكبار يتباهون بنجاحهم . أما الصفار فيستمعون اليهم ويتعلمون منهم الدروس الباهرة .

خلال الاسابيع المليئة بالعمل اثناء الربيع التي يجري فيها الاستعداد للسوق ، كان بعض العمال يملأون الشوارع بعد عمل النهار المضني . وعندئذ كان اولاد الحي ينطلقون في استكشاف الجيوب ، وهو عمل كان مشروعا في أعين الجميع يجري تحت انظار الكبار الذين يلاحظونه في لاجبالة .

اعلن شوركا ذات يوم :

— اني لن اسرق بعد اليوم ، فأني لا تسمح لي بذلك .

وأضاف آخر :

— وانا أخاف من ارتكاب اية سرقة .

كان كوستروما يحتقر اللصوص ويلفظ كلمة « اللص » وهو يشد عليها بصورة غريبة ، فهو عندما يقع على بعض الصبية وهم يسلبون السكاري يطاردهم وينهال عليهم ضربا دون هوادة او رحمة . كان هذا الصبي الكئيب الواسع العينين يتصرف أبدا وكأنه أحد الكبار . فيسير وهو يترنح مثل الحمالين ويجرب أن يجعل صوته عميقا قاسيا . والحقيقة ان شيئا مشدودا ، منا ، غير طبيعي ، كان يبدو في شخصه كله . أما الملقب بالحمامة فكان مقتنما بان السرقة خطيرة لا تفتقر . . ولكن انتشار السواح الخشب والمواميد من جزيرة « الرمال » كان مسموحا به فلم يكن احد منا يخاف من ارتكابه ، بل اننا اخبرنا طرقا عديدة كانت تيسر علينا ذلك العمل كثيرا . كان اثنان منا ينطلقان اذا ما هبط المساء وخيم الظلام ، او في أيام الضباب الكثيف ايضا ، نحو الجزيرة فوق الجليد الموحد . كانا يذهبان بصورة ظاهرة ساعيين الى اجتذاب انتباه الحراس ، بينما ينطلق اربعتنا زحفا من جوانب مختلفة دون ان يشعر احد بنا ، وبينما يعني الحراس بمراقبة الاخرين كنا نجتمع في المكان المعين ونختار الواحنا . . ومن ثم ، في حين يخضع رفيقنا الحراس ويهربان منهم ، كنا نحن — بكل هدوء — نختار طريق العودة . وكان كل منا يملك حبلا ينتهي في احد طرفيه مسمار ضخّم منحني على شكل الكلاب كنا نربط اللوح لنجره بعد ذلك على الثلج والجليد . ننادرا ما كان الحراس يروننا . فان فعلوا كانوا عاجزين عن الإمساك بنا . ولدى بيع القيمة كنا نقسم الرصيد الى ست حصص متساوية ، وكان ثمن اللوح عادة يبلغ خمس او سبع كوبيكات .

كان هذا يكفي كي ناكل ما شئنا طوال يوم واحد ، ولكن أم رفيقنا الملقب بالحمامة كانت تجلده ان لم يجلب اليها شيئا من الفودكا معه . وكان كوستروما يوفر ارباحه كي يستطيع في المستقبل ان يحقق أحلامه في تربية الحمام . وكانت أم شوركا مريضة ، فهو اذن في أمس الحاجة الى كل ما يستطيع ان يربحه من أجلها . أما خابي فكان يوفر المال ايضا كي يرجع الى المدينة التي جاء به منها عم له غرق بعد وصوله الى المدينة .

ولسبب ما وجدنا فكرة المدينة مسلية مضحكة ، فكنا نهزأ بالتتري

ذي العينين المنحرفتين . ونشدد له على الدوام حين نلتقيه :

« هناك مدينة جد جميلة ،

لكنه لا يعرف أين هي

هنا أم هناك ، أم في الهواء »

وكان خابي يغضب منا في اول الامر ، ولكن الحمامة قال له يوما :

— دعك من هذا الان . من الذي سمع عن رفاني يغضبون من بعضهم؟

فخجل السنري . وقبل التأتب بطيبة خاطر . ومنذ ذلك الحين أصبح

ينشد وایانا تلك الاغنية .

ولكننا بقينا نفضل جمع الخرق على سرقة الالواح . ولقد أصبح ذلك العمل مثيرا جدا للاهتمام في الربيع عندما ذابت الثلوج وغسلت الامطار الشوارع المرصوفة في السوق المهجور . . وكنا نستطيع دوما ان نجد في أرض السوق كميات كبيرة من المسامير وقطع المعدن والخرق ، وبصورة خاصة في مجاري المياه . وكثيرا ما كنا نعثر على بعض القطع النحاسية او الفضية ايضا . ولكن الحراس كانوا يلاحقوننا وينزعون الاكياس منا اذا لم نعطهم كوبيكين في كل مرة ، وعلى العموم ، لم يكن كسب المال بالامر البسر ، ولكننا أصبحنا أفضل الاصدقاء في جهودنا المشتركة في سبيل الحصول عليه . وكان الخصام ينشب بيننا في بعض الاحايين ، ولكنني لا أتذكر اننا تقاتلنا مرة واحدة .

كان الحمامة يلعب دور المصلح بيننا دوما . كان أبدا يجد الكلمات المناسبة كي يهدىء من اعصابنا واحتياجنا . . كلمات بسيطة كانت ، بالرغم من كل شيء ، تدهشنا وتجعلنا نخجل من أنفسنا . وكأن هو نفسه يبدو مدهوشا عندما يتفوه بها . لم يكن يستاء أبدا من الاعيب ياز الوضيعة ، بل يفض النظر بهدوء عن كل شيء تافه على اعتباره سخيفا عديم الجدوى . كان يسأل :

— لماذا اقدمت على فعل هذا الشيء ؟

فيتضح لكل واحد منا ان ذلك الفعل لم يكن له معنى حقا . . .

وكان يسمى أمه « مرداميني » . لكن احدا منا لم يكن يجد في ذلك ما يضحك . كان يضحك وعيناه الصغيرتان الذهبيا اللون تسعان . وهو يحدثنا قائلًا :

— في الليلة الماضية عادت مردافيني الى الدار مشربة خمرد مل دجاجة مبتلة . وسقطت على عتبة الباب واضطجعت هناك تغني بملء عقيرنها . يا لها من دجاجة عجوز !

فيساله شوركا جادا :

— وماذا تغني ؟

فيضرب رفيقنا على ركبتيه في نوافق مع الموسيقى ، وهو ينشد اغنيته أمه بصوت مرتفع رفيع :

« الراعي دق على بابي . .
فمشيت وحدي للغباب . .
والراعي ينشد للجسارة
آه ما أحلى مزمزاره ! »

كان يعرف عددا كبيرا من الاغاني المرحية فينشدنا اياها في حماسة واندفاع ، واسترسل يقول :

— نعم ! ولقد استغرقت في النوم هناك على العتبة ، والريح الباردة تدخل الى الغرفة بحرية تامة . وانا ارتجف واكاد أتجمد من البرد لاني لا استطيع ان اجرها الى الدار . لقد قلت لها هذا الصباح : « ماذا تتوخين من السكر هكذا ؟ » . فاجابت : « ما هم . جرب ان تتحمل ذلك بعض الوقت ايتخينا ، فاني سرعان ما ساموت ! » .
فاكد شوركا في خطورة :

— بكل تأكيد ! سوف لن تعيش طويلا ! انبلا ترى كيف انتفخت ؟

سألت بدوري :

— هل ستأسف لذلك ؟

— بكل تأكيد ! لقد كانت اما طيبة لي .

وبالرغم من الحقيقة التي كنا جميعا نعرفها ، الا وهى ان المورداقية ضرب ابنها كثيرا ، فقد كنا على يقين من طيبة معدنها . ولقد كان شوركا يترجح في الايام حيث تكون ارباحنا قليلة :

— فليعط كل منا كوبيكا واحدا كي نبتاع قليلا من الفودكا لام زميلنا لحمامة ، كي لا تجلده .

كنت وشوركا الوحيدين الذين نعرف القراءة والكتابة ، وكان الحمامة حسدنا على هذا ، وهو بشد على اذنه المدببة الشبيهة بأذن الفأر :

— عندما تموت موردافيتى سأذهب الى المدرسة ايضا . سوف ارجو لاستاذ واقبل قدميه كي يقبلني . ثم عندما انتهى سأصبح بستانيا عند لاستف . وربما عند القيصر نفسه .

وفي ذلك الربيع ، قتلت المورداقية مع عجوز كان يجمع النبرعات لبناء كنيسة جديدة ، عندما سقطت عليها كومة من الاخشاب ونقلت المرات الى لمستشفى ، فقال شوركا للحمامة :

— تعال وأسكن معنا . ولسوف تعلمك امي القراءة .

كان حبه الفائق للاشجار والاعشاب بدهشنا ويسلبنا ...

كان حيننا رمليا فلا يجد المرء فيه الا قليلا من الخضرة ، الا بعض اشجار لصفصاف الهزيلة هنا وهناك فى ارض الباحات ، او بعض فروع البيلسان اللتوية أحيانا . وقليل من العشب الجاف المختنى تحب الاسورا . وعندما كان احدنا يجلس على هذا العشب ، كان الحمامة بوبخنا غاضبا :

— لماذا تفسدون العشب ؟ الا تستطيعون الجلوس على الرمل ؟ ذلك سواء لذبكم ؟

وكنا نتردد في حضوره في اقتطاع غصن من البيلسان الزهر او غصن من الصفصاف المتفرع على ضفاف النهر . كان يقول لنا عندئذ ، وهو يهز كتفيه في ذهول :

— لماذا تفسدون الاشياء دوما ، أبها الشباطين ؟

كان ذلك الدهول يخلجنا ...

كنا نجمع ، طوال الاسبوع ، الاحذية المعتيقة البالية من الطرقات استعدادا لرياضة ايام السبت ، حيث كنا نخبىء في المساء في احد الشوارع نتنظر ان يغادر الحمالون التتار الرصيف كي نرميهم بالاحذية . وكانوا في البدء يعضون ، فبلعنونا ويطاردونا ، ولكن سرعان ما استهوتهم التسلية دورهم ، فكأوا يسلحون أنفسهم بالاحذية البالية أيضا استعدادا للمعركة القادمة ، لا بل كانوا بسرقة احيانا مخزننا بعد ان اكتشفوا المكان الذي نضع فيه الاحذية . ولكننا اعترضنا على ذلك ، فقلنا :

— هذا لبس لعبا .

وعندئذ كانوا بقاسموننا السرقة ، ثم تبدأ المعركة . وكانوا يتخذون بالاحذية الدالية . وكانوا يصرخون بدورهم وينفجرون ضاحكين كلما دفن احدنا انفه في الرمل وقد اصابته قذيفة .

كان اللعب بسنبر احيانا حتى حلول الظلام . وكان بعض البورجوازيين الصغار يتفرون علينا محتمين بأحد المعطفات ، وهم يحتجون على اطلاق راحة الناس . ولكن الاحذية كانت لا تنقطع عن الطيران في الهواء اشبه ما تكون بعصافير رمادية مغبرة . وكان احدنا احيانا ينال صفقة قاسية ، ولكن لذة القتال تعوضه عن كل السم .

وكان التتار بجاروننا في حماستنا ، فاذا انتهى القتال كما نرافقهم احيانا حتى الست حيث كانوا يقدمون لنا صحنوا من لحم الخيل مع نوع خاص من الخضار المطبوخة . ويقدمون لنا بعده شايا كثيفا ونوعا من اللوز . كنا محرمين حدا بهؤلاء الرجال العمالقة الذين يبدو كل منهم أقوى من الآخر ، فقد كان فيهم شيء طفولي وطبيعي . . . وقد تأثرت خاصة عندما وجدتهم لا يستأثرون أبدا من بعضهم ، بل هم يتعاملون بلطف واحترام دائما .

كان جميع المتريين يضحكون كثيرا . . . يضحكون حتى تسيل الدموع على وجناتهم . وكان أحدهم مخطم الانف ، خرافى القوة ، لقد حمل ذات يوم جرس كنيسة نزن متطارين من أحد المراكب حتى ضفاف النهر نزمجر عندما يضحك ولا ينقطع عن الصياح والتفوه بما لا يتمكن من فهمه .

وفي ذات يوم ، حمل الضامة على راحة يده ورفعها عالبا في الواء ، وقال :

— اذهب وعش هناك في السماء !

وفي الايام الماطرة كنا نجتمع في البيت الصغير في المقبرة حيث يعيش
ياز مع والده . كان ابوه هذا رجلا طويل الذراعين ، نغطى جمجمته ووجهه
خصل من شعره القذر . كان رأسه يشبه رأسا من اللفت يقوم على عنقه
المتعظم المهزبل . كان يضيق عينيه الصفراوين بصورة مبهجة ، ويغمغم بسرعة :
— فليحفظنا الله من الليالي المؤرقة .

وابتعضنا شيئا من الشاي وبعض السكر والخبر وقليلًا من الفودكا لوالد
ياز . . . وكان شوركا يعطي التعليمات باستمرار :

— انتبهوا أعينكم جيدا . بعد غد ستقام في دار آل تروسوف
وليمة احتفالية احياء لذكرى اجدهم . ولسوف يكون هناك كميات كبيرة
من العظام .

فيقول شوركا ، ولديه الخبر اليقين دائما :

— ان طبخة آل تروسوف تحتفظ بالعظام لنفسها على الدوام !

ويقول الحمامة متأملا :

— سرعان ما سيصبح الطقس جيدا فنستطيع الخروج الى الغابات .

كان ياز نادرا ما يتكلم ، بل هو يراقبنا في سكون بعينه الكثيبتين .

ويهييء والده المائدة ، فنضع عليها اقداحا مختلفة الاشكال ، ثم يحمل
اليها المصباح . ويصب حوسروما الشاي ، بينما بحثسي العجوز حصته من
الفودكا ، ويتسلق على المود يتطلع بنا من عل بعينين كعيني البوم ، وهو
بغمغم :

— الا فلتحل اللعنة عليكم ! انتم كائنات بشرية ، ام ماذا ؟ عصه
حزمة من اللصوص ، فليحفظنا الله من الليالي المؤرقة .

ويقول الحمامة :

— رلكننا لسنا لصووبا !

— لصوص صغار اذن ؟

وعندما يرهق والد ياز أعصابنا ، كان شوركا يصيح به في قسوة :

— اخرس ، أيها الموجيك اللثيم !

كنا لا نطيقه ولا نطيق الاستماع اليه وهو يعدد مرضى الحي ، ويتساءل
عمن سيموت منهم قبل الآخر . كان يخال لنا انه يمتص شنقيه في انتظار ذلك
الحادث دون ان تعرف المشفقة طريقا الى قلبه ، وعندما يرى أن أقاصيصه
تضايقنا كان يتعمد ازعاجنا ، فيروح يسخر منا .

— انكم تخافون ، أيتها الحشرات الصغيرة ! ان هناك رجلا كبيرا سمينا
سوف يموت عما قريب .

ونحاول اسكاته ، ولكنه يسترسل قائلا :

— ولسوف ياتي دوركم عما قريب ، فلا تنتظروا ان نعيشوا طويلا فوق
هذه الاكداس من الاقدار حيث تعبثون .

فيقول الحمامة :

— حسنا ، سوف نموت . ولسوف نصبح ملائكة .

فيقول والد ياز مدهوشا :

— أنتم ؟ ملائكة ؟

ومن ثم ينفجر ضاحكا ، ويعود فيعذبنا بأقاصيصه المقيته عن الموتى
والجثث :

— اسمعوا ، ايها الفتيان ! لقد دفنوا بالامس سيدة ذات قصة عجيبة .
ولقد اكشفت كل شيء عنها ، ما رأيكم في ذلك ؟

كان كثيرا ما بتكلم عن النساء وبصورة بذينة دوما . ولكن شيئا من
الشك او التساؤل كان يتسرب الى أقاصيصه ، وكأنه يتوجه اليها كي نساعد
على فهم ذلك جدا . وكنا نصغى اليه بانتباه ، وهو يتحدث فيقطع حديثه
كثيرا كي يطرح علينا الاسئلة . ولكن ما بقوله كان بترك دوما اشياء مثيره
في ذاكرتنا .

كان يعرف قصة حياة كل من دفنهم في أرض تلك المقبرة المهجورة .
وعندما كان يتحدث ، فكأنه كان يفتح أمامنا أبواب المنازل المحيطة بنا ، فندخل
اليها ونشاهد حياة سكانها ، ونحس شيئا رهيبا خطيرا في هذا العمل .
وكان يبدو قادرا على الحديث طوال الليل ، ولكن شوركا كان بهب واتفق
عندما يقترب الظلام من النوافذ ، ويقول :

— اني ذاهب الى الدار — فلسوف تقلق امي . من يرافقتني ؟

ونرافقته جميعا . . . فيصحبنا ياز حتى السور .

فنرد السلام عليه منزعجين من تركنا اياه في المقبرة . وفي ذات مساء ،
تطلع كوستروما الى الخلف ، وقال :

— سوف نستيقظ ذات صباح فنجدده ميتا .

كان شوركا غالبا ما يدعى ان ياز يعيش حياة اسوأ من حباتنا جميعا ،
فيعترض الحماسة عليه :

— نحن لا نعيش بصورة سيئة ابدا .

وكنت اوافقه على ذلك . كنت اتمتع بحياة الشوارع المستقلة كما كنت
مولعا برفاقي ، تملأني صحبتنا بشعور عظيم جديد يوحى الى الرغبة الدائمة
في مساعدتهم جميعا . . .

وعدت الاثني المصاعب في المدرسة ، فطفق التلاميذ يلتقونني بالشحاذ
وجامع الخرق ، ثم أعلنوا للاستاذ بعد شجار نشب بيننا ان رائحة منتنة
تفوح مني بشدة حتى يستحيل الطلوس الى جانبي . وما زلت أتذكر كم ألمني
ذلك الافتراء ، وكم صعب على ان أعود الى المدرسة بعد ذلك . كانت
الشكوى افتراء حقيقيا لاني كنت دائما اغتسل بعناية فائقة كل صباح ، ولا
أروح الى المدرسة ابدا في ذات الثياب التي ارتديها عند جمع الخرق .

وأخيرا ، اجتزت امتحانات الصف الثالث بنجاح كوفئت عليه بشهادة
شرفية وهدية التوراة ، وكتاب خرافات كريلوف ، وكتاب آخر يحمل
عنوانا غامضا « نباتا مورجانا » . وعندما حملت هذه الهدايا الى الدار ،
تأثر جددي كثيرا بها ، وشعر بفرح عظيم فعلم ان من واجبنسا الاحتفاظ

بالكتب في حرز أمين ، وانه في سبيل ذلك سيحفظها في دولابه . وكانت جدتي تلازم السرير لمرض الم بها منذ أيام ، بينما جدي يزجرني وجهها ابدا ويعوي :
— لسوف تخربين بيتي ! فتاكلين وتشربين على حسابي . . .

وهكذا اخذت الكتب الى احد الباعة فاشترتها مني بخمسة وعشرين كوبيكا عدت بها الى جدتي .

وعندما انتهت المدرسة ، عدت الى حياة الشوارع التي امست مع قدوم الربيع اكثر سحرا وروعة . . . واصبنا الان نكسب كمية اكبر من المال ، وفي ايام الاحاد نذهب جميعا الى الحقول والغابات ، وقد زادت اواصر الصداقة فيما بيننا .

غير ان هذه الحياة لم تطل كثيرا ، اذ ما لبثت زوج امي ان فقد عمله فغادرنا مرة اخرى الى مكان ما ، فجماعت امي واخي الصغير نيقولا ي لقيما مع جدي . ولما كانت جدتي قد ذهبت للاقامة في دار تاجر ثري كانت تطرز له غطاء لجسد المسيح ، فقد كان علي ان اعني بتمريض اخي الصغير .

كانت امي الساكنة دوما تكاد لا تجد القوة لرفع قدميها عن الارض ، بينما اصيب اخي بقروح في مرمفته ، شديد الضعف حتى ليعجز عن البكاء ، فان جاع راح يئن بصورة مستمرة ، وان لم يكن جائعا فهو يغفو وبصعد زفرات متقطعة .

قال جدي ذات يوم ، بعد ان تفحص الرضيع طويلا :

— ان ما يحتاج اليه هو الغذاء الحسن ! ولكن من أين لي كي اطعمكم جميعا !

فاجابت امي ، وهي تتنهد :

— انه لا يحتاج الى شيء كثير !

— هذا صغير . . وذاك صغير . .

ولوح بده في قرف وتوجه الى قاتلا :

— ان نبقولا ي يحتاج الى الشمس ، فاخرج به على الرمال . . .

أخذت كيسا من رمل جاف نظيف ، وكومته في بقعه مسمه حسنت
النافذة ، ومن ثم دفنت أخي فيه حتى العنق منلما امرني جدي ، غبدا على
الرضيع انه احب ذلك . . . فكان يظرف بعيسيه راضيا ، ويمرس بعينين
مذهمنين .

أصبحت معرما جدا باحي . . . اظن انه يعهم كل افكاري ، ماسلمني
الى جانبها ساعات طويلة حب النافذة الي يتناهى الي منها صوب ابي
المسدوي :

— ان الموت لا يكلف تفكيرا طويلا . له كنست مقط سلكين ما يكفي من
الذكاء كي معرفي كيف نعيشين الان . . .

وكان نيقولاي بحرر ذراعيه الصعيرنين ويرفعهما نحوي ، وهو يشير
برأسه الشاحب . واذا اقترب منا قط او صوص ، راح نيقولاي يراقبه
بانباه مركز ثم يستدير الى وعلى شففيه ابسامه ناطلة . كانت هذه الإبسامه
نقلقني . . . ايمن ان أخي قد أدرك مبلغ ضجري من الجلوس ههنا الى
جانبه ! وهل يفهم ان ما ارغب فيه هو التخلص منه واللحاق بامدقائي نسي
الشارع ؟

كانت الباحة صغيرة ملاي بمخلف الانقاس ، والخروف ، وعدد من
المظلات المهترئة ، واثمياء أخرى سواها تمتد من البوابه حني عرفة الحمام
في أقصى الباحة . . . وكانت السطوح مزدحمة بالواح من الخشب والعد
وحطام القوارب والنجارة المبلولة ، وجميعها صيد من النهر ايام الفيضان
بعد ذوبان الثلوج في الربيع . وكانت الباحة بأسرها مزروعة بقطع من
الخشب تفوح منها رائحة العفن عندما تضربها الشمس .

وكان البيت المجاور لنا مذبحا صغيرا يأتينا منه في كل صباح تقريبا
خوار البقر ، وثغاء الخراف ، ورائحة الدم التي كان يخيل الي لشدتها انها
تعلق في الهواء مثل شبكة دقيقة .

وعندما كانت صباحات الحيوانات تخرس بضربة من قضيب حديدي
نتهال بين قرونها ، كان نيقولاي يقطب جسنه ويمد شففيه فكانه يحاول ان
بقلد أصوات الحيوانات ، فلا ينجح الا في اخراج صوت ضئيل غير مفهوم .
وعند الظهر ، كان جدي يمد رأسه من خلال النافذة وينادي : « الغداء ! » .

وكان هو نفسه يأخذ الرضيع على ركبتيه ويطعمه ، يمزج الخبز والبطاطا له قبل ان يدفعا بين شفتيه الرقيقين ، وهو يلوث له فمه وذغنه الصغيرة ويقول :

— أنساءل ان كان هذا يكفي .

منقول امي من الزاوية المظلمة حيث ترقد :

— افلست برى انه يمد يديه الى الخبز ؟

— ان الطفل لا يعرف ان كان قد نال حاجته أم لا .

ولكنه كان يدفع لقمة اخرى في فم الصعير بالرغم من ذلك . ويقول جدي اخيرا :

— حسنا ! خذه الى امه الان .

وعندما كنت آخذ نيتولاي بين ذراعي ، كان يئن ويمد ذراعيه نحو المائدة . وكانت امي ، وقد نحلت بشكل مخيف ، تنهض نفسها لتلقاني وهي نهد ذراعيها الطويلين العاريين من اللحم .

ونادرا ما كانت تنكلم . أما الكلمات القليلة التي تنفوه بها فتندرج بسرعة من صدر مسلول ...

كانت ترقد طول النهار في مسكون وتموت ببطء في تلك الزاوية .

كنت احس انها تشرف على الموت ، وجدي يوضح ذلك بكثرة حديثه عن الموت ، واصراره على ذكره دون انقطاع .

كان سرير جدي يقوم في الزاوية تحت الايتونسات تقريبا ، وكان ينام ورأسه الى النافذة ، وقبل ان يستسلم للنوم يروح يغغم بينه وبين نفسه:

— حسنا ! لقد جان اوان المسوت ، ولسوف نقدم الى خالقنا مشهدا رائعا . ماذا عسانا ان نقول ؟ لكأنني أشتغل طوال حياتي — أعمل دوما شيئا ما . وهذا ما نتج عن ذلك !

كنت أنام على الارض بين الموقد والنافذة ، وكانت المساحة قصيرة جدا

بالنسبة الي ، فاضطر الي دفع قدمي تحت الموقد حيث لا تنقطع الصراير
عن دغدغة جلدي . كان جددي ، وهو يطهو الطعام ؛ يكسر أبدا زجاج النافذة
بالطرف الاخر من ملقط النار الذي يدفع به اوعية الطعام من الفرن واليه .
كان من الغريب والمضحك ان رجلا ذكيا مثله لم يفكر في قطع الطرف الاخر من
الملقط للتخلص من آذاه .

وفي ذات يوم ، بينما كان شيء ما يغلي على الفرن ، دفع بالملقط
بشدة حتى كسر الوعاء وحطم مصراع النافذة ولوحين من الزجاج . وكان
ذلك مصيبة عظيمة خصوصا بعد ان جلس المعجوز على الارض وشرع يبكي .
وعندما ترك البيت اخيرا ، تناولت سكين الخبز وقطعت نهاية الملقط . . .

صاح جددي ، عندما رجع ورأى ما فعلت :

— أيها اللعين ، كان يجب ان تنشره ، هل تسمع ؟ تنشره بالمنشار !
كان يمكن ان نصنع من قطعه بعض الدبابيس ونبيعها . الا تبالهذه العائلة
المبذرة !

وقالت امي عندما خرج مسرعا الى الرواق :

— الافضل الا تهد يدك الى اي شيء مهما كان .

ماتت امي ظهر يوم أحد من شهر اب . كان زوجها قد عاد حديثا من
رحلته ووجد عملا ، وقد انتقلت جدتي ونيقولاي واياه الى جناح نظيف صغير
يقع بعد المحطة حيث كانوا سينقلون امي بعد ايام قليلة . . .

وفي صبيحة اليوم الذي ماتت فيه ، قالت لي بصوت ضعيف :

— اذهب وقل ليفجيني فاسيليفيتش اني أريد ان اراه .

وجلست ، وهي تعتمد على الحائط لتسند نفسها . . .

واستطردت ، وهي تعود فتسقط على الوسائد :

— اركض سريعا !

خيل الي انها كانت تبتمسم وان نورا جديدا كان يلعب في عينيها . كان

زوج أمي في الكنيسة فأرسلني جدتي الى اليهودية كسي أشتري بعض السعوط . ولم يكن لدى هذه الاحيرة شيء منه ، فكان علي ان أنتظر تهيئته .

عندما عدت أخيرا الى بيت والدي ، وجدت أمي جالسة الى المائدة تردي ثوبا نظيفا . وقد سرحت شعرها بعناية ، فخوره متكبره مثلما كانت عليه عيها مضي .

سألتها خجولا ، دون ان ادري سبب ذلك :

— هل أنت احسن من ذي قبل ؟

فقلت ، وهي ترمقني :

— تعال هنا . أين كنت حتى هذه الساعة ؟

وقبل ان أجد الوقت الكافي للاجابة ، أمسكت بي من شعري وحاولت ان تضربني فلم تتمكن من ذلك . تم دفعتني ، وذهبت وجلست على حافة الموقد ورحت أراقبها بعينين مذعورتين .

تابت عن مقعدها . ومنست ببطء نحو الزاوية حيث رقدت على السرير وشرعت تجفف العرق المنصب على وجهها . كانت يدها تتحرك في اضطراب ، كما سقطت مرنين على الوسادة والمنديل يرتجف بين أصابعها .

— قليلا من الماء ...

قدمت لها غدح ماء من السطل . فابتلعت جرعة وهي ترفع رأسها بسعوية خلية . ودفعني عنها بيد باردة وصعدت زفرة عميقة . نظرت الى الايقونات في الزاوية . ثم تطلعت الي : وحركت شفيتها وكأنها نتسم : ثم ادبت جفنبها الطويلين على عينيها . كان مرفقاها مشدودين الى جانبيها . بينما ارتفعت بداها الى صدرها . ومر ظل على وجهها ، بينما فتحت فمها في دهشة .

وقفت هناك وقتا بدا لي انه أجيال كثيرة لا حصر لها . والفتوح في يدي ، انب يحه أمي وهو سحلب وبكسي باللون الرمادي .

دخان جدي . قلت :

— لقد ماتت أمي .

فأجاب ، وهو يلقي نظرة سريعة على السرير :

— لماذا تكذب ؟

ثم اتجه الى الفرن وراح يحرك الفطير وهو يثر ضجيجا مملا :

راقبته ، وأنا أعلم أن أمي قد ماتت ، وانتظر ان يتحقق من ذلك .

ودخل زوج أمي ، وهو يرتدي معطفا صوفيا أبيض ويغطي رأسه بقبعة . تناول بكل هدوء مقعدا وحمله الى جانب سرير أمي . بغتة ، أسقط المقعد من يده ، وصاح :

— لقد ماتت !

فترنح جدي في اتجاه السرير ، والمقط في يده ، وعيناه تكادان ان تنفزا من محجريهما .

عندما بدأوا يجرفون الرمل على نعش أمي ، راحت جدتي تتنقل على غير هدى بين القبور الأخرى . فتعثرت بأحد الصلبان ، وسقطت على وجهها الذي تأذى من ذلك . أخذها والد ياز الى بيته ، وبينما هي تغسل جرحها كان هو يهمس في أذني بهدوء بكلمات معزية :

— فليحفظنا الله من الليالي المؤرثة ! ما بالك ؟ يجب الا تشغل بالك بمثل هذا الامر . ألسنت على حق ، أبتها الجدة ؟ ان الفقير والغنى بذهبان حميما الى الحفرة .

عندما انتهت جدتي من الاغتسال ، لفته مندبلا حول وجهها المنتفخ ودعنتي كي أرافتها الى الدار . لكنني رفضت . . . فقد كنت أعلم انهم سيشربون ويتقاتلون في خلال الوليمة التي تتلو الماتم . كنا في الكنيسة بعد عندما سمعت الخال ميخائيل يقول للخال ياكوف :

— حسنا ! سوف نتناول قدحا لا بأس به هذا النهار ، ما ؟

فجرب الحماة ان بخنفي عنى بتعليق المهامز ومحاولة الوصول اليه

بلسانه ، فطفق والد ياز يضحك ضحكا واضح المبالغة ، وهو يصيح :

— انظروا فقط ما هو فاعل ، انظروا فقط !

لكنه عندما رأى يشمل ذلك في تسليتي ، انقلب جادا وقال :

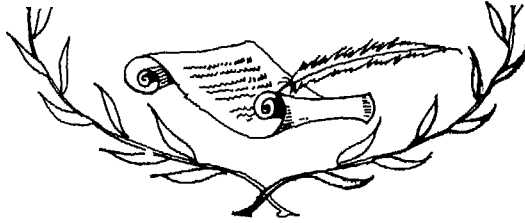
— كفى ، كفى ! تمالك نفسك ! لا بد لكل انسان ان يموت ! حتى العصافير تموت ! ان كنت تريد ذلك فسوف أضع بعض العشب حول قبر امك . هل تحب ذلك ؟ سوف نذهب الى الحقول الان ونجمع ذلك العشب . سوف نقتطع العشب ونضعه حول القبر . ولن يكون هناك قبر اخر ينازعه جمالا .

اعجبتني هذه الفكرة ، فذهبنا جميعا الى الحقول ...

بعد أيام من وفاة والدتي قال لي جدي :

— حسنا ، يا الكسي ! اني بالضبط لا أستطيع ان ابقىك مدالية معلقة في عنقي . ليس لك من مكان بعد اليوم ههنا ، فقد آن لك ان تخرج الى ما بين الناس ...

وهكذا خرجت الى العالم ...



الادباء العرب

١٩٩٧



منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان